

منهاج الحداثة لنهج البلاغة

الشيخ
عبد العزيز عبد الله الحبيب

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً



المقدمـــــة

منهاج التدبّر في نهج البلاغة

لم أتردد لحظة عندما قررت الكتابة في شرح خطب الإمام أمير البلاغة علي بن أبي طالب عليه السلام في نهجه البلاغي بعباراته، والحياتي بمنهاجه، بالرغم من أنني توقفت برهة في منهجية الكتابة البحثية عن منهجه الخطابي وكلماته عليه السلام، حتى هداني الله تعالى - والحمد لله - إلى اعتماد شرح خطبه البلاغية من خلال اقتباس منهجية التدبر القرآني ﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن، أم على قلوبٍ أقفالها** ﴾ محمد / ٢٤ والتي ترعرعتُ على ضوئها منذ الصغر، خصوصاً أن جميع خطبه عليه السلام تشتمل على مضامين قرآنية في معرفة الخالق والمخلوق ، من هنا.. فقد اعتمدنا في جلّ شرحنا لفقرات خطبه عليه السلام ذكر آيات من القرآن الكريم بما يتناسب ومضمون عباراته وكلماته عليه السلام، كيفْ لا.. وهو القرآن الناطق، ولعل هذا عند كثير من المحققين من أهم أدلّة حجية القطع بصحة صدور خطب نهج البلاغة وغيره عن الإمام علي عليه السلام والتي قد جمع بعضها أحد أبرز علمائنا الأعلام المرحوم السيد محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن الإمام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام والمشهور بالشريف الرضي أعلى الله مقامه، والمولود في

بغداد سنة ٣٥٩ للهجرة النبوية المباركة، وكما قال الشاعر:

كـــــتـــــابٌ كـــــأنَّ الله رصّع لفظه

بجـــــوهر آيات الكتـــــاب المنـــــزل

حـــوى حكمـــاً كـــالدر ينطق صـــادقـــا

ولا فـــــرق إلا أنه غـــــيـــــر منزل

هذا .. إضافة إلى الأدلة الأخرى الدامغة على صحة نسبة خطب نهج البلاغة للإمام عليه السلام وغيرها من الخطب الأخرى التي جُمعت في متفرقات من كتب شتى، والتي تحقق بعض علمائنا الأعلام بوجودها وثبوتها في المصادر المرجعية القديمة للكتب خطبة خطبه قبل حياة السيد الشريف الرضي نفسه والذي قد توفى في العام ٤٠٦ للهجرة النبوية الشريفة، ولعلّ أبرز من تصدى للمسئولية التاريخية الكبيرة في إسناد خطبه عليه السلام والتحقق من صحتها هم : -

١ - العلامة السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب في كتابه القيّم: مصادر نهج البلاغة، وهو من أربعة أجزاء، حيث يرشد إلى مصادر كل نصّ وخطبة من خطب نهج البلاغة، ومن أين أخذه الشريف الرضي .

٢ - العلامة الإستاذ امتياز عليخان العرشي الرامفوري، وهو من كبار علماء الإسلام وفضلائهم بالهند، في كتابه الثمين: اسناد نهج البلاغة .

٣ - الدكتور السيد جواد المصطفوي الخراساني، في كتابه باللغة الفارسية بعنوان: بررسي اسناد ومدارك نهج البلاغة - أسانيد ومصادر نهج البلاغة .

٤ - الإستاذ علي موحدي ساوجي، كتابه باللغة الفارسية بعنوان: بنياد نهج البلاغة - مؤسسة نهج البلاغة .

٥ - المحقق رضا استادي، كتابه باللغة الفارسية تحت عنوان: بحث كوتاه بيرامون مدارك نهج البلاغة - بحث موجز حول مدارك نهج البلاغة.

وبالرغم من أنني لا أدعي أفضلية من قام بشرح بعض خطب الإمام علي عليه السلام إطلاقا .. ولكنني أستطيع القول بتميز تناولنا في شرح خطبه عليه السلام

رغم تميز الآخرين في شروحاتهم من علمائنا الأخيار بلحاظ الجهات الأخرى التي امتازوا بها في كتاباتهم عن النهج، والتي تعدّدت شروحات علمائنا الأعلام لخطب الإمام علي عليه السلام المائتين وعشرة مصنفات مختلفة، والتي قام العلامة الجليل الشيخ حسين جمعه العاملي بذكرها جميعاً في كتابه القيّم تحت اسم : (شروح نهج البلاغة)

فبالرغم من هذا الكم الهائل والمتنوع والمتعدد في التعرض بالشرح لخطب الإمام علي عليه السلام المختلفة، جاء شرحنا هذا لخطبه عليه السلام متميزا عن سائر الشروح في طريقة تناول الخطبة والمنهجية الموضوعية لتلكم الخطب، والتي اعتمدنا فيها على نفس منهجية التدبر في القرآن الكريم، والتي تعتمد في التركيز من حيث المبدأ على استخلاص المحور العام للخطبة، والرؤية العامة التي كان الإمام عليه السلام يريد أن يزرعها في عقول المخاطبين، إذ أن محور شرحنا هذا يعتمد في الدرجة الأساسية على استخلاص البصيرة العامة لكل خطبة، ومن ثمّ التحليق حولها بما يرتبط بها من بصائر أخرى، وبالتالي ربط مواضيع نهج البلاغة بواقعنا المعاش، ومحاولة جادة لاستقراء المستقبل بالارتباط بأحداث الماضي مروراً بواقعنا الحاضر، وذلك بلغة عصرية واضحة ومفهومة.

والبصيرة المستخلصة بواسطة منهج التدبر هو ذات المنهج المعبر عنه في الآية الشريفة ﴿ **قل إنما أتبعُ ما يوحى إليّ من ربي، هذا بصائرُ من ربكم، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا، لعلكم ترحمون** ﴾ ﴿الأعراف / ٢٠٣ - ٢٠٤﴾ والذي يهدف القرآن الكريم فيه إلى تجذيرها في نفوس أبناء الأمة ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عَمِيَ فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ ﴿الأنعام / ١٠٤﴾ .

والله أسأل أن يوفقنا للمضي نحو شروح أخرى لخطب أمير المؤمنين عليه السلام في أجزاء أخرى قادمة إنشاء الله تعالى، والله الموفق وهو المستعان .

الكويت
شهر رمضان ١٤٢٠ هـ
يناير ٢٠٠٠ م

" التوحيد طريق لمعرفة الله "

((أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة: فمن وصف الله سبحانه فقد قَرَنَه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه. ومن قال ((فيمَ)) فقد ضمّنَه، ومن قال ((علامَ ؟)) فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم. مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمُزايَلَة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحّد إذ لا سَكَنَ يستأنس به ولا يستوحش لفقده)).

الدين هو ما يعتقده الإنسان ويتخذه منهجاً، فمن دان بشيء اعتقد به، وهو بالمصطلح الحديث يعني الأيدلوجية فـ ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ آل عمران آية ١٩، كما في قوله تعالى ﴿ **ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه** ﴾ آل عمران، آية ٨٥ ،

ويبتدأ الدين الإسلامي بنظرية التوحيد والطريق للتوحيد هو معرفة الله عز وجل، ومن هنا يستعرض إمام الموحدين على بن أبي طالب سلام الله عليه في خطبته فيقول **أول الدين معرفته** فإن أول العقيدة معرفة الله أنه هو خالق الكون والإنسان، ولكل شيء حالة تكاملية، وكمال معرفة الله هو العمل على إتباع دينه، فبعد أن سلط الإمام الضوء على الفهم التصوري كما في المنطق من خلال المعرفة الحقيقية سرعان ما أشار إلى الفهم التصديقي بالله أي التطبيقي والعملي **وكمال معرفته التصديق به** وعمل الإنسان هو الذي يحكم على سلامة عقيدته، فبعض من كان في العصر الجاهلي ممن يؤمن بالله عز وجل إلا أنه في مقام العمل يشرك به عندما يتخذ له أنداداً وأصناماً يتقرب بها إلى الله تعالى، تعالى الله عما يفعل الجاهلون علواً كبيراً.

وكمال توحيده الإخلاص له ولابد للمؤمن أن يستوعب معنى الإخلاص نظرياً حتى يتجنب السقوط في المعتقدات الفاسدة، وغريزة الاعتقاد الصحيح في مفهوم الإخلاص تتكئ على نفي الصفات الآدمية عنه سبحانه باعتبارها صفات محدودة ومكتسبة، إلا أن صفات الله تعالى غير مكتسبة ولا محدودية فيها، فصفات الله هي عين ذاته وهذا هو الذي عبر عنه المتكلمون، حيث.. **وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه** فإن هناك تلازماً بين التوحيد وبين نفي الصفات عن الله عز وجل لأن الصفة عند المخلوقين شيء وذاتهم شيء آخر، فإنه لو قيل أن لله ذات وصفات غير الذات ملاصقة به سبحانه دلت الصفات على غير الموصوف فتحدث الإثنينية التشريكية - الله والصفات، تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

فالصفات الإلهية هي عين ذاته وذلك بسبب **شهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة** فأول ما تقود العقيدة الخاطئة بصاحبها نحو الانحراف العقائدي حينما يفكك بين الله وصفاته لأن القول بذلك يقود إلى نظرية الاقتران بين شيء وآخر بين الله والصفات، وهذا الاقتران يعني بكل بساطة العدد اثنين وهو مناقض لجوهر التوحيد **فمن وصف الله فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزّأه ومن جزّأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حدّه**

ومن حدَّه فقد عدّه ومن عده فقد ناقض توحيده جل وعلا، إذ هو الواحد الذي لا ثاني له، وتستحضرني قصة للإمام علي عليه السلام مع ابنته السيدة زينب عليها السلام بطلة معركة كر بلاء حينما كانت طفلة صغيرة تتأرجح على حجر والدها، فقال لها أبوها عليه السلام: " يا زينب قولي واحد، فقالت واحد، ثم قال لها قولي اثنين فقالت عليها السلام من قال واحد لا يقول اثنين"، إشارة منها عليها السلام إلى نظرية التوحيد الإلهي.

ثم يشير الإمام علي عليه السلام إلى بعض الجزئيات التفصيلية الدقيقة في المعرفة الإلهية بقوله **ومن قال فيم فقد ضمنه** أي لا يجوز أن نقول أنه تعالى في أي شيء موجود وذلك للظرفية، والمظروف دائماً محاط بالظرف فيكون محدوداً بحدود الظرف والله سبحانه وتعالى غير محدود ؛ وكذلك لا يجوز أن نتساءل أن الله جل وعلا على ماذا موجود ؟ إذ أن الشيء الكائن على شيء آخر يكون الأسفل منه خالياً عنه، كما أنك إذا قلت زيد على الأرض كان لازم ذلك خلو باطن الأرض من زيد، **ومن قال علام ؟ فقد أخلى منه.**

والخلاصة فإنه من غير المعقول أن نقول لله عز وجل - أين ؟ في ماذا ؟ على ماذا ؟ ومتى ؟.. إذ أنه تعالى **كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، ومع كل شيء لا بمقارنةٍ، وغير كل شيء لا بمزايلةٍ** . فإن كل شيء زائل إلا وجهه سبحانه، وننهي موضوعنا هذا باستعراض بقية كلماته عليه السلام الدالة على التوحيد، حيث أردف قائلاً **فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة، بصيرٌ إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحدٌ إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده.**

وحتى يتجلى إيماننا التوحيدي بالله عز وجل ما علينا إلا أن ننزه الباري عز وجل عن جميع الأسئلة والاستفسارات الطبيعية التي يوجهها الانسان لنظيره الانسان ، فالأسئلة مثل : أين كنت ، ومن أين أتيت ، وممن خلقت ، وكيق وجدت ، ومع من كنت ، وفيما كنت ، وعلى أي أساس جئت ، وأنك تشبه فلان ، وصفاتك مثل فلان ، وعلى أي أساس خلقت وأين تنتهي ، وإلي أي مكان تذهب ... الخ وآلاف الأسئلة على غرار ذلك ، فجميع هذه الأسئلة والشبهات والاستفسارات ممكن للأنسان أن يوجهها

لنظيره الانسان ، ولكننا لا يجوز لنا أن نوجهها لله عز وجل ، إذ أننا مخلوقون ، والله هو الخالق ، والمخلوق بطبعهِ ضعيف وناقص يمكنه أن يتعرف على نظيره الآخر المخلوق الناقص ، ولكنه أنى له أن يحيط بكُنه خالقه الكامل .

" خالـــــق الكـــــون "

((الحمد لله الذي لا يبلُغُ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادُّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعْدُ الهمم، ولا يناله غوص الفِطَن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه)).

قد يتوجه الشكر من المخلوق للمخلوق على خدمة أسداها لنظيره الإنسان فيقوم المخدوم بالثناء والشكر الجزيل لمن قدم إليه معروفاً، فمن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق، وكذلك فقد يوجه الإنسان شكره الجزيل للخالق عز وجل على نعمه الفياضة عليه، فبالشكر تدوم النعم.. لكن الشكر شيء والحمد شيء آخر، فإن الحمد لا يكون إلا من المخلوق للخالق فقط، فنحن في كل يوم نقرأ سورة الفاتحة في صلواتنا اليومية فنبدأ بعد البسملة ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾، والإمام أمير المؤمنين علي سلام الله عليه يفتتح خطبته التي يذكر فيها قدرة الله عز وجل في خلقه فيقول **الحمد لله** فهناك ثلاثي مترابط ومتفاعل " الخالق " و " المخلوق " و " النعم "،

فالمخلوق هو المستفيد الأول والأخير بين الخالق وبين نعمه التي تأتي له رغداً ويقابل ذلك منه التهليل والتحميد للخالق، هذه المعادلة البسيطة التي يستوعبها كل إنسان، لكن هل يمكن أن يعادل حمد المخلوق بمستوى النعم والعطايا الإلهية ؟!. يأتيك القرآن كي يجيب على هذا السؤال بقولهْ تعالى: ﴿ **وإنْ تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ النحل آية ١٨، فإذا كنا لا نستطع أن نحصي نعم الله علينا فهل تستطيع ألسنتنا العاجزة توفية حق النعمة بالشكر والحمد لله تعالى ؟!!. هنا يقول الإمام علي عليه السلام في خطبته **الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون** فالقائلون الذين يقولون الحمد لله ويتكلمون به فتعجز ألسنتهم عن أن تبلغ مدحته عز وجل.

ولو كانت الأشجار أقلاماً وأوراقها قرطاساً والبحر مداداً والإنس والجن كتاباً فلا يستطيعون أن يحصوا نعم الله عدداً **ولا يحصي نعماءه العادون** والمعادلة الطبيعية في مقابل ذلك أن عباد الله المجتهدون في طاعته وعبادته لا يستطيعون أن يؤدوا حق الله عليهم في قبال نعمه تعالى عليهم **ولا يؤدي حقه المجتهدون** المجدون في طاعته، والسر في ذلك واضح فمهما بلغ الإنسان من قوة وقدرة وهمة فلا يستطيع أن يدرك الخالق أو أن يحاول الإحاطة بكنهه تعالى **الذي لا تدركه بعد الهمم**. فكيف يستطيع العاجز اللحاق بالقادر الكامل المتناهي القدرة ؟!! وصحيح أن الإنسان أذكى مخلوق على سطح الأرض إلا أن ذكاء الإنسان بحد ذاته - علاوة على أنه إحدى نعم الله- إلا أن الذكاء البشري أيضاً محدود لأن العقل صنيعة الله فلا يستطيع العقل مهما غاص في بحر التفكير أن يتلمس جواهر الصفات الربانية مهما أوتي من ذكاء خارق **ولا يناله غوص الفطن** ذلك أن صفات الله غائرة في الإطلاق والعمق وهي لا تحد بحدود ولا تؤطر بأطر فليس كمثله شيء **الذي ليس لصفته حد محدود**.

وكذلك فلا تغيير ولا تبديل أو تطوير لصفاته تعالى فالإنسان قد يطور بعض قدراته شيئاً فشيئاً إلا أن لله كمال القدرة المطلقة ومنتهى الصفات الحسنة **ولا نعت موجود** فالنعت يقال لما يتغير من حال لحال والله لا تتغير صفاته ولا تتطور، إذ ليس لصفاته تبديلٌ ولا تحويل، والإنسان مهما أوتي من خصال حميدة

فإن خصاله هذه لها بداية ونهاية، فأما بداية صفات الإنسان الحسنة هي حينما يدركها وجداناً ويتحمل مسئولية أدائها عند أول البلوغ ولها كذلك نهاية حتمية وذلك إما عند انحرافه فتتغير الصفات الحميدة إلى صفات أخرى شريرة أو في أبعد تقدير فإن صفات الإنسان الخيرة ستنتهي حتماً عندما تقترب الآجال وتنخمد النفوس وتسلم الأرواح إلى بارئها، هذه هي محدودية الصفات الإنسانية ابتداءً وانتهاءً إلا أن صفاته تبارك وتعالى لا ابتداء لوقتها ولا انتهاء لأمدها **ولا وقت معدود** في بدايتها **ولا أجل ممدود** في منتهاها.

إنما يتحول الإنسان إلى طاغوت إذا ما اجتمعت القدرة بيده، حيث تنتزع الرحمة من نفسه، فيظلم من أجل المال ويبطش من أجل الحكم والسلطة ويقتل من أجل البقاء، فمن البعيد أن نجد إنساناً يمتلك القدرة بيد وينشر الرحمة والحنان بيده الأخرى ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى** ﴾ سورة العلق آية ٦، فكأنما يوحي إلينا القرآن أن القدرة على طرف نقيض من الرحمة والرأفة، لأن الإنسان يبحث عن مصلحته وعن تمكين ذاته منها بكل وسيلة ولكن الله تعالى لا يحتاج ولا مصلحة له حتى يحتاج، فلا مانع من أن يخلق الخلائق بقدرته وينشر رحمته في آن واحد **فطر الخلائق بقدرته** ﴿**أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوى بنانه**﴾ القيامة ٤-٣، **ونشر الرياح برحمته** (**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات و ليذقهم من رحمته**) الروم ٤٦ ، ومنعاً من نمو حالة التسلط والتعجرف والكبرياء الذي تحدثه القدرة عند الانسان إذا ما انسلخت منها الرحمة، ومنعاً من التسيُّب والتواكل والاطمئنان للنفس والفلتان والخمول الذي قد التَسَيُّب الرحمة إذا ما يستغني الإنسان عن طاقاته وقدراته وإمكانياته عند تحمله المسئولية الشرعية، فكان لزاماً أن يوجد لدى الانسان تعادل بين القدرة والعفو وبين العدل والرحمة وبين القانون والشفقة، فالعفو جميل عند المقدرة كما قيل، كل ذلك من أجل التوازن في الحياة ومنعاً من الاضطراب في معيشة المخلوقين، فالله بقدرته خلق الانسان وبرحمته نشر الرياح ولأهمية قانون التوازن الطبيعي بين الصفاة التي تبدو في الظاهر أنها متناقضة **ووتد بالصخور** والجبال وثبتها في **ميدان أرضه**، أرض رحمته وعطائه المستمر والمتنوع لصالح خلقه ، ﴿**ألم نجعل الأرض**

مهاداً ، والجبال أوتاداً﴾ النبأ / ٦ - ٧ فالصخور والجبال تعبير عن القدرة والأرض تعبير عن الرحمة أي أنها هي البسيطة التي نمشي عليها ، فبالتوازن في استخدام صفاتنا نحقق العدالة في أنفسنا والتكامل في حياتنا .

" نظريــة خلـق الكــون "

((أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا هَمامَةِ نفس اضطرب فيها أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها. ثم أنشأ - سبحانه - فَتْقَ الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخّاره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شده، وقرنها إلى حده. الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق. ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها، وأدام مربها، وأعصف مجراها، وأبعد منشاها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء. ترد أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره، حتى عب عبابه، ورمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواء منفتق، وجو

منفهق، فسوى منه سبع سماوات، جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً، وسمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينظمها. ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر.)).

يستعرض الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له دقائق صنع الله لهذا الكون الفسيح، وهو عليه السلام إذ يستعرض ذلك فإن كلامه مما أثبته العلم الحديث في ابتداء الخلق وكيفية تكون النظرية الشمسية ودوران الكرة الأرضية وما شابه من الحقائق العلمية كنظرية الغبار الكوني، ونحن إذ نستعرض مقطعاً من خطبته استعراضاً سريعاً معتمدين على ذكاء القارئ ومعلوماته العلمية. فقال عليه السلام: **أنشأ الخلق إنشاءً** وإبداعاً دون تقليد الغير فهو المنشئ وهو المعيد **وابتدأه ابتداءً** فكان هو الأول في الخلق لا سابق عليه أحد غيره، فالله سبحانه الأول في إنشاء الكون وخلقه هذا هو من حيث المبدأ، أما التفاصيل فيردف الإمام عليه السلام قائلاً: **بلا روية** ولا تفكير **أجالها** وأدارها فالله سبحانه خلق الكون بدون إعمال الفكر لأنه أساساً هو خالق العقل والفكر بعكس الإنسان الذي إذا أراد أن يعمل شيئاً قلب وجوه الرأي في ذهنه **ولا تجربة استفادها** من الآخرين **ولا حركة أحدثها** ولم يكن بحاجة إلى تحريك الجوارح للشروع في الخلق لأنه لا جوارح له بعكس الإنسان الذي حينما ينتهي من التفكير والتصميم لكل شيء يحرك بعد ذلك قواه البدنية للعمل، **ولا همامة نفس اضطرب فيها** فالإنسان إذا هم بشيء فعل، فالهمة حاجة إنسانية وهو سبحانه ليس كذلك ولم يضطرب ويحتار كما هو شأن الإنسان الذي يعيش الاضطراب الدائم والتردد حينما يقوم بعمل كبير **أحال الأشياء لأوقاتها** والله سبحانه نسق المخلوقات حيث خلق الأشياء كل في وقته، فهو قد جعل الأمطار والبرد لفصل الشتاء، وطلوع الأزهار والفواكه لفصل الربيع والحرارة لفصل الصيف وسقوط أوراق الأشجار لفصل الخريف، وهكذا.. **ولأم بين مختلفاتها** فجعل الالتئام والوفاق والائتلاف بين الأشياء المختلفة، كما قرن سبحانه النفس اللطيفة بالجسم المادي،

وألزمها أشباحها والأشباح تعني الأشخاص ذات الخواص المادية بينما الغرائز خاصة معنوية فقرن تلك الغرائز المعنوية كائناتها المادية ؛ وهل خلق الله سبحانه تلك الكائنات فجعلها تكبر وتنمو وتعيش وتموت بدون علمه ؟ كلا، لذا عرج الإمام عليه السلام على ذلك بقوله **عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها** أي عارفاً بتركيبة كل مادة وصفاتها فقرن وجمع كل مادة بما يتناسب مع صفاتها وخاصيتها، فإن السكر كمادة هي حلوة المذاق في صفتها ، وشفافة أو بيضاء في مادتها لمزيد من التجانس عند خلطها بمواد أخرى وماذا كانت قبل خلقتها وعند ابتداء حدوثها ومقدار حجمها عند نموها ، وأنه إلى أي حين تبقى السكرية بعد تناولها وماذا سيصار لها إذا ما تناولها الإنسان وماذا ستحدث في جسم الإنسان من طاقات وعلى من في البشر ستوزع هذه السكريات المختلفه وما شابه ذلك، كل هذه المعلومات وغيرها عالماً بها ربنا ومحيطاً بها وعارفاً قبل ابتدائها وأثنائها وعند انتهائها قبل أن تُخلق من الأساس ، كما نوه عن ذلك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام .

ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى تفاصيل خلق الكون قائلاً **ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء** فوسع الفضاء بين السماء والأرض **وشق الأرجاء** وشق أطراف الفضاء **وسكائك الهواء** وطبقات الهواء **فأجرى فيها ماءاً متلاطماً تياره** وموجه، وهذه حقيقة علمية لتلاطم تيارات الماء بعضها ببعض إشارة منه لعوامل التبخير **متراكماً زخّارُه** نازلاً بعضه فوق بعض **حمله على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة** والزعزع هي الرياح الشديدة التي تزعزع طبقات الجو بحيث تكون قاصفة ومحطمة للأشياء **فأمرها برده** فأمر الله تعالى برد الرياح للمياه إلى أعلى إشارة لعوامل التبخير حيث أن الأرض كانت كتلة نارية **وسلطها على شدّه** وسلط الرياح لتشد الماء بعضه للبعض إشارة إلى كثرة المياه **قرنها إلى حدّه** أي قرن الريح إلى أسفل المياه لعملية التبريد العلمي **الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق** فالهواء من أسفل الرياح مفتوق والماء من فوق الرياح يتدفق بغزارة، فالرياح متوسطة بين الهواء والماء ينقلها كيف يشاء **ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها** وهذا نوع آخر من الرياح

الكونية العقيمة والظاهر أنها لا تحمل الأكسجين فلا فائدة منها في نمو الأحياء إذ أنها ساكنة فلا هبوب لها **وأدام مربّها** أي أدام الله هذا النوع من الريح في محله ومرباه دون تحريك **وأعصف مجراها** فما تراكمت الرياح بعضها ببعض وتضاعفت فجأة جعلها عاصف تيارها بشكل شديد **وأبعد منشأها** فجعل محل إنشاء تلك الرياح بعيداً جداً بحيث أنها إذا لاقت الماء الكثيف اصطكت به، **فأمرها بتصفيق الماء الزّخّار** وتصفيق الشيء يعني تحريكه بعد ضرب بعضه ببعض **وإثارة موج البحار** فأثارت البحار السماوية فجعلتها مموجة **فمخضته مخض السقاء** فرجته رجة شديدة كما ترج الألبان في السقاء وهو الجلد الذي يصنع منه وعاء للفصل بين اللبن والزبد والدهن **وعصفت به عصفها بالفضاء** وقد عصفت تلك الريح بالماء ذهاباً وإياباً بحيث.. **تَرُدُّ أوله إلى آخره وساجيه إلى مائره** وساجيه أي من محله، ومائره أي نهايته، ثم يعود ثانية **حتى عبّ عبابه** وحتى امتلأ الماء في عبابه **ورمى بالزبد ركامه** حتى تجمع الزبد أعلى الماء **فرفعه في هواء منفتق** فرفع الله تعالى الزبد حيث صار دخاناً كثيفاً وثقيلاً كالزبد مما شق الهواء وانفتق بعدما كان محصوراً في عبابه **وجو منفهق** أي رفع الله البخار الكوني في فضاء منفهق أي المفتوح والواسع فتمخض من تلك العملية الكونية **فسوى منه سبع سماوات جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعلياهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها ولا دسار** وحبالٍ **ينظمها** ، ويشدُّ بعضها بعضاً **ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فلك دائر** إشارة إلى نظرية دوران الأرض **وسقف سائر** نظرية دوران المنظومة الكونية **ورقيم مائر** إشارة إلى الغلاف الجوي، وكما قال سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿ **يوم تمور السماء موراً** ﴾ سورة الطور آية ٩، وهذه بعض الحقائق من قصة خلق السماوات والأرض.

" الملائكة المسبحون "

((ثم فتق ما بين السماوات العلا، فملأهن أطواراً من ملائكته، منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافّون لا يتَزايَلون، ومسبّحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناء وحيه، وألسنةٌ إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده، والسَّدَنة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم. ناكسة دونه أبصارهم، مُتَلفّعون تحته بأجنحتهم، مضروبةٌ بينهم وبين من دونهم حُجُبُ العزة، وأستار القدرة. لا يتوهّمون ربّهم بالتصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يَحُدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر.))

يعتقد بعض الناس أنهم الأحياء الوحيدون الذين خلقوا في الحياة، بينما هناك مخلوقات أخرى عاقلة خلقت قبل الإنسان فبينما الإنسان خلق من طين نجد أن

الشياطين والجن خلقوا جميعاً من نار ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ الرحمن / ١٥ ، وقال تعالى في خلق الشيطان ﴿ **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ الأعراف ١٢، أما تلك المخلوقات التي خلقت من نور وأرواح شفافة فهم الملائكة الكرام الذين لا يعصون الله طرفة عين ويفعلون ما يؤمرون، وللملائكة تأثير كبير على أنفسنا نحن البشر فبالإضافة إلى قيامهم بواجب العبادة المخلصة لله عز وجل فإن بعضهم كان له علاقة مباشرة بالأنبياء حيث كانوا وسطاء الله لأنبيائه في إنزال الكتب والأوامر الربانية فهم أمناء الله على وحيه، وكذلك كان لهم دورٌ فعالٌ في تحريك الأحداث البشرية بشكل مباشر مع الإنسان، ولا أدل على ذلك مما حدث في موقعة بدر الكبرى أولى معارك المسلمين مع المشركين، حيث شارك الملائكة بالقتال مناصرين للمسلمين وكان لهم دورٌ بارزٌ في تحقيق النصر لصالح المسلمين، وفي ذلك دلالة واضحة من كتاب الله العزيز في قوله تعالى بسورة آل عمران /آية ١٢٣ ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ ما هي الملائكة ؟ وما هي حقيقتهم ؟ وماذا يفعلون ؟ يجيب الإمام أمير الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته قائلاً: **ثم فتق ما بين السماوات العلا** إشارة إلى خلق السماوات السبع **فملأهن أطواراً من ملائكته** فخلق الله أقساماً من الملائكة وهي المخلوق الروحاني اللطيف المنزه عن العصيان، وهم على أربعة أقسام كما قسمها الإمام علي عليه السلام: **منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسأمون** أي ولا يملون وهي من السأم أي الملل.

والملائكة يتمتعون بطاقات هائلة أكبر بكثير من قوة تحمل الإنسان، وأبرز مظاهر قوة الطاقات والإمكانيات التي لديهم يوضحها الإمام عليه السلام: **لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان** فإن ابرز مظاهر الضعف عند الإنسان أربعة: الميل إلى النوم وسهو العقول وضعف

الأبدان والنسيان، بينما الملائكة لا يوجد في حياتهم هذا النوع من الضعف والصفات السلبية وهناك تصنيفات أخرى للملائكة يستعرضها الإمام علي عليه السلام في بقية خطبته بقوله: **ومنهم أمناء على وحيه** كجبرائيل عليه السلام إذ سمي بالأمين جبرائيل، وما أحوج الإنسان أن يتعلم الأمانة في نقل الوقائع من الملك جبرائيل عليه السلام، فإن أكثر مشاكل نقل الأخبار بيننا تتبع من عدم الدقة في نقل الأخبار وتحري الصدق، أما آلية نقل ما يوحى إلى الأنبياء من قبل جبرائيل عليه السلام فهي **وألسنة إلى رسله** فهو ينقل لسان كلام الله عز وجل حرفاً بحرف دون تحريف، وهذا بالطبع يستدعي أن يكون جبرائيل عليه السلام واسطة بين الله وأنبيائه، وهذا بالضبط ما حدث **ومختلفون بقضائه وأمره** والاختلاف يعني المراودة بالذهاب والمجيء، فهم الذين ينزلون قضاء الله وأوامره على عباده، وهل للإنسان حراساً من الملائكة ؟ هذا ما يوضحه الإمام عليه السلام في خطبته **ومنهم الحفظة لعباده** وهذا مصداق لقوله تعالى في سورة الرعد/الآية ١١﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾، كما أن هناك حراساً لأبواب الجنان **والسدنة لأبواب جنانه** والسادن يعني الخادم والحارس للشيء.

والشيء العجيب يكمن في أحجام بعض منهم، فهل يستطيع العقل البشري أن يتصور ملائكة بطول السماء والأرض؟! **ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم** هذا الجانب السفلي منهم، أما إرتفاع أطوالهم **والمارقة من السماء العليا أعناقهم** فأعناقهم قد مرقت أي خرجت حتى من السماء العليا، وهذا الطول فماذا عن العرض **والخارجة من الأقطار أركانهم** فعرض بعضهم يصل إلى درجة خروج أركانهم أي جوانبهم عن أقطار الأرض، وهذا الطول والعرض قد أهلَّهم أن تحمل أكتافهم عرش الله عز وجل وكرسيه الذي وسع السماوات والأرض **والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم** فأكتاف بعض الملائكة لائقة لتتكئ قوائم عرش الله عليها، والقوائم هي جمع قائمة وهي رجل العرش، فقد خلق الله كرسياً عظيماً لا لجلوسه جل وعلا عن ذلك علواً كبيراً بل أن هذا الكرسي يمثل لطف الله وعنايته وعظمته وجلال قدره كما قال تعالى في محكم

كتابه ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية** ﴾ الحاقة آية ١٧

أما حال الملائكة الذين يحملون عرش الله فهم **ناكسة دونه أبصارهم** خافضة أبصارهم من خشية الله و **متلفعون تحته بأجنحتهم** والمتلفع هو الملتحف تحت العرش بالجناح، وكأن المراد أنهم قد التحفوا بأجنحتهم وجعلوها أمام أعينهم خوفاً وإجلالاً، كما أن **مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة** أي مستورة بين الملائكة ومن دونهم من الناس ستار العزة الإلهية والقدرة الربانية، ولإزالة شبهة التجسيم عن الله عز وجل من مخيلة من استمع لخطبته عليه السلام أردف قائلاً: **لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ولا يحدونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر.**

" الإنسان ذلك المجهول "

((ثم جمع سبحانه من حَزْنِ الأرض وسَهْلها، وعذبها وسبخها، تربة سَنَّها بالماء حتى خَلَصَت، ولاطَها بالبَلَّة حتى لَزُبَتْ، فجبَلَ منها صورة ذات أحناءٍ ووصول، وأعضاء وفصول: أَجمدَها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صَلْصَلَت، لوقت معدود، وأمد معلوم ؛ ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا أذهان يجليها، وفكرٍ يتصرف بها، وجوارح يختَدمُها، وأدوات يُقلِّبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام، والألوان والأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المُؤْتَلفَة، والأضداد المُتَعادية، والأخلاط المتباينة، من الحر والبرد، والبَلَّةِ والجمود...)).

الإنسان ذلك المجهول، كتاب قيم لكاتب غربي وهو (ألكسيس كارل)، يبحث فيه عن حقيقة الإنسان ونشأته وأبرز ملامحه وبالرغم من كثرة كتابة الباحثين الغربيين في علم النفس البشري وسيكلوجية الانسان إلا أن الاسلام قد أسس هذه العلوم قبل الغرب بمآت السنين سواء من خلال القرآن الكريم أو الأحاديث المروية أو

فيما نحن فيه من خطب للامام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج بلاغته.

ولقد ذكر القرآن الكريم الإنسان في آيات كثيرة ولم يتوقف لذلك الحد، بل أفرد له سورة باسمه وسماها سورة الإنسان، ولنأت على آياتها الأولى لنتدبرها ونغوص في أعماقها وأبعادها العلمية حيث يقول الباري عز وجل ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ فهذه الآيات القرآنية تركز على قضيتين أساسيتين ؛ الأولى: فلسفة خلق الإنسان تكمن في الاختبار والابتلاء. والثانية: تكمن في النتيجة وهي إما شاكراً أو كفوراً.

ولقد أتى الإمام علي عليه السلام بمجمل هذه الحقائق بعدما استعرض خلق الكون فقال: **ثم جمع سبحانه من حزْن** وخشن **الأرض وسهلها** اللّيّن ، ليس هذا فحسب بل **وعذبها وسبخها** وعذب مائها مع مالحها فمن الارض الصلبة الخشنة ذات الارتفاع الشاهق ينبع من شلالاتها الماء العذب عادة، ومن سهلها الرملي اللين المنخفض والمنبسط في الشواطىء المجاورة للبحار عادة ينبع ماؤها المالح العجاج فجمعها الله سبحانه من أجل **تربة سنها** وخلطها **بالماء حتى خلصت** وأصبحت طيناً خالصاً **ولاطها** وعجنها **بالبلة حتى لزبت** و صلبت الطينة وتداخل بعضها بالبعض مصداقاً لقوله تعالى في سورة الصافات/أية١١ ﴿ **إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ فماذا كانت النتيجة ؟ **فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول** جبل بمعنى خلق من تلك التربة صورة آدم عليه السلام وفيه عظام ذات انحناء كالأضلاع ووصول وهي المفاصل التي توصل قطع الجسم بعضه بالآخر، وأعضاء كالأيدي والأرجل، وفصول لعل المراد ما هو أعم من الاعضاء الصغيرة كالرأس والجذع، فالرأس فصل كبير بالنسبة للأنف والعين والفم كأعضاء صغيرة في فصل كبير جامعاً لهم في الرأس، والجذع فصل كبير لا يمكن الحياة من دونه بالنسبة لعضو اليد أو الرجل مثلاً.

ثم قال عليه السلام: **أجمدها حتى استمسكت وأصلدها حتى صلصلت** أي جعل الطينة على هيئة مجسمة كالفخار، وفي القرآن الكريم دلالة على ذلك بقوله تعالى في سورة الزمر/آية ١٤ ﴿ **خلق الإنسان من صلصال**

كالفخار ﴾، وكان تصنيع هذا التمثال الآدمي **لوقت محدود وأمدٍ معلوم** إذ أن خلق الانسان بهذه الصورة كان لوقت محدود وأمد معلوم وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح، وإن الصانع الكريم محيط بمصنوعه فلم يخلقه ويتركه لشأنه وإنما جعل له وقتاً وأمداً معلومين، فلما حان وقت الخلقة الأولى **ثم نفخ فيها من روحه فتمثلت إنساناً** تشكل من روح الله وروح الله هي عنايته ولطفه وبركته تعالى فقد قال تعالى ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون** ﴾ السجدة ٧-٩

وما هي ملامح هذا المخلوق وصفاته ؟.. يقول الإمام عليه السلام عن الإنسان أنه **ذا أذهان يجليها** والذهن هو العقل الذي يفرق به بين الحق والباطل فإن العقل يجلي الباطل عن الحق أي يعري الباطل ويكتشف الحق، فالأذهان هي التي تجلي الحقائق وتكتشفها والتجلي كلمة جاءت في قوله تعالى في سورة الأعراف/آية ١٨٧ ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ وقوله تعالى في سورة الشمس آية ١-٤ ﴿ **والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها** ﴾.

وكذلك يستعرض الإمام علي عليه السلام باقي ملامح الإنسان في قوله **وفكر يتصرف بها** وإذا كان العقل هو الذي يفرق بين الحق والباطل فإن الفكر يعتبر آلية ذلك العقل من خلال التفكير اليومي الصحيح الذي به يستطيع أن يتصرف في شئون حياته اليومية بما يوافق العقل، وفي صراع الإنسان بين الحق والباطل فإنه بحاجة إلى أدوات تخدمه وتعينه على دحر الباطل والتمسك بالحق. لذا كان من ملامح خلق الإنسان **وجوارح يختدمها وأدوات يقلبها** ولا ننسى أن أفضل سلاح يعتمد به الإنسان في صراعه مع الباطل بعد العقل والتفكير والجوارح هو سلاح العلم والمعرفة.

من هنا سلط الإمام علي عليه السلام الضوء على ذلك بقوله **ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل** ليس هذا فحسب بل إن العلم نورٌ يستفيد منه الإنسان لمعرفة مختلف العلوم **والأذواق والمشام، والألوان والأجناس،**

معجوناً بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة من الحر والبرد، والبلة والجمود .

فإن الإيمان وحده من دون العلم كالطائر من دون جناح، وإن غياب دور العلم عند بعض المتدينين سبب الكثير من بروز السلبيات في واقع الساحة العملية، فبالعلم والمعرفة تقاد المجتمعات وفق نظام الشورى وبالذهن الواعي يقبل الإنسان آراء إخوانه مهما اختلفت وتباينت وفقاً لمنهج التعددية التي يقبلها الرجل الواعي، وبالعقل نتغلب على مشاكلنا النفسية وعصبياتنا الدينية والمذهبية والقومية والعرقية أيضاً، ومن هنا سلط الإمام علي عليه السلام الضوء على أهم دعائم الإنسان السوي.. العقل والمعرفة.

وليس من باب الصدفة العفوية كانت أولى الآيات القرآنية النازلة على صدر رسولنا الكريم (ص) إبتدأت بإقرأ ، فالقراءة هي أوسع أبواب العلم والمعرفة في عصرنا الحاضر لذلك ابتدأ الوحي بالقرأة ، وامتزجت الروحانية بالعلم وتزاوج الإيمان بالمعرفة ، فأصبح الاسلام دين العلم وأضحى العلم سراج الدين ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ العلق ١-٥ .

" قصة نبينا آدم والشيطان "

((واستَأْدى الله سبحانه الملائكة وديعتَهُ لديهم، وعهد وصيَّته إليهم، في الإذعان بالسجود له، والخشوع لتكرمته، فقال سبحانه: ﴿ اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ اعترته الحميَّة، وغلبت عليه الشقوة، وتعزز بخلقَة النار، واستهون خلق الصلصال، فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسُّخْطَة، واستتماماً للبليّة، وإنجازاً للعدة، فقال:" إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ". ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلَّتَهُ، وحذره إبليس وعداوته، فاغتره عدوه نفاسَةً عليه بدار المقام، ومرافقَة الأبرار، فباع اليقين بشكه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجَذَلِ وجلاً، وبالاغترار ندماً، ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المَردَّ إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذرية.))

قصة نبينا آدم عليه السلام والشيطان الرجيم عليه اللعنة ذكرت في القرآن الكريم ويسلط الضوء إمامنا أمير الموحدين على بن أبي طالب عليه السلام في

إحدى خطبه ليس من أجل أن يطرب بها الأسماع ولا أن يسرد حكاية من حكايات التاريخ ليروح بها نفوس السامعين. إنها قصة نشأة الإنسان وصراعه ضد الباطل المتمثل في زعيم الشياطين إبليس اللعين، وهي قصة نهاية الغرور الشيطاني وبداية الاغترار الإنساني لمن لم يتعظ منهم، فما أكثر العبر وأقل المعتبر.

وإليك قصة سيدنا آدم يسردها الإمام علي عليه السلام بأروع العبارات حيث قال بعدما استعرض ماهية الإنسان وصفاته **واستأدى الله سبحانه وتعالى الملائكة وديعته لهم** . فإنه بعدما أكمل الله تبارك وتعالى خلق سيدنا آدم عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام جعله وديعة محفوظة مكرمة عند ملائكته يخدمونه في الجنة، وما أن نفخ فيه الله من روحه وسواه إنساناً **وعهد وصيته إليهم** حيث أوصى الله تبارك وتعالى عهداً لملائكته كان **في الإذعان بالسجود له** ليس هذا فحسب، بل أمر ملائكته **والخشوع لتكرمته** وأمرهم بالخضوع له لأن الإنسان أكرم مخلوق في الحياة، فما بالك بزعيم الإنسانية ووالد الناس أجمع سيدنا آدم عليه السلام الذي أكرمه لما نفخ فيه من روحه، ثم استشهد الإمام علي عليه السلام في خطبته بمقطع من آية قرآنية حيث قال (فقال سبحانه: ﴿**اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس**﴾. ولا يقال أن الله عز وجل قد جعل آدم أمانةً عند ملائكته فهم الوحيدون المأمورون بالسجود له.

كلا.. فإن إطلاق كلمة - اسجدوا لآدم - كما في الآية المباركة عامةً غير مقيدة وهي تشمل كل ملائكته بما فيهم إبليس حيث كان عابداً ساجداً لله آلاف السنين قبل أن يأخذه الغرور في مهالك الردى، والذي حصل أن إبليس **اعْتَرَتْه الحميّة** وهي حالة عصبية نفسية غالباً ما تؤدي إلى الأنفة والاستكبار. ولقد كان المجتمع الجاهلي تسوده حمية عصبية في اتخاذ القرارات وردود الأفعال، بينما جاء الإسلام ووضع قوانين وجزاءات مع تهذيب السلوك الشخصي وتنظيم السلوك الاجتماعي، فإذا كان النظام القانوني يعكس مظهراً حضارياً لدى المجتمعات المتمدنة كانت الحمية مظهراً للتخلف الذي يسود الفرد أو المجتمع إذا كان ذلك حالة عامة، فجاء الإسلام وانتزع الحمية الجاهلية وبذر نواة للمجتمع القانوني.

ويستعرض القرآن الكريم في آية له في سورة الفتح/آية ٢٦ لعدم قناعات بعض

الجاهلين الذين رفضوا الدخول في الإسلام انطلاقاً من الحمية التي تدفعهم نحو التمسك بموروثاتهم التقليدية الباطلة، فقال الله تعالى: ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** -إشارة إلى التهذيب النفسي- **وألزمهم كلمة التقوى** -إشارة على الحالة القانونية- **وكانوا أحق بها وأهلها - وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾ فكانت أول خطوة في اتجاه تمرد الشيطان على الأمر الإلهي حينما اعترته الحمية على حساب الانصياع لقانون السماء، فقادته الحمية الجاهلية نحو الشقاء **وغلبت عليه الشقوة** .

ويحاول من تعتريه الحمية اللاقانونية ومن انقلبت حياته من السعادة إلى الشقاء والتعاسة أن يضفي على موائده الحياتية الخاطئة نوعاً من التبرير أمام الآخرين، لأن التشدق بمبررات الحمية غير مقبولة عند التخاصم. فجعل الشيطان يبحث عن مبررٍ لموقفه من عدم الإذعان للسجود لآدم مما جعله يصحح الخطأ بخطأ آخر أسوأ منه **وتعزز بخلقة النار** وهكذا تقود الحمية صاحبها إلى ارتكاب حماقات أخرى، ولم يكتفِ الشيطان بالافتخار بنفسه بل قام بالهجوم المعاكس على خصمه في محاولة منه للتقليل من شخصيته **واستهون خلق الصلصال**. وماذا كانت النتيجة ؟!.

فقد حكمت عليه محكمة العدل الإلهية **فأعطاه الله النُظرة استحقاقاً للسخطة** وتلك النُظرة إلى يوم الوقت المعلوم عند الله عز وجل، ولم تكن تلك العقوبة جائرة عليه إنما كان يستحقها بسبب طلبه الشخصي من الله أن يمدد في بقائه متحرراً من العبودية إلى ذلك اليوم، حيث يكون الشيطان مسئولاً عن تصرفاته الذاتية ويخوض امتحانات وبلاءات أخرى **واستتماماً للبلية** والابتلاء والاختبار **وإنجازاً للعدة** حيث وعد الله سبحانه إبقاء الشيطان أمدٍ بعيد لطلبه الشخصي لذلك، فقال تعالى في سورة ص/آية ٨٠-٨١ ﴿ **إنك من المنظَرين، إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾.

وانتصر سيدنا آدم عليه السلام فكافأه الله بالجنة **ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلته** وهذا غاية ما يطلبه الإنسان..

الغذاء والأمن، حيث أن الغذاء نعمة صحية لبدن الإنسان والأمان نعمة روحية لنفسية الإنسان، فكما جاء بالحديث الشريف " نعمتان مجهولتان الصحة والأمان ". ثم أوليس من المفروض أن نقابل من وهب لنا الغذاء والأمان بجزيل الشكر والامتنان ؟!.

نعم.. إنها العبادة الصادقة لله، فالله عز وجل لم يأمر الناس أن يعبدوه إلا بعدما كفل لهم الطعام والأمان والتي هي دعامة للمجتمع المستقر، ونجد ذلك جلياً في قوله تعالى في سورة قريش ﴿ **لإيلاف قريش إيلافهم، رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ ولما كان بيت الله الحرام في مكة المكرمة رمزاً لأمن الناس وطمأنينتهم كانت الظروف التضاريسية لمكة صعبة في تحقيق الأمن الغذائي، ولتحقيق ذلك واكتمال النصاب الأمني في بعديه المادي والمعنوي دعا سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ربه لتأمين الغذاء والرفاه الاقتصادي لقاطني مكة المكرمة وما حولها في قوله تعالى في سورة إبراهيم آية ٣٥ ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام، ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس، فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم، ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾.

ولما دخل سيدنا آدم عليه السلام جنته، أراد الله تبارك وتعالى أن يذكره بأن الأمن الغذائي والاجتماعي غير مضمون البقاء وذلك مرتبط بالصراع بين الحق والباطل الذي ابتدأ معركته الشيطان فقال الإمام علي عليه السلام **وحذره إبليس وعداوته** لذا حاول الشيطان أن يكيد له في حيله **فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام** فوسوس العدو إبليس لآدم نفاسة عليه وحسداً منه على ما حصل عليه آدم من نعيم بدار المقام وهي الجنة الدار الأبدية التي يقيم فيها الإنسان، ولم يتوقف حسد الشيطان لآدم لأنه دخل الجنة فحسب بل راح يحسده أيضاً على ما حصل عليه آدم من رفقة وأصدقاء أبرار له في الجنة وهم الملائكة **ومرافقة الأبرار** فلما غره الشيطان بأكل ثمرة شجرة الخلود كانت النتيجة لآدم أن **فباع اليقين بشكه، والفريسة بوهنه** .

فوعد الله يقين ووعد الشيطان شك أضعف عزيمته وغلب عليه ظنه ووهنه، فكانت النتيجة لآدم أن **واستبدل بالجذل وجلاً** والجذل هو الفرح والسرور حيث استبدله بالوجل والخوف من العقاب، ولما اغتره الشيطان وخدعه أصابه الندم على ما فعل **وبالاغترار ندماً** ولكن وسعت رحمة الله غضبه **ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقاه كلمة رحمته، ووعده المرد إلى جنته** ولكن بعدما خسر الإنسان جنته **وأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية ...**

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ (طه/آية ١١٥-١٢٣).

" فلسفة بعث الأنبياء "

((واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجَهِلوا حقّه، واتّخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوه ميثاق فطرته، ويذكروهم منسيَّ نعمته، ويحتَجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم الآيات المُقَدَّرَة: من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تُحييهم، وآجال تفنيهم، وأَوْصاب تُهْرِمُهُم، وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبيٍّ مُرسَل، أو كتاب منزل، أو حجةٍ لازمة، أو مَحَجّة قائمة: رسل لا تُقصّر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم: من سابق سمي له من بعده، أو غابرٍ عرفه من قبله: على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء. إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإنجاز عِدَّتِه، وتمام نبوته، مأخوذاً على

النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده. وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطوائف متشتّتة، بين مُشبّهٍ لله بخلقه، أو مُلحدٍ في اسمه، أو مُشيرٍ إلى غيره، فهداهم به من الضّلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة. ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله...).

ولما انتهى الإمام أمير المتكلمين علي بن أبي طالب عليه السلام من سرد قصة الصراع القديم بين ابي البشر آدم وبين الشيطان الرجيم تطرق الإمام إلى العهد البشري على سطح الكرة الأرضية حيث تتابع الأنبياء من جيل لآخر لهداية الناس قائلاً إشارة إلى ما بعد سيدنا آدم عليه السلام **واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم**، ونجد لهذا الميثاق ذكراً في القرآن الكريم في سورة الأحزاب/آية ٧ في قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**.

ونلاحظ في هذه الآية الشريفة أن الله تبارك وتعالى أخذ ميثاق الأنبياء جملة وذكر على الخصوص مواثيقه على الأنبياء أولي العزم الخمسة وهم الأنبياء الذين أرسلوا إلى الناس كافة ابتداءً من نبينا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأشار إلى ذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بكلمة **ومنك**، وليس هذا فحسب، بل **وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم**، وباعتبار أن الرسالة التي حملها الأنبياء رسالة سماوية عظيمة فقد أخذ الله على الأنبياء أمانة تبليغ تلك الرسالات السماوية.

وفي مقابل أمانة الأنبياء بالتبليغ بالرسالات حرف الكثير من الناس تلك الرسالات وبدلوها كلٌ حسب أهوائه ومصلحته **لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم** فكانت النتيجة الحتمية: **فجهلوا حقه** أي حق الله عليهم، ولم يكتفوا بذلك بل **واتخذوا الأنداد معه** فجعلوا مع الله آلهة أخرى حيث قال تعالى في سورة البقرة/آية ١٦٥ ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً**

يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وساعدهم على الضلالة الشيطان الرجيم **واجتالتهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته** حيث اجتالتهم الشياطين أي صرفتهم عن معرفة الله وعبادته، فكان ضرورياً أن يتم هداية الناس من خلال.. **فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه**، والنبي هو الذي يبعث لنفسه وأهل بيته والرسول هو الذي يبعث لمجموعة أوسع من الناس والرسل أولوا العزم هم الذين بعثهم الله للناس كافة.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى فلسفة بعث الأنبياء بالمهمات الرسالية الخمس.

الأولى: **ليستأدوه ميثاق فطرته** وهو أن يؤدوا نداء الفطرة الإلهية المستودعة في وجدان كل إنسان، فقد فطر الله الناس على الإيمان به في قوله تعالى في سورة الروم/آية ٣٠ ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾

الثانية: **ويذكروهم منسيَّ نعمته** مصداقاً لقوله تعالى في سورة فاطر/آية ٣ ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾.

الثالثة: **ويحتجوا عليهم بالتبليغ** فالأنبياء هم حجج الله على خلقه فلا عتاب بدون بيان كما قال الفقهاء، ولا مجال للمنحرفين بالتبرير بعدما احتج عليهم الأنبياء بالتبليغ ﴿ **فهل على الرسل إلا البلاغ المبين** ﴾ النحل/آية ٣٥ .

والرابعة: **ويثيروا لهم دفائن العقول** وقد أنزل الله القرآن الكريم بلسان عربي فصيح كي يعقله الناس ﴿ **إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ يوسف/آية ٢ .

أما الخامسة فهي **ويروهم الآيات المقدرة** التي تذكرهم بقدرة الله تعالى حيث قال تعالى ﴿ **أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً** ﴾ سورة الإسراء/آية ٩٩ .

ومن جملة تلك الآيات التي يرونها الناس **من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب** وأتعاب **تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم** وقد أتم الله على الناس حجته بحيث.. **ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة** كالمعاجز الخارقة التي تلزمنا التسليم لحجيتها القاطعة علينا **أو مَحَجَّةٍ قائِمَةٍ** والمحجة هي الطريق القويم المسلوك من قبل الأولياء والأوصياء والعلماء والمصلحين.

ولأن طريق الأنبياء في هداية الناس شائك للغاية ومتعب في نفس الوقت فقد كان للأنبياء عزيمة قوية تمثلت في.. **رسلٌ لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم** حيث كان الله يرسل الأنبياء تباعاً **من سابق سُمّيَ له من بعده** أي من رسول سابق سمي وأشار للنبي الذي يأتي من بعده **أو غابر عرفه من قبله** أو نبي عرَّف الناس الأنبياء الذين جاءوا من قبله **على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء** ولا يفرق الله بين أحد منهم حتى إتمام رسالاته **إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإنجاز عدته، وتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده** إذ كان دوره عظيماً فقد جاء في ظروف عصيبة كان أبرزها **وأهل الأرض يومئذٍ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطوائفَ متشتتة** . فكان الناس على أشكال مختلفة من الضلالة **بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره** غير أن جهود نبينا لم تذهب سدى **فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة**، إلى أن أتم كامل ما عليه من تكليف شرعي **ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لقاءه ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مقام البلوى**. فإن الدنيا دار بالبلاء محفوفة وأراد الله أن يريحه منها **فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله**.

" القــرآن منهــاج الحيــاة "

((وَخلَّفَ فـيكم مـا خَلَّفَتِ الأنبـيـاء في أممهـا، إذ لـم يتـركـوهم هملاً، بغـيـر طريق واضح، ولا عَلَمٍ قائم، كتـاب ربكم فيكم: مـبيناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخـاصه وعـامـه، وعِبَـره وأمثـاله، ومُـرسَلَه ومـحـدوده، ومُحكمه ومتشابهه، مفسراً مجمله، ومبيناً غوامضه، بين مأخوذ مـيثـاق في علمه وموسع على العبـاد في جهله، وبين مـثْبتٍ في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنة نسخه، وواجب في السنة أخذه، ومرخص في الكتاب تركه، وبين واجب بوقته، وزائل في مستقبله. ومُبايَنٌ بين محارمه، من كبير أوعَدَ عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، وبين مقبول في أدناه، موَسَّعٍ في أقصاه.)).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النيران. ووصايا كثيرة أوصى بها أمته الإسلامية باتباع

دستور الحياة والتمسك بتعاليم القرآن، وبرغم مرور أكثر من ألف وأربعمائة عام على نزول الوحي بالقرآن على صدر نبينا الأعظم إلا أن تعاليم القرآن لازالت مهمشة في حياة المسلمين، فقد تمسك بها المسلمون قشوراً وتركوها منهاجاً، وهو ذلك القرآن ذاته الذي يعبر عن ذاته بقوله: ﴿ **ولقد ضربنا في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون** ﴾ الزمر/آية ٢٧ .

ومن أجل أن يبقى القرآن الكريم حاضراً في حياة المسلمين بعد رحيل رسولنا الكريم وبقاء سيرته الكريمة حض الإمام علي عليه السلام على التمسك بالقرآن منهجاً وعملاً في خطبته بعدما انتهى من ذكر فلسفة بعث الأنبياء وخاتمة تلك السلسلة النبوية برسولنا العظيم إذ لم يرحل عن دار الدنيا إلا بعد أن ترك فيهم الثقل الأكبر بقوله: **وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم** ، فإننا بحاجة إلى أن نتلمس ذلك الطريق الواضح أمام مشاكل الحياة الوعرة، إذ أن الإنسان بحاجة إلى **كتاب ربكم فيكم** فمن أبرز صفات القرآن الكريم أنه كتاب إلهي غير بشري وسماوي غير أرضي وربّاني غير وضعي.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام مستعرضاً الفصول الداخلية للقرآن الكريم، فهناك فصل **مبيناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه** ونستعرض من تلك الفصول أمثلة سريعة من آيات الذكر الحكيم، فالحلال نحو: ﴿ **كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً** ﴾، والحرام نحو: ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم..** ﴾، والفريضة: ﴿ **أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة..** ﴾، والفضيلة: ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أساتم فعليها** ﴾، والناسخ: ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات** ﴾، والمنسوخ: ﴿ **إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة** ﴾، والرخصة: ﴿ **فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم** ﴾، والعزيمة: ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾، والخاص: ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾، والعام: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ والعبرة: ﴿ **ألم تر إلى**

الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾، والمثل: ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة..﴾، والمرسل: ﴿ فك رقبة ﴾، والمحدود: ﴿ فصيام شهرين متتابعين ﴾، والمحكم: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا هو ﴾، والمتشابه: ﴿ كهيعص.. ﴾ وهي التي تعبر عن أحرف مركبة في أول السور.

وبرغم كثرة فصول القرآن وأبوابه فإن النبي كان يعمد إلى تفسير تلك الآيات وشرحها للمسلمين توضيحاً منه لتعاليم الكتاب الحكيم فقال الإمام عليه السلام: **مفسراً مجمله، ومبيناً غوامضه** والتفسير أيضاً له مناهجه الخاصة به إذ أن مناهجه **بين مأخوذ ميثاق في علمه** وهي الرؤى العقلية الثابتة والقيم الإنسانية الواضحة التي لا يختلف عليها اثنان كالآيات التي تشير إلى قبح الظلم والطغيان والسرقة والزنا وحسن العدل والأخلاق الحميدة **ومُوَسَّعٍ على العباد في جهله** وهي السنن والمستحبات والمكروهات التي لا يلزم القرآن كل مسلم تعلمها قطعاً وإنما معفو عنهم في جهلهم للجزئيات الدقيقة الواردة في القرآن الكريم، ولا يخفى ما للسنة الشريفة من علاقة وثيقة بالقرآن والعكس صحيح أيضاً، فإذا كان القرآن كلام الله المباشر على الناس كانت السنة النبوية كلام الرسول وفعله وتقريره إذ لا تضارب بينهما ولا اختلاف لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾، ﴿ ولكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾، ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وتلك آيات صريحة، ولكن العلماء وحدهم هم الذين يفسرون القرآن بالسنة ويفسرون السنة بالقرآن.

وهذا ما أراد الإمام علي عليه السلام بيانه حينما أردف في خطبته قائلاً: **وبين مثبت في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنة نسخه** ومثال الشيء الذي ثبت في القرآن قوله تعالى: ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم.. ﴾ وقوله: ﴿ وكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ مما ظاهره الوجوب لأنه بصيغة الأمر لكنه معلوم بالسنة النبوية نسخ ذلك الأمر بعنوان الوجوب فالإنكاح والمكاتبة ليست فرضاً واجباً وإنما معلوم في السنة فضل ذلك وتأكيد الاستحباب عليه فالوجوب بالأمر هنا نسخ واستبدل في السنة بالفضل والاستحباب، وهذه إشارة من الإمام عليه السلام في علاقة السنة الشريفة بالقرآن، أما العكس وهي علاقة القرآن بالسنة فيقول

الإمام **وواجب في السنة أخذه، ومرخص في الكتاب تركه** والشيء المرخص ظاهراً في القرآن كقوله تعالى: ﴿ **فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما** .. ﴾ مما ظاهر الآية جواز ترك السعي في الحج بدلالة قوله تعالى: " فلا جناح " أي فلا بأس، بينما أثبتت السنة النبوية وجوب السعي حين الانتهاء من وجوب طواف الكعبة المشرفة.

والقرآن الكريم وضع لكثير من العبادات أوقاتاً محددةً إشارة لأهمية الوقت الذي يمثل عنصر الزمن في حياة الناس **وبين واجب بوقته** كالصلاة، **وزائل في مستقبله** كالحج والصوم في شهر رمضان.

أما اقتراف الحرام والسقوط بمواقع الزلة التي لا يستطيع الإنسان أن يعصم نفسه منها فهي على اختلاف **مباين بين محارمه** فالحرام أنواعه متباينة من حيث تبين الأولى: نوع الحرام وحجمه من حيث الكبائر والصغائر، والثانية: الجزاء والعقاب المقابل للحرمة الكبيرة أو الصغيرة منها، فيقول الإمام علي عليه السلام: **من كبير أرعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه** ، ليس هذا فحسب بل **وبين مقبولٍ في أدناه وموسع في أقصاه** ومن عظمة القرآن الكريم أنه جعل للمكلف عدة خيارات في أخذه لبعض الأحكام الشرعية كلٌّ حسب ظروفه الخاصة ؛ فالصلاة اليومية مثلاً تقبل من يأتيها في أول وقتها وموسع على من يأتيها في وقتها الممتد قبل قضاء وقتها الشرعي في أقصاه، وهي نفسها مفروضة التمام في حضرها وموسع في أدائها في السفر قصراً وجمعاً في التقديم والتأخير، حيث أن المكلف في السفر علاوة على تقصيره الصلاة الرباعية إلى ركعتين فإن بإمكانه أيضاً إلحاق العصر بوقت الظهر، وموسع في أقصاها بحيث يستطيع تأخير صلاة الظهر لوقت العصر.

" الجماهير قاعدة الخلافة الشرعية "

((.. **فما راعني إلا والناس إليَّ كعُرف الضبع، ينثالون عليَّ من كل جانب، حتى لقد وُطِئَ الحسنان، وشُقَّ عِطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم. فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه حيث يقول: ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين ﴾ بلى! والله لقد سمعوها ووعَوْها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زِبْرِجُها ! أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقاروا على كظّة ظالم، ولا سغَب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيتُ آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهَدَ عندي من عفطة عنْز** قالوا: وقام رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً قيل: إن فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها، فأقبل ينظر فيه فلما فرغ من قراءته قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لو اطردت خطبتك من حيث أفضيت ! فقال: **هيهات يا بن عباس**

! تلك شِقْشِقَةُ هدرت ثم قرّت !.)) .

قال ابن عباس: فوالله ما أسفتُ على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

إن قرار الجماهير هو قاعدة المشروعية للحكم الشرعي، فلا حاكم من دون الجماهير ولا دولة جماهيرية من غير حاكم منتخب منهم، من هذا المنطلق يعكس الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام النهج السياسي العام في الدولة الإسلامية، واليوم هو عصر الجماهير وعظمة الإسلام تكمن في تأسيس نهج الحكم الجماهيري، وهذا ما دعا إليه الدين الإسلامي منذ نشأته، فلا قهر ولا جبر ولا قمع ولا إرهاب بحق الناس، فالناس مخيرون في انتخاب حاكمهم الذي يرتضونه لأنفسهم، ولكي يختار الناس ذلك كان لابد من سيادة أجواء الحرية السياسية المطلقة، فلا انتخاب بدون حرية ولا شورى من دون انتخاب.

وإن الباحث ليقف إجلالاً لعظمة القانون الشرعي الإسلامي الذي تأسس قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام في تثبيت دعائم الشورى، وهاهو الفكر العالمي اليوم يدعو لانتهاج الديمقراطية وتكريسها في حياة الشعوب ؛ ذلك النهج الذي تأسس منذ صدر الإسلام الأول، وشجع عليه نبينا الكريم، ورغم أن لرسولنا العظيم صلاحيات قيادية كبيرة بحكم ولايته على المسلمين: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**.. ﴾الأحزاب/آية ٦، وهذه الآية مستمدة في الفكر الإسلامي من ولاية الله على الكون بقوله تعالى في سورة الكهف/آية ٤٤: ﴿ **هنالك الولاية لله الحق هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقبا** ﴾ أقول برغم ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم التكوينية والتشريعية على المسلمين إلا أن النبي الأكرم كان يراعي جانب الشورى في قضايا المسلمين أكثر من توليه رأيه عليهم، ذلك أن الإسلام دين الناس كافة، فكان لزاماً أن نراعي في صياغة قانون الدولة الاسلامية أولاً وآخراً آراء المسلمين في تقرير مصيرهم وإدارة شئونهم الحياتية.

من هنا يستعرض الإمام علي عليه السلام أهمية هذا الجانب حينما يقرر الجماهير تحديد مصير الحكم الإسلامي في خطبته المعروفة بـ الشقشقية إذ يقول

في إحدى مقاطعها مستعرضاً اندفاع جمهور المسلمين في دعوة الإمام علي عليه السلام بتولي الخلافة بعد حقبة خلافة عثمان بن عفان قائلاً **فما راعني** أدهشني **إلا والناس إليَّ كعرف الضبع** والمسلمون مقبلون نحوه ومجتمعون حوله بكثافة ككثافة عرف الضبع وهو الشعر الكثيف الذي يحوي عنق الضبع وهو حيوان مفترس يأكل الميتة عادة حيث أن حيوان الضبع هزيل جسمه كثيف شعره حول رقبته، والحال أن الناس **ينثالون** يزدحمون **علي من كل جانب** فكل منهم يتوسل الإمام علي عليه السلام لقبول مسئولية الخلافة الشرعية، ولشدة ازدحام المسلمين بشكل عشوائي حول الإمام من كل جانب حدث أمر في غاية الغرابة بقوله **حتى لقد وطئ الحسنان** تحت أقدام الجماهير لشدة زحام الناس عليه، كما أن هناك دلالة من قول الإمام على أنه كان قابعاً في منزله والناس قد أخرجوه منه رغبة منهم فيه بدليل سقوط الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام تحت أقدام الناس من شدة زحامهم عليه وقيل أن المراد بوطي الحسنان هما ابهامي رجل الامام علي سلام الله عليه وذلك بسكون السين ، وعلى كل تقدير فإن عبارة الامام عليه السلام تدل على شدّة الزحام من حوله.

ليس هذا فحسب بل ويصور الإمام عليه السلام كثرة مد المسلمين أيديهم نحوه لأخذ البيعة منه بالمصافحة إلى درجة أنه قد **وشُقَّ عطفاي** والعطف أطراف اللباس، سمي به لأنه يعطف باستدارة الرداء على البدن، فقد خُرق جانباً من رداءه لكثرة جذب الناس له رغبة من الناس في الوصول إليه وأخذ يد البيعة منه، وقد شبههم وإياه **مجتمعين حولي كربيضة الغنم** أي كقطيع الغنم لعدم توازن حركاتهم.

هذه كانت بداية خلافته الجماهيرية، ولكن سرعان ما عصفت بخلافته الفتن والمشكلات بشكل سريع في ثلاثة حوادث تمرد عسكري، لذا أتى في خطبته على أواخر عهد خلافته وكأنه أراد تذكير المسلمين بما جرى عليه من البيعة في البداية وما جار عليه بعض المسلمين في نهاية خلافته بقوله **فلما نهضت بالأمر** والخلافة **نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون** ونكثت أي نقضت ومرقت أي خرجت وقسط أي فسق آخرون، وهذا المقطع من خطبته بالذات يسطّر

الإمام علي كرم الله وجهه فيه أروع أمثلة التقوى في الخطاب السياسي الجماهيري العام، فهو لم يذكر المعارضين له بالاسم لتجنب السقوط في مهاوي الغيبة والنميمة وترفعه عن ذكرهم بالأسماء واستبداله بذكر صفة المعارضة السياسية وحالتها فهو في موضع آخر يصف المعارضة بأنهم (أخوة لنا بغوا علينا) وأردف قائلاً: **كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه حيث يقول : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾**؛ فهل سمعت المعارضة السياسية تلك الآية؟. وإذا كان كذلك فهل استوعبوا معناها؟! **بلى والله لقد سمعوها ووعوها** فما المشكلة إذن ؟! **ولكنهم حلِيَت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجُها** أي أعجبتهم زينتها وزخرفها.

وهنا يقسم الإمام علي عليه السلام بخالق الكون في قوله **أما والذي فلق الحبة** شق البذرة وأخرج منها النبات **وبرأ النسمة** خلق الإنسان **لولا حضور الحاضر**.. وهم تلك الجماهير التي بايعته بالخلافة منذ البداية ورغبتها به وتمسكها بالإمام **وقيام الحجة بوجود الناصر)** وثبت الدليل الشرعي على الإمام بحتمية الانتصار الإلهي للمظلومين **﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾** وأخيراً بسبب **وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقاروا** ولا يسكتوا **على كظة ظالم** وعلى كروش الظالمين الممتلئة ظلماً وحراماًبسبب ترفهم وبذخهم وإسرافهم في معيشتهم اليومية على حساب المسحوقين والمعدمين من أبناء الشعب ، ليس هذا فحسب بل، ولا يجوز للعلماء السكوت عن **سغب مظلوم** ولا حرمان المظلوم وجوعه، فإن الأخذ على يد الظالم ونصرة المظلوم واجب شرعي فرضه الله على علماء الأمة وفقهائها، فلولا تلك المسئولية والوجوب الشرعي لهان كل شيء عند الإمام علي الزاهد بالخلافة أصلاً **لألقيت حبلها على غاربها** أي لألقيت - وهي جواب لولا - حبل الخلافة على غاربها وهي كاهل الناقة كناية منه على التزهد بها وعدم التصدي لها وإرجاعها للناس حتى يختاروا غيره ويفعلوا ما يشاؤون.

ليس هذا فحسب بل **ولسقيت آخرها بكأس أولها** ولكان زهد وترك تولي آخر الخلافة الراشدة كما زهد بها منذ الخلافة الأولى، كل ذلك لأن الدنيا عنده لا

تساوي شيئاً في حياته **ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز** ، ولما وصل الإمام علي عليه السلام إلى هذا المقطع من خطبته بالذات أمام الجماهير جاءه رجل مسلم من بلادٍ بعيدة وناوله كتاباً فقطع خطبته ولما فرغ من قراءته والإجابة عليه لم ير أمير المؤمنين ضرورة في إتمام خطبته وأراد النزول من على المنبر، فأقبل عليه مسرعاً حبر الأمة الصحابي الجليل ابن عباس قائلاً: " يا أمير المؤمنين، لو اطردت في خطبتك من حيث أمضيت وانتهيت "، فقال الإمام عليه السلام: **هيهات يا بن عباس، تلك شقشقة هدرت ثم قرّت** والشقشقة هي ما يخرجه البعير من زبد متراكم في رئته إذا ما هاجه شيء، وهدرت حيث خرجت خروج الهدير وهو صوت البعير إذا ناح، ثم قرت أي سكنت وكبتت في محلها ، ومن هنا سميت الخطبة بالشقشقية.

قال ابن عباس: " فوالله ما أسفتُ على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد " . بسبب قطع ذلك الرجل لكلامه عليه السلام.

" حـــزب الشيــطان "

((ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورَجلَه، وإن معي لبصيرتي: ما لَبّستُ على نفسي، ولا لبِسَ عَلَيَّ. وَاَيمَ الله لأُفْرِطَن لهم حوضاً أنا ماتِحُهُ ! لا يصدرون عنه، ولا يعودون إليه.)).

صراع الحق والباطل أزلي الوجود، وهو صراع قديم بين دوافع الخير ونوازع الشر، وهو إذ ابتدأ قديماً حين خلق الله نبينا آدم عليه السلام كان الشيطان له بالمرصاد، وهذا الصراع إذا كان له بداية آنذاك إلا أنه ليس له نهاية حتى تقوم الساعة، وفي معترك هذا الصراع يفوز أناس.. ويسقط آخرون، والساقطون وإن كان لهم صولة في بعض الأحيان إلا أن للحق دولة، ولا يصح في النهاية إلا الصحيح.

وكما أن على أهل الحق أن يستجمعوا قواهم نجد أن أعوان الشيطان لا يهدأ لهم بال حتى يتشكلوا في حزب عرف في القرآن الكريم أنه حزب الشيطان في قوله تعالى في سورة المجادلة /آية ١٩ ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ وفي المقابل

فعلى المؤمنين أن يستجمعوا قواهم وتتوحد صفوفهم تحت راية التوحيد حتى لا يفرق الشيطان جموع المسلمين، حيث أن الشيطان لا يستطيع تجميع قواه إلا إذا وجد في صفوفنا ضعفاً، فحزب الشيطان يتشكل عادة من الإسقاطات التي تحدث بين أبناء الأمة الواحدة: ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون، فذرهم في غمرتهم حتى حين، أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون** ﴾ سورة المؤمنون/آية ٥٢-٥٦.

وما الخوارج الذين نهضوا بوجه الحاكم الشرعي الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلا من حزب الشيطان، فإن الشيطان يقوم بجمع شتاته ممن يجد في قلوبهم زيغ وهوى وفي الوقت الذي لازال الشيطان يجمع عصابته فقد جمع له أعواناً لمحاربة الإمام علي عليه السلام آنذاك بقوله **ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه** ومن هو ذلك الجمع ؟ وممن يتشكل ؟.

إنهم مجموعة من المنافقين وطبقة المنتفعين وحثالة الساقطين وأهل الأهواء والمصالح الضيقة والعقول الفارغة والقلوب الممتلئة بالحقد الأسود الدفين، كل هؤلاء يستجلبهم الشيطان لينضموا إلى حزبه ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ سورة الإسراء آية ٦٤.

الإسراء/آية , ٦٤ ولأن الإمام علي عليه السلام هو الترجمان الصادق للقرآن تناسقت خطبه مع سياق القرآن الكريم في آياته فقال عليه السلام **واستجلب** وطلب **خيله ورجله** والشيطان حينما يستجلب أعوانه فإنه يعدهم ويمنيهم بالمكاسب وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ولكنهم لا يعلمون، لأن الطريق إلى الشيطان يبتدأ بأول خطوة ولكن إلى أين تنتهي بقية الخطوات ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ سورة فاطر/آية ٦. ولكن كيف نحصن أنفسنا من السقوط في حزب الشيطان الرجيم ؟!

إنها البصيرة.

أجل.. فالوعي والتفكر والتذكر ومراجعة الضمير تقودنا إلى كشف الحيل الشيطانية، وتخاطبنا في ذلك البصيرة القرآنية بقوله تعالى في سورة الأعراف/آية ٢٠٠ - ٢٠١﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ وإن كان الشيطان يستطيع أن يغوي ضعاف النفوس فإنه عاجز كل العجز عن التأثير على أمير المؤمنين لأن الإمام علي عليه السلام قد حصن نفسه بقوله **وإن معي لبصيرتي** ، ولكن ما هو الطريق إلى البصيرة ؟. وكيف نحصل عليها ؟!.

إنه القرآن الكريم، أجل.. فالقرآن كفيل أن يعطينا البصيرة في الحياة لأنه كلام الله وتعاليم السماء ﴿ **قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ الأعراف/آية ٢٠٣.

وأمام تنوير المؤمن ببصيرة القرآن يحاول الشيطان أن يتلبس بألف لباس ولباس خصوصاً حينما يتمسح بجلباب الدين ولبوس المتصوفين من أجل أن يفتتن المؤمن بدينه، ولكن فتنة الشياطين لا تلتبس على أمير المؤمنين فهو لما تشرب بالبصيرة الإلهية قال: **ما لَبَّست على نفسي، ولا لُبس عليَّ** .

وإن مسئولية المؤمنين لا تتوقف عند اكتساب البصيرة الرحمانية فحسب بل تتعداها إلى دك حصون الشيطان وحزبه ومقارعة عسكره وأعوانه، وهذا ما تعهد الإمام عليه السلام القيام به، فهو يقسم بالله العظيم: **وايمُ الله لأفرطنَّ لهم حوضاً أنا ماتحُهُ** وهذه العبارة من بديع جمله في تشبيه الإحاطة بجند الشيطان، فهو يشبه إحاطته بهم بأنه عليه السلام سيرميهم في حوض أفرط لهم - أملاه لهم بالماء- حتى فرط وفاض فأغرقهم فيه، هو ماتحه أي هو الذي يفيض عليهم بالماء غرقاً **لا يصدرون عنه** لا يخرجون **ولا يعودون إليه** ولا يعودون لارتكاب حماقات أخرى.

" الوسطيـــة والاعتــدال "

((شُغِلَ من الجنة والنار أمامه ! ساعٍ سريعٌ نجا، وطالبٌ بطيءٌ رجا، ومُقَصرٌ في النار هوى. اليمين والشمال مَضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة. هلك من ادعى، وخاب من افترى. من أبدى صفحته للحق هلك. وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره. لا يهلك على التقوى سِنْخُ أصلٍ، ولا يظمأ عليها زرع قومٍ. فاستتروا ببيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، والتوبة من ورائكم، ولا يحمد حامدٌ إلا ربه، ولا يَلُمْ لائمٌ إلا نفسه.)).

كيف نتلمس طريقنا إلى النجاة ؟ سؤال في غاية الدقة والأهمية، وهو بحاجة إلى إجابة واضحة وشافية، وكثيرون أولئك الذين تطفح مثل تلك الأسئلة على سطح تفكيرهم، ولكن القليل منهم من يبحث عن الإجابة، وأقل منهم من يمضي نحو تفعيل الإجابة في واقع حياته وامتطاء فرس نجاته لتحقيق فرص نجاحه، وبينما نحن نسأل أنفسنا هذا السؤال فإن الإجابة تتمثل في أنه حينما تقع أعيننا على إحدى خطب نهج البلاغة لنرتوي من معينه الصافي أملاً في تلمس نهج السعادة في

حياتنا، وهاهو الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام يضع أمامنا الإجابة الشافية من خلال بعدين أساسيين : البعد الأول: ويعرف ببعد الدافع الداخلي للإنسان والرغبة المحركة له، وتلك الرغبة هي الكفيلة بأن تفجر في داخل كل إنسان الدافع نحو تحقيقها، تلك الرغبة التي تتمثل أمامنا كل يوم وهي الفوز بالجنة، وهذا الجانب الإيجابي في الموضوع ولكن الجانب الآخر منه كذلك الخوف من السقوط في النار.

إنه دافع الترغيب والترهيب.. فمن رغب في شيء سعى له ومن رهب من شيء فرَّ منه. فإذا ما تمثلت الرغبة لشيء أمام الإنسان والرهبة من شيء أمامه فقد اشتغل برغباته وتجنب مرهباته، إنها الجنة التي يرغب بها كل مؤمن والنار التي يرهب منها كل مؤمن أيضاً، فمن جعلها نصب عينيه اشتغلت جوارحه فيهما، ومن هذا المنطلق يقول الإمام عليه السلام في إحدى خطبه **شُغلَ مَنِ الجنة والنار أمامه** فمن جعل من الناس الجنة والنار أمامه كل يوم تحركت دوافعه الذاتية وتشاغل بهما، ولا ننسى أن هنالك بعداً آخراً غير التشاغل والتدافع، وهو الشغل الفعلي والعمل اليومي، وأمام محك العمل والامتحان حيث يفوز المرء أو يهان ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام، حيث يسلط الضوء عليهم أمير المتقين، فالأول: **ساعٍ سريع نجا** فالوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وعمر الإنسان دقائق وأيام، فلابد أن يسعى الإنسان سريعاً ويثابر لنيل النجاح المحقق. والصنف الثاني من الناس: **وطالب بطيء رجا** وبينما الساعي السريع نجا نجد أن طالب الجنة بلا جهد وعمل بطيء الخطو كسولاً إليها وبالأمنيات يرجو الفوز بها ، فهو مزاجي الطبع يهرول مرة ويتعثر أخرى ويتوقف أحياناً، فهذا الصنف الذي يرجو رحمة ربه طالباً للجنة وراجياً الفوز بها بالمجان ، بينما المسرع لها نجده ساعٍ إليها بكل وسيلة وبجهد ومثابرة، وشتان بين الساعي والطالب، فبينما الساعي سريع الخطى فحال الطالب بطيء ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سَعيَها وهوَ مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ الإسراء/آية ١٩. أما الصنف الثالث: من الناس فهم الذين تهاونوا في طاعة الله وانشغلوا بالدنيا وقصروا في واجبهم تجاه الآخرة فالنار مثواهم **ومقصر في النار هوى** .

وقد جعل الله ديننا الإسلامي الحنيف وسطاً بين التطرف والميوعة، وبين الغلو والمغالاة، وبين الإفراط والتفريط، حيث أن **اليمين والشمال مضلةٌ** قال تعالى في سورة البقرة/آية ١٤٣: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾، **والطريق الوسطى هي الجادة عليها باقي الكتاب وآثار النبوة** فما بقي من أثر السماء هو كتاب الله العزيز، وسنة نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم **ومنها** الجادة **منفذ السُنة** ففي الجادة الوسطى منفذ للسنة يقودنا إلى الهدف **وإليها** للجادة **مصير العاقبة** فالعاقبة والخاتمة المحمودة هي نهاية من سار على الجادة الوسطى، ولكن دعاة الحق المزيفين الذين لا يعجبهم المسير في الجادة الوسطى ويلوذون دائماً يمنة ويسرة **هلك من ادعى** النجاة بدون الجادة المستقيمة **وخاب من افترى** لليمين واليسار، وذلك لأنه **من أبدى صفحته للحق هلك** أي من تنحى بصفحة وجهه عن الحق خاب وهلك، فبمقدور الإنسان أن يهتدي لجادة الحق إن هو استبصر بالقرآن وهدي السنة الشريفة.

ولابد للإنسان أن يدرك أنه قادرٌ على تلمس الطريق **وكفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره، لا يهلك على التقوى سنخُ أصلٍ** والسنخ هو النبتة في الأرض، فكأنها لَتَفسد إذا ما رويت بالماء، كذلك من سلك طريق التقوى **ولا يظمأ عليها** بالتقوى **زرع قومٍ** فبالماء يحيى الزرع كما بالتقوى نروي عطش أرواحنا وأنفسنا، ولابد في طريق التقوى أن نقوم بما يلي: **فاستتروا ببيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، والتوبة من ورائكم ولا يحمد حامد إلا ربه**، ﴿ **ولئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾، ومن لا يتبع الخطوات آنفة الذكر فليس عليه إذا ضل وخاب أن يلوم إلا نفسه **ولا يلم لائم إلا نفسه** إذا ما جنح عن طريق الوسطية والاعتدال.

" أشبـــاه العلمـــاء "

((إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجلٌ وكَلَه الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوفٌ بكلام بِدْعة، ودعاءِ ضلالة، فهو فتنةٌ من افتتن به، ضالٌ عن هَدْيِ من كان قبله، مُضِلٍ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمالٌ خطايا غيره، رهنٌ بخطيئته. ورجلٌ قَمَشَ جهلاً، مُوضعٌ في جُهالِ الأمة، عادٍ في أغباش الفتنة، عمٍ بما في عقْدِ الهُدْنة ؛ قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، بَكرَ فاستكثر من جمْعٍ ؛ ما قل منه خيرٌ مما كثُر، حتى إذا ارتوى من آجِنٍ، واكتنز من غير طائلٍ، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليصِ ما التبس على غيره، فإنْ نزَلَت به إحدى المبهمات هيأ لها حشْواً رثا من رأيه، ثم قطع به، فهو من لبْسِ الشبهات في مِثل نَسْجِ العنكبوت: لا يدري أصاب أم أخطأ ؛ فإنْ أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإنْ أخطأ رجا أن يكون قد أصاب. جاهلٌ خَباطُ جهالات، عاش ركاب عشوات لم يَعَض على العِلم بضرسٍ قاطعٍ يذري الروايات إذْراءِ الريح الهشيم، لا مَلِي - والله -

بإصْدار ما ورد عليه، ولا هو أهل لما فوض إليه، لا يحسب العلم في شيءٍ مما أنكره، ولا يرى أن مِن وراءِ ما بلَغَ مَذْهَباً لغيره، وإنْ أظلَمَ أمرٌ اكتَتَمَ به لِما يعلَم مِن جهلِ نفسه، تصرخُ من جَورِ قضائه الدماء، وتَعَجُّ منه المواريث. إلى الله أشكو من معشرٍ يعيشون جُهالاً ويموتون ضُلالاً، ليس فيهم سلعةٌ أَبْوَرُ من الكِتاب إذا تُلِيَ حَقَ تلاوته ولا سلعة أَنْفَقُ بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتابِ إذا حُرِفَ عن مواضعه، ولا عندهم أنكرُ من المعروف، ولا أَعْرَفُ من المنكر

.((١

إن أعظم المصائب التي تواجهنا هذه الأيام بالذات مصيبة من تعلم حرفاً ونصب نفسه بين الناس عَلَماً، ومن قرأ كتاباً حسب نفسه عالماً وهو موغر في غياهب الجهل، تخرج الفتيا من فيه مع زفيره بلا حساب، وتدخل الخرافات في أذنه كما تدخل صور الأشياء في عينه بلا ارتياب، فهؤلاء أبغض الخلائق إلى الله عز وجل **إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجلٌ وكله** تركه **الله إلى نفسه**) وشأنه أن لا فائدة منه **فهو جائر** منحرف **عن قصد السبيل** القويم والمنهج السليم، شغله الشاغل أنه **مشغوف** مولع بسماع اشاعة و **بكلام بدعةٍ ودعاءٍ وضلالةٍ** ضد العلماء الحقيقيين، فهو أكبر فتنة حين ينصب لنفسه منبراً يحدث الناس بحديث لا أصل له فيفتتن الجاهلون به **فهو فتنة من افتتن به، ضال عن هدي من كان قبله** من الفقهاء الصالحين، والمشكلة العظمى أن هذا الصنف من أشباه العلماء علاوةً على قيامه بتضليل الناس أيام حياته فإن البعض من الجهال يتخذه قدوة بعد مماته أيضاً **مضلٌ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته** وفي هذه الحالة يكون **حمّال خطايا غيره** لتعصب الناس لآرائه بعد مماته، فإن من سنّ سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها، وفي الوقت ذاته فهو **رهنٌ بخطيئته** فالإنسان رهين أعماله وحبيس أفعاله التي سيحاسب عليها، قال تعالى في سورة النحل/آية ٢٥: ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون** ﴾.

وهناك صنف آخر من العلماء المزيفين أشار إليهم أمير العلماء عليه السلام الذي علمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألف باب من العلم يُفتح من كل باب ألف باب بقوله: **ورجل قَمَشَ** جمع **جهلاً** ويحسب أنه جمع علماً والحال أنه **موضعٌ** سافل **في جهال الأمة**، ليس هذا فحسب بل **عاد** جار ومسرع **في أغباش الفتنة** والغبش هو الظلمة فهو في ظلمة الفتنة **عمٍ** أعمى **في عقد الهدنة** و عقد المصالحة بين المتخاصمين **قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به** والمصيبة أنه **بكّر أصبح فاستكثر من جمعٍ** وهذا النوع كل يوم يبكر في الصباح كي يستكثر ويجمع لنفسه من الخرافات والخزعبلات، وتلك الأساطير الواهية **ما قلّ منه** الإنسان **خيرٌ مما كثر** ولكن أشباه العلماء لا يتورعون عن اغتراف العلوم الفارغة **حتى إذا ارتوى من** علمٍ **آجنٍ، واكتنز من غير طائل** ولا فائدة وسرعان ما **جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ،فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب** والسبب في ذلك كله يرجع لكونه **جاهل خباط** متخبط **جهالات** .

والحال أنه قد **عاش** أعمى **ركّابُ عشوات** وجهالات، وفي الوقت الذي يجب على من يتصدى للإفتاء أن لا يفتي بدون علم قاطع، ونرى هذا الصنف من العلماء المزيفين **لم يعضِ على العلم بضرس قاطع** وفي هذه الحالة فليس بوسعه إلا أن **يُذْري** يرسل ويطرح **الروايات إذراء الريح الهشيم** وهو ما يبس من النبات وتفتت بالرياح **لا ملي** ليس مدرك **والله بإصدار ما ورد عليه** من قضايا الناس **ولا هو أهل لما فوض إليه** من أمر الفقهاء، وهو من الجهل بمكانة بحيث **لا يحسب العلم في شيء مما أنكره** فكل شيء لا يقتنع به ويجهله وينكره وينفيه يعتبره غريباً عن العلم، فالعلم محصور بقناعاته الشخصية الجاهلة، فهو العالم وغيره جاهل، في الوقت الذي يدرك العلماء الحقيقيون أن ما جهلوه قد علمه غيرهم من الفقهاء فلا ينكروه جزافاً،

وإنما يرجعوا ما لم يستوعبوه لغيرهم من أهل المذاهب والعلوم الأخرى، ولكن المتشبه بالعلماء جرت سيرته أنه **ولا يرى أن من وراء ما بلغ** وجهلاً **مذهباً لغيره** فهو إذا جهل شيئاً لا يعترف بجهله وإنما يقوم بالتمويه وعدم الاعتراف بجهله **وإن أظلم** وجهل **أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه** ويداه تلوثت بالدماء البريئة التي حكم على أصحابها ظلماً وجورا **تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج منه المواريث** أي تشتكي تلك المواريث التي حكم بها لغير أصحابها فهي تصيح وتصرخ إلى الله من ظلم قضاء أشباه العلماء، والمشتكى إلى الله منهم لا أبقاهم الله **إلى الله أشكو من معشر يعيشون جُهالاً ويموتون ضُلالا** فهم يركضون خلف كل كتاب ضلالة يشترونه بأغلى الأثمان.

بينما هو كتاب الله بين أيديهم ليس له قيمة عندهم **ليس فيهم سلعة أبور** وأرخص **من الكتاب إذا تلي حق تلاوته** فإذا حاججهم أحدٌ من العلماء الصالحين بأدلة من القرآن يتلوه حق تلاوته يخالف آرائهم لا يقيمون له وزناً وكأن القرآن عندهم أرخص سلعة، بينما إذا حرفت معاني القرآن عن مواضعه بحيث تتوافق تلك المعاني المزيفة مع آرائهم الباطلة فإنهم يدفعون لمثل ذلك التفسير الخاطئ أغلى الأثمان، وفي ذلك يقول سيد العلماء الإمام علي عليه السلام: **ولا سلعة أنفق بيعاً** أكثر مبيعاً ورواجاً **ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرف عن مواضعه** بما يتوافق ومعتقداتهم الفاسدة، لأن القرآن حمال ذو وجوه كما في الأحاديث **ولا عندهم أنكر** أفسد وأقبح **من المعروف** أي الصحيح الذي يخالف توجهاتهم **ولا أعرف** فهماً وخبرةً **من المنكر** غيرهم ، فهم آمرون بالمنكر وناهون عن المعروف ،، فهؤلاء بئس العلماء، وبئس جليسهم ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾

سورة الصف / آية ٧.

" القضاء والحكم بالآراء "

((تَرِدُ على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم تَرِدُ تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم، فيُصَوبُ آراءهم جميعاً - وإلههم واحد ! ونبيهم واحد ! وكتابهم واحد أفأمرهم الله - سبحانه - بالاختلاف فأطاعوه ! أم نهاهم عنه فعَصَوْهُ أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتْمامِهِ ! أم كانوا شركاء له، فلهم أنْ يقولوا، وعليه أنْ يرضى ؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصرَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغِهِ وأدائِهِ والله سبحانه يقول: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ ﴾ وقال: ﴿وفيه تبيانٌ لكل شيءٍ ﴾، وذكر أن الكتاب يُصَدقُ بعضُهُ بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿ ولو كان من عندِ غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وإن القرآن ظاهرُهُ أنيقٌ وباطنُهُ عميقٌ، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكْشَفُ الظلمات إلا به.)).

إن الاسلام أولى القضاء مكانة رفيعة ، لذلك يفرد لنا الإمام علي عليه السلام هذه الخطبة ليسلط الضوء على أهمية مكانة القضاء بجنب أهمية مستوى القاضي ، ولذلك نرى في العصر الحديث حيث تطورت الشورى كأساس للحكم في الإسلام إلى ما يسمى اليوم بالديمقراطية ، والتي هي أقرب إلى روح الاسلام كآلية حكم لنظام الدولة الحديثة عن سائر أنواع الحكم الأخرى المنتشرة في البلدان الدكتاتورية ، وعلى هذا النسق تطور القضاء شكلاً ومضموناً ليصبح مؤسسة مستقلة في العصر الحديث .

والنظام الديمقراطي كالاسلام أولى القضاء مكانة مرموقة ، فهي تأتي في مرتبة ليست بأقل من السلطتين التشريعية والتنفيذية، وقد وزع نظام الحكم الديمقراطي الحديث السلطات الثلاث بحيث تتمتع كل سلطة باستقلالية ذاتية منعاً من التشابك بينها وتجنباً لتسلط إحداها على الأخرى، وتبرز أهمية السلطة القضائية ليس فقط في التقاضي بين الناس فحسب بل لفك الاشتباك القانوني الذي يحدث أحياناً بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، إذ أن القضاء هو مرجع الحكم بين المتخاصمين سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المؤسسات، هذا ما حكم به الدين وأمضاه المتشرعون العصريون الديمقراطيون لتوافقه مع حكم العقل.

ومن أبرز مظاهر عصرية الدين الإسلامي وتقدمه على سائر أشكال وأنظمة الحكم المعاصر هو التركيز الإسلامي منذ بدء نشأته على دستورية القضاء ومشروعية أحكام القضاء التي يصورونها في حق الآخرين، وقد عرف هذا الشيء عند المتشرعين بسند الحكم، فإن مسئولية حكم القاضي تقع في مستند تلك الأحكام ومدى تطابقها مع الأدلة الشرعية ولعل أهم وثيقة شرعية يستند القاضي عليها في أحكامه عليها هي دستورنا القرآني العظيم: ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾، ولكن المشكلة تكمن في تحكيم بعض القضاة آرائهم الشخصية على حساب آيات الذكر الحكيم.

ولقد سلط الإمام علي عليه السلام الضوء على تلك الظاهرة نشأتها وعلاجها، فيما تبرز من خطبته أعظم ملامح المنهج الحضاري في نهج حكمه الديمقراطي

وانتقاده العلني لمساوئ التخلف القضائي في عصره، وحضارية الإمام علي عليه السلام تكمن في انتقاده لذلك دون التهديد بالعقوبة أو التلويح بعصا السلطة التنفيذية حيث يقول: **ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه** ضارباً بحكم القرآن عرض الحائط، فيما **ثم ترد القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه** يا سبحان الله !.

وهذا القرآن بين أيدينا حيث يقول الباري عز من قائل ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً.... ويسلموا تسليماً** ﴾ النساء/آية ٥٨-٦٥، والأدهى والأمر من ذلك كله حينما تُرشي السلطة التنفيذية بعض القضاة وتشتري ضمائر بعضهم بالأموال لتمرير مصالحها وتفقد السلطة القضائية على أثر ذلك استقلاليتها وتكون رهينة تحت رحمة بعض المتنفذين في السلطة التنفيذية، إذ يقول الإمام عليه السلام **ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم** -السلطة التنفيذية - **فيصوِّب آرائهم جميعاً** ، في حين أن **وإلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد** ولكن يبدو أن السلطة التنفيذية إذا انتفخت كروش أصحابها طغت على باقي السلطات والمؤسسات الدستورية الأخرى.

ومن هنا يثير الإمام علي عليه السلام بعض الاستفهامات التعجبية علها تفجر في أنفسنا دقائق العقول فيقول **أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه ! أم نهاهم عنه فعصوه ! أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه ! أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى؟ أم أنزل الله ديناً تاماً فقصَّر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ وقال: ﴿وفيه تبيان لكل شيء﴾، وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾.**

إن مشكلة بعض المتثقفين الإسلاميين أنهم سرعان ما يصدروا آرائهم اعتماداً

على ظاهر النصوص القرآنية دون الغوص بباطن بحر تلك الآيات وربطها ببعض، والقضاة كذلك عليهم ألا يستعجلوا في تحكيم آرائهم على المتخاصمين إلا بعد هضم العلوم القرآنية ظاهرها وباطنها، ولذلك ينصح الإمام علي عليه السلام القضاة في التأني بإصدار الأحكام واستيعاب العلم القرآني بنظرة عميقة غير قشرية فيقول **وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تنفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكشف الظلمات إلا به** .

"الرجـــل الشيطـــان "

((اتخذوا الشيطان لأمرهم مِلاكاً، واتخذهم له أشْراكاً، فباض وفرخَ في صدورهم، ودَبَ ودَرَجَ في حُجورِهم، فنطر بأعينهم، ونطق بألسنتهم فركِبَ بِهِمُ الزلَل، وزَينَ لهمُ الخَطَل، فِعلَ مَنْ قد شَركَه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه !)).

يخرج الطفل عند ولادته كائناً طاهراً مِلْؤُهُ البراءة والصفاء ثم بمجرد ما أن يتعلم الحبو على يديه وركبتيه سرعان ما يرمي أبواه بين يديه ألعاب التسلية الدنيوية، فيكبر عنده حب التملك بجانب شهوة التدمير، وبمجرد ما يتملل من لعبة معينة يقدم على إتلافها دون استفادة الآخرين منها، وما أن تسقط عيناه على لعبة لأطفال آخرين فإنه يحاول تملكها من دون وجه حق حتى ولو كلفه ذلك الدخول في معركة طفولية تنتهي عادة بالعراك المصاحب للبكاء، حينئذٍ تزجره أمه وتقول له:" لا تتشيطن" أو "لا تصير شيطاناً.. وهذه الكلمات تخرج عفوية من والديه في بداية الأمر، إلا أن الأهم من ذلك حينما يتبادر إلى أذهاننا سؤال عريض وهو أنه هل يمكن للإنسان أن يصبح شيطاناً يوماً ما ؟! أجل. ولكن ذلك لا يشكل خطورة كبيرة في حياة الطفل لأنه سيكون شيطاناً بريئاً، أي أنه لم

يقصد ولم يبيت النية الشيطانية المتعارف عليها في نفسه، ولكن الخطورة الكبرى تكون حينما يكبر الطفل ويشتد عوده وتكبر في نفسه الروح الشيطانية فيتحول إلى شيطان آدمي من لحم ودم بعدما كان الشيطان نفسه مخلوق من نار. وهنا مكمن الخطر.. فالعدو الشيطاني الذي يجب أن نحذر منه هذه المرة هو الإنسان الشيطاني ذو الهيئة الآدمية والمضمون الشيطاني، فيكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس** ﴾ سورة الناس.

هنا لم يفلت الرجل الإبليس من مرصد الإمام علي عليه السلام، حيث وصفه بأدق المعاني والعبارات في خطبة له يذم فيها أتباع الشيطان، إذ قال: **اتخذوا الشيطان لأمرهم مِلاكاً** فبعض الناس اتخذوا لأمور وحاجات دنياهم الشيطان محوراً ووسيلة، فيما **واتخذهم له أشراكاً** فجعل الشيطان نفسه يتخذهم شرك وحبائل يصطاد بواسطتهم بعض ضحاياه من البسطاء. فماذا كانت النتيجة ؟. **فباض وفرخ في صدورهم** وهو تعبير بلاغي جميل في تسلط الشيطان على قلوبهم بحيث أنه تمكن أن يعشش في صدورهم كما يتخذ الطائر لنفسه عشاً يبيض فيه ثم يفرخ أيضاً. ولكن بيض الشيطان هي الأفكار السوداوية وفراخه هي الحيل والمكائد، وهل اكتفى بذلك ؟. **ودب ودرج في حجورهم** فراح الشيطان يترعرع في أحضانهم إلى أن يتعلم الجري في ملعبهم، فيصبح هذا النوع من البشر هو كهف الشيطان وحجره.

الآن أصبح لا يوجد فرق بين الشيطان المارد وبين الإنسان الشيطاني **فنظر بأعينهم** أي صار الشيطان ينظر للحرام بعيني هذا النوع الشيطاني من الناس، **ونطق بألسنتهم** وراح يتكلم بالحرام بألسنتهم. فأصبح هذا الإنسان الشيطاني مطية سهلة يركبه الشيطان في زلاته الخبيثة **فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل** والخطل ليس هو الخطأ فحسب بل أقبح الأخطاء. وقد شبه الإمام علي سلام الله عليه أفعال الرجل الشيطاني كشريك في المؤسسة الشيطانية بقوله: **فِعل من قد شَرِكه الشيطان في سلطانه** حتى أصبح بوقاً إعلامياً للشيطان **ونطق بالباطل على لسانه** .

قال تعالى في سورة الأعراف/آية ١٤-١٨: ﴿ **قال أنظرني إلى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين، قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين، قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾ صدق الله العلي العظيم.

"وصايا جماهيرية"

((أيها الناس، شقوا أمواج الفَتنِ بسُفُنِ النجاة، وعَرجُوا عن طريقِ المُنافرة، وضعوا تيجان المُفاخرة.))

اليوم عصر الجماهير، والجماهير هي التي تنتهي إليها خيوط المعادلات السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية والدينية كذلك. فالجماهير بحر زاخر بالطاقات الفياضة، ولابد أن نحسن الاستفادة من طرق تفجير طاقات الجماهير بالاتجاه الصحيح، وعليه فإن من أهم الواجبات التي يلزم الحرص عليها هو الخطاب الجماهيري العام. من هنا كان الإمام علي سلام الله عليه يحرص على أن يخاطب الجماهير بشكل عام فنجده في بداية خطبه يقول: **أيها الناس**....

.

وصناعة الخطبة الجماهيرية فن لا يجيده إلا القليل من الخطباء والوعاظ، ذلك أن الجماهير لا تريد درساً في الفلسفة أو المنطق أو الصرف فالناس لا تعجبها الخطب السفسطائية، لذا فإن من واجب الخطيب أن لا يضيع وقت الحاضرين ولو صرف الخطيب دقيقة واحدة من وقته عليهم فلابد أن يدرك أن

كل مستمع قد صرف من وقته كذلك دقيقة أخرى ولو جمعناها فإننا سنكتشف أن دقيقة الخطيب الواحدة تعادل دقائق كثيرة صرفت من وقت الناس لسماع خطبته. من هنا استن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان كلامه مختصراً مفيداً وكان حريصاً على هذا الأمر غاية الحرص حتى أنه خاطب الناس يوماً فقال: **شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة** فالفتنة أشد من القتل كما ذكر في القرآن الكريم، ولكن ما هي سفن النجاة التي بها تشق أمواج الفتن ؟!. إنها أمران، الأول هو القرآن الكريم، والأمر الآخر هو العقل.

فأما القرآن الكريم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث له:" إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه ماحل مصدق وشافع مشفع من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه للنيران ". وأما العقل فإن فيه النجاة، ومن العقل تجنب أن تكون طرفاً في معادلة الفتنة، فقد قال الإمام علي سلام الله عليه في موضع آخر: كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب . وإن اللبون هي الناقة الحديثة الولادة والتي لا يصلح ظهرها للركوب ولا يمكن الاستحلاب منها لصغر سنها. وكل طريق يوصل للعداوات والخلافات والتنافر علينا أن نعرج عنه ونبتعد منه قدر الإمكان **وعرجوا عن طريق المنافرة** لأن انقداح شرارة الفتنة بدايةً لا تكون إلا إذا كثرت الكراهية والاختلافات، فالمنافرة هي الخصومات التي تسببها ابتعاد الأخ عن أخيه عن كره أو ضجر أو عداوة أو نزاع.. قال تعالى: ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم** ﴾ سورة الأنفال آية ٤٦.

كما أنه علينا أن نؤجل التفاخر إلى ﴿ **يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾، وكيف يتفاخر الإنسان في دار الدنيا وقد خلق من ماء مهين وسينتهي المطاف به إلى قبره فيصبح بدنه جيفة تأكلها الديدان، وهو بين هذه وتلك كائن ضعيف إلى درجة أنه يخاف أن تضره " قرصة بقة ". وإلى ذلك يحث وينصح الإمام علي سلام الله عليه الناس بترك المفاخرة بقوله **وضعوا تيجان المفاخرة** ، لقوله تعالى: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ سورة

الحجرات /آية ٢١، وإذا أردنا المفاخرة فما علينا إلا أن نتدبر بما قاله الإمام علي عليه السلام من شعر في ذلك نقتبس الأبيات المختصرة الجميلة التالية:

أيها المفاخر جهلاً بالنسب

إنما الناس لأم وأبِ

هل تراهم خلقوا من فضة

أم حديد أم نحاس أم ذهبِ

بل تراهم خلقوا من طينة

هل سوى لحم وعظم وعصبِ

ولكن كيف لنا أن نتجنب السقوط في درك الفتن ؟! وما هو البديل إذا ما لاحت لنا آفات الفتنة ؟!.

الإجابة نجدها في بقية الخطبة في الموضوع القادم إن شاء الله.

" الفتنة عكر ماؤها "

((أفلح من نهض بجناحٍ، أوِ استسلم فأراح. هذا ماءٌ آجنٌ، ولُقْمَةٌ يَغَص بها آكلُها. ومُجْتَني الثمرة لغير وقتِ إيناعها كالزارع بغير أرضه. فإنْ أقُلْ يقولوا: حَرَصَ على المُلْكِ، وإنْ أسكُت يقولوا: جَزِعٍ من الموت !! هيهات بعد اللتيا والتي والله لابنُ أبي طالبٍ آنس بالموت من الطفل بثَدْيِ أمه، بل اندَمَجْتُ على مكنونِ علمٍ لو بُحتُ به لاضطريتمُ اضطرابَ الأَرْشِيَةِ في الطوِيّ البعيدة !!)).

قد يعتقد بعض المتطفلين أنهم قادرون على تحقيق بعض المكاسب من خلال ركوب الفتن الحادثة بين الحين والآخر لجني بعض الأرباح وهذا ما يسمى بالتصيد في الماء العكر وراح عن أذهانهم أن الماء العكر لا ينتج منه عادة إلا سمك ملوث، وهؤلاء يصنفون من ذوي الشخصيات غير المنتجة، فالإنسان الشريف لا يرضى إلا بما يجنيه من كد يديه وعرق جبينه، فهو بمقدار ما يبذل من جهد خيَّر فاعل يجني الثمار فمن جد وجد ومن زرع حصد، لقوله تعالى: ﴿ **إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإنْ أسأتم فعليها** ﴾ سورة الإسراء / ية ٧.

من هذا المنطلق يرسم أمير المؤمنين عليه السلام خريطة النجاح للعاملين فيقول: **أفلح من نهض بجناح** وهل يمكن لطائر أن يطير بدون أجنحة، بل كلما كانت أجنحة الطائر قوية وصلبة كلما استطاع أن يشق عباب السماء عالياً، وذلك لأن النجاح لابد له من أسباب يهيئها الإنسان، وقد أبى الله أن يهيئ الأمور إلا بأسبابها مصداقاً لقوله تعالى في سورة (ص)/آية ١٠: ﴿ **فليرتقوا بالأسباب** ﴾، والإمام علي عليه السلام يشبه فلاح الإنسان ونجاحه في الحياة بمقدار ما تكون له أجنحة أي أسباب وعوامل النجاح، فالإنسان رهين أعماله كما أن الطائر رهين جناحيه، ولكن هناك صنف آخر من البشر يغلب عليه طابع الكسل ويميل إلى الراحة والدِعّة وهذا الصنف من الناس لا عمل له سوى ركوب الفتن والتصيد في الماء العكر دون جهد يذكر وإن من الأفضل له أن يستسلم للقدر بدلاً عن التخبط في الحياة خبط عشواء فعلى الأقل يريح نفسه ويريح الآخرين من سلبياته وما ينتج عن تصرفاته الطفيلية **أو استسلم فأراح** .

والإنسان بحاجة طبيعية لشيئين، الماء.. والغذاء، كشارب الماء الآسن الآجن المتلوث **هذا ماء آجن** والذي يبحث عن المكاسب في دوامة الفتن كمن يغص بطعام فلا هو ينزل في معدته ولا هو يخرج من جوفة ويكاد أن يختنق به **ولقمة يغص بها آكلها** . إن المكاسب الدنيوية كالثمار بحاجة أن تأخذ وقتها الطبيعي في النضوج على أغصان أشجارها حتى يجنيها الإنسان بكل سهولة ويُسر، وراكب الفتنة طامع في جني بعض الفوائد في غير أوان نضوجها الطبيعي فلا يحصد منها إلا الشوك. إنه حينئذٍ كالحاطب بأرض غيره **ومُجتَني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه** . والداخل في معركة الفتن لا يخرج منها إلا خاسراً فإن هو فيها يقول الحق والصدق اتهِم من قبل الناس بالحرص على المغانم وإن هو يسكت عن الباطل يتهم بالخوف والجبن **فإن أقُل** أي الحق **يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت** وهل يخاف الموت من تراقص الموت ذاته على أوتار بطولاته الجهادية في ساحات القتال مرات ومرات، كلا وألف كلا **هيهات بعد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه** . وما سبب سكوته ووقوفه

على الحياد في معركة الفتنة إلا لأنه عليه السلام يعلم ما سوف تؤول إليه ضمائر الناس وأهوائهم ومواقفهم من اضطرابات شديدة **بل اندمجت على مكنون علم، لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرْشِيَة في الطوي البعيدة .**

فالإمام علي سلام الله عليه هو مكنون علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخازن أسراره، وهو القائل: علمني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب ، فلو باح بما لم يتحمله ضعاف النفوس من ذلك العلم لاضطرب القوم اضطراب حبل الدلو - الأرشية - الذي يرمى به فجأة من فوهة بئر عميقة إلى قاعها العميق، فالطوي البعيدة هي البئر العميقة.

"تخففوا.. تلحقوا..."

((فإنكم لو عاينتم ما قد عاين مَن مات منكم لَجَزِعْتُم ووَهِلْتُم، وسمعتُم وأطعتم، ولكن محجوبٌ عنكم ما قد عاينوا، وقريبٌ ما يُطْرَحُ الحجابُ !! ولقد بُصرتُم إن أبْصَرْتُم، وأُسْمِعْتُم إنْ سَمِعْتُم، وهُديتُم إنِ اهتديتم، وبِحَق أقول لكم: لقد جاهَرَتْكُمُ العِبَر، وزُجِرتُم بما فيه مُزْدَجَر. وما يُبَلِّغُ عن الله بعد رُسُلِ السماء إلا البشر، فإن الغايةَ أمامكم، وإن وراءَكُمُ الساعةَ تحدوكم. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فإنما يُنْتَظَرُ بأولِكُم آخِرُكُم.)).

مشكلة بعض الناس أن عقول بعضهم كالأطفال، فهو لا يصدق الحقائق حتى يراها بأم عينه ويتحسسها ببدنه، فالطفل يظل يلعب بالنار مهما زجرته عنها حتى تحرقه وحينها يخاف منها ويصدق أنها محرقة، إذ أن في الحياة حقائق كثيرة لا نشاهدها بأم أعيننا ولا نلمسها بحواسنا المادية ولكنها بالنسبة لنا عبرة وعلم يجب الاستفادة منها في صناعة المستقبل الزاهر. فأحداث التاريخ الغابر وقصصه والمواعظ والعبر والحكم والعقل والوعي والحكمة والإيمان والنفاق

والكفر والاستقامة والانحراف والجاذبية الأرضية والهواء والمجرات السماوية والجن والشياطين والملائكة وجريان الكهرباء في الأسلاك والحب والبغض في القلوب والمعلومات المخزونة في أقراص الحاسوب الآلي والموت والآخرة والجنة والنار وغيرها كثير جداً.

هذه وغيرها تشكل حقائق لابد أن نسير على ضوئها في الحياة، ولكن يصر بعض المتخلفين أن يعيش حياة الأطفال فهو لا يحرك ساكناً بقدر ما تحركه الأشياء، وهو لا يتفاعل إلا مع الأشياء المحسوسة الملموسة ولا تنفعه العبرة والموعظة إلا بعد أن يصطدم بها أو تصدمه الحياة، فيا أيها الناس **فإنكم لو عاينتم** بأعينكم المادية **ما قد عاين** في قبره **من مات منكم** من حساب وكتاب وعذاب في عالم البرزخ **لجزعتم** وفزعتم **ووهلتم** مِن وهل أي خاف، **وسمعتم** كلام الله **فأطعتم** أحكامه.

بينما ليس هناك داعٍ من أن يشاهد الإنسان بأم عينيه الأحداث العصيبة التي يشاهدها الاموات في قبورهم عن قرب حتى يتعظ ويسمع كلام الله ويطيع أوامره، فالحر تكفيه الإشارة ولا داعي أن يكون الرجل كالطفل، فهل تكفيه الموعظة والعبرة والحكمة ؟ !! ولو كان باستطاعة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام استخدام أسلوب المشاهدات العينية لتجارب الأمم الماضية في هداية الناس وماحلّ بهم في قبورهم لفعل **ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا** من مضى قبلنا من الأمم السابقة **وقريب ما يطرح الحجاب** ولكن بعد فوات الفوت وانقطاع الصوت عن هذه الدنيا، فالحجاب الحاجز الذي يحجزنا عن المشاهدات القديمة سيرتفع بمجرد الموت والتقاء الأموات الجدد بالأموات الماضين ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة، إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين، ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين** ﴾ سورة المدثر/آية ٣٨-٤٧ ﴾.

ولكي يستحق الإنسان هداية الله وبصيرته في الحياة لابد أن يكون مؤهلاً لذلك ومستعداً ومستقبلاً لها، فعلى الإنسان أن يهيأ لنفسه أرضيَّة الهداية حتى

يهديه الله، والله لا يجبر أحداً على الهداية وإلا انعدمت حكمة الاختبار والامتحان؛ يقول تعالى في سورة النحل/آية ٣٥-٣٧: ﴿ **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرّسل إلا البلاغ المبين ... وما لهم من ناصرين** ﴾ لكن الله لم يتركهم فبصرهم وهداهم وعلمهم وأبى أكثر الناس إلا كفوراً، ويخاطبهم الإمام علي عليه السلام بقوله **ولقد بُصرتم** بالعقل **إن أبصرتم** ولكنهم لم يستبصروا، **وأسمعتم** بالقرآن **إن سمعتم** ولكنهم لم يستمعوا **وهُديتم** بالنبي **إن اهتديتم** ولكنهم لم يهتدوا.

ولقد وصل الأمر إلى بعضهم أن ظهرت أمامه العبر والمواعظ والدروس ولم ينفعهم ذلك **وبحق أقول لكم: لقد جاهرتكم** ظهرت إليكم **العبر** بل أكثر من ذلك فالتبليغ قد وصل إليهم إلى حد **وزُجِرتم** نُهيتم ومُنعتم **بما فيه مزدجر** بما فيه الكفاية لزجر المنحرفين عن ضلالتهم ونهيهم عن فسوقهم، علماً بأن تكليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقع على عاتق الجميع، وهو تكليف لا ينحصر بالأنبياء والأولياء فحسب بل يتعداه إلى سائر الناس **وما يُبلغ عن الله بعد رسل السماء إلا البشر** ونحن منهم.

وفي آخر خطبته البلاغية انتقل الإمام علي عليه السلام إلى جمع الموعظة بكلمات قليلة مختصرة تتفجر من بينها حكم وعبر عظيمة وذلك بعد أن أشار للناس في أول خطبته بأن الإنسان عليه أن يتعظ بقلبه دون الحاجة للنظر بعينه لفجائع غيره، فقال: **فإن الغاية** الجنة **أمامكم، وإن وراءكم الساعة تحدوكم** وتنتظركم، فما هو الحل إذن ؟!.

هنا يسطر الإمام عليه السلام من كلماته الموجزة والمختصرة أروع معنىً وكل كلماته رائعة حيث يقول بأن الحل يكمن لكل البشرية في هذه العبارة المختصرة: **تخففوا.. تلحقوا** والتخفيف عن كاهل الإنسان من أثقاله يخفف عليه المضي في مسيره نحو الآخرة، التخفيف له عدة صور وأشكال، فالتخفيف مرة يكون بالتحرر من القيود الرجعية البالية ومن الأغلال الاجتماعية المتخلفة والأفكار والنظريات الانهزامية، وحيث كان نبينا الكريم يخفف عن المسلمين أعباء

الجـاهليـة ﴿ **ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ سـورة الأعـراف/آيـة ١٥٧، كمـا أن التخفـيف مـرة أخرى يكون من خـلال الزهد بالدنيـا وعـدم التشبث بها، يقول البـاري عـز من قـائل في سورة التوبة/آية ٣٨ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل** ﴾ وأن نقوم بعملية التخفيف عن معاصينا في الدنيا قبل أن يفوت عنا الفوت ولا ينفع الندم بعد الموت (**فإنما ينتظر بأولكم آخركم**) فإن الساعة لا تقوم حتى يلحق أول البشر مع آخرهم في قبورهم.

قال السيد الشريف الرضي - رضوان الله عليه - والذي قام بجمع خطب أمير المؤمنين في كتاب أسماه نهج البلاغة معلقاً على عبارة **تخففوا.. تلحقوا** ما نصه:"إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكل كلامٍ لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً، وأما قوله عليه السلام تخففوا فما سُمع كلامٌ أقلَّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة وانفع نطقتها من حكمة ".

" وصايا جهادية في عصر الخذلان "

((أما بعد، فإن الجهادَ بابٌ من أبوابِ الجنة، فتحَهُ اللهُ لخاصةِ أوليائه، وهو لباسُ التقوى، ودِرْعُ الله الحصينةُ، وجُنتُهُ الوثيقَةُ. فمَنْ تَرَكَهُ رغبَةً عنه ألبسَهُ اللهُ ثوبَ الذُّلّ، وشَمَلَهُ البلاءُ، ودُيّثَ بالصغارِ والقَماءَةِ، وضُربَ على قلبِهِ بالاسْهاد وأُديلَ الحق منهُ بتضييعِ الجهادِ، وسيمَ الخسْفَ، ومُنعَ النصَفَ. ألاَ وإني قد دعوتُكُم إلى قِتالِ هؤلاءِ القومِ ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلتُ لكم: اغزوهم قبلَ أن يغزوكم فوالله ما غُزيَ قومٌ في عُقْرِ دارهِم إلا ذلوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنتْ عليكم الغارات ومُلكت عليكُمُ الأوطانُ. وهذا أخو غامدٍ وقد وَرَدَتْ خَيْلُهُ الأنبارَ، وقد قَتَلَ حسانَ بنَ حسان البكري وأزال خيلكُم عن مسالحِها، ولقد بَلَغَني أنَّ الرجلَ منهم كان يدخُلُ على المرأة المسلمة، والأُخرى المُعاهَدَة، فينْتَزِعُ حجلَها وقُلْبَها وقلائدَها ورُعاثَها، ما تَمْتَنِعُ منهُ إلا بالاستِرجاعِ والاسترحامِ. ثم انصرَفوا وافرين ما نالَ رجلاً منهم كَلْمٌ، ولا أُريقَ لَهُم دَمٌ ؛ فلَوْ أن امْرَأً مسلماً مات من بعدِ هذا أسفاً

مـا كـان بـه مـلومـاً، بـل كـان عـنـدي جـديـراً ؛ فـيـا عـجـبـاً ! - والله - يُميتُ القلبَ ويجلِبُ الهَمَّ من اجـتماعِ هؤلاءِ القومِ على باطلِهم، وتَفَرقكُم عن حَقكُم ! فقُبْحاً لكم وتَرَحاً، حين صرتُم غرَضاً يُرمى: يُغارُ عليكم ولا تُغيرون، وتُغزَوْنَ ولا تغزون، ويُعْصى الله وتَرضَون فإذا أمَرتُكُم بالسيرِ إليهم في أيامِ الحرِ قلتم: هذه حَمارةُ القَيظِ أمهِلنا يُسبخُ عنا الحر وإذا أمَرتُكُم بالسيرِ إليهم في الشتاء قلتم: هذه صَبارةُ القُر، أمهِلْنا ينْسلخُ عنا البرد ؛ كل هذا فِراراً من الحر والقُر فإذا كنتم من الحر والقُر تَفرون ؛ فأنتم والله من السيفِ أفَر ! يا أشـبـاهَ الرجـالِ، ولا رجـالَ ! حُلومُ الأطـفـال، وعـقـول ربات الحَجال، لَوَدَدْتُ أني لم أَرَكُم ولم أعرِفكُم معرفةً - والله - جَرت ندماً، وأعْقَبَت سَدَماً. قاتلكم الله ! لقد مَلأْتُم قلبي قَيْحاً وشَحَنْتُم صدري غيظاً، وجَرعْتُموني نُغَبَ التهْمامِ أنفاساً، وأفسدتم عَلَي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريشٌ: إن ابن أبي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ ولكن لا عِلْمَ لهُ بالحرب. لله أبوهم ! وهل أحدٌ منهم أشَد لها مِراساً وأَقْدَمُ فيها مقاماً مني ! لقد نَهَضْتُ فيها وما بلَغْتُ العشرين، وهاأنذا قد ذَرفْتُ على الستِّين ! ولكن لا رأيَ لِمَن لا يُطاع !.)).

كل منا يرغب الدخول في الجنة حيث فيها الحور والقصور والغلمان والأنهار والأشجار وراحة البال والطمأنينة والسكينة، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولكن الجنة لا تشترى إلا بصالح الأعمال، والأعمال الصالحة كثيرة وأبوابها إلى الجنة مفتوحة، ولعل أعظم أبواب الجنة باب الشهادة في سبيل الله، والطريق لذلك الباب يمر من خلال الجهاد، حيث يقول أمير المجاهدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: **أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة** وباعتبار أن سلوك طريق الجهاد لا يرغب فيه المتخاذلون فقد **فتحه الله لخاصة أوليائه** وهو بالنسبة للمؤمنين لباسهم **وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة** عن النار **وجنته الوثيقة** والجنة هي

الوقاية، فالجهاد وقاية أكيدة للإنسان عن ارتكاب الخطايا التي يقع بها عادة المتثاقلون عنه، أما مصير المتخاذلين عن الجهاد والمتثاقلين عنه **فمن تركه رغبة عنه** هروباً عنه **ألبسه الله ثوب الذل** ، وفي حين أن الجهاد لباس تقوى أولياء الله فإن الذل لباس التاركين له، وهو ما آلت إليه أمتنا الإسلامية في حاضرنا.

ليس هذا فحسب بل **وشمله البلاء** فأصبح الناس يبتلون بالانشغال بالأموال والنساء والمخدرات والعداوات والانحلال بتركهم للجهاد، ثم أصبح حالنا أن تشاغلنا حتى بالأمور الصغيرة والبسيطة **ودُيِّث** تلوث بالذل **بالصغار والقماءة** بالصغار أي الأمور البسيطة المذلة والقماءة أي المهانة، فتلوث قلب الإنسان **وضُرب على قلبه بالإسهاد** والحجب السوداء **وأُديل** انحسر **الحقِ منه بتضييع الجهاد وسيِمَ الخسف** وتكلف المشقة، بل **ومنع النصَف** وامتنع العدل عنه.

هذه كانت مشكلة وآثار تارك الجهاد، أما ما هو البديل ؟ وكيف يمكن استرداد عز الأمة وكرامتها ؟ ! فذلك من خلال **ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً** ورسم الأمام علي عليه السلام لأصحابه استراتيجية النصر من خلال **اغزوهم قبل أن يغزوكم** فالابتداء بالغزو ليس إرهاباً لأنه من باب ما يعرف الآن بمصطلح الردع العسكري للعدو والمتجهز والمتحفز للهجوم قبل أن يهجم فعلاً، فإن لم نقم بالردع الإستراتيجي العسكري **فوالله ما غزيَ قوم في عقر دارهم إلا ذلوا** . ولكن مع الأسف الشديد ذهبت تعليمات الإمام علي عليه السلام العسكرية أدراج الرياح إذ كان حال أصحابه **فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنت عليكم الغارات** تلو الغارات إلى أن آل الأمر إلى أن سقطت الأمة الإسلامية رهينة بيد الأعداء **ومُلِكَت** واستعمرت **عليكم الأوطان** .

وعندما تسقط بلاد المسلمين بيد الغزاة فإنهم يستبيحوا الأوطان ويهتكوا الحرُم ويلوثوا شرفها بحيث يبلغ إلى مسامع الإمام علي عليه السلام أنه: **ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى**

المعاهدة من أهل الكتاب كاليهودية والمسيحية حيث أنهن كن يعشن سواسية مع أخواتهن المسلمات في حكومة الإمام علي عليه السلام، فيقوم الغزاة **فيُنْتَزع حجلها**خلخالها **وقُلبها** السوار **وقلائدها ورعاثها** و أقراطها، إلى أن يصل الأمر إلى درجة من الذل والمهانة بالمرأة المحترمة بحيث **ما تمتنع منه ولا** لا يخلصها من العدو **إلا بالاسترجاع** بقولها إنا لله وإنا إليه راجعون، **والاسترحام**.

ولما نهب الأعداء كل ما في إحدى مقاطعات الإمام علي عليه السلام البعيدة بعد غزوها **ثم انصرفوا وافرين** غانمين **ما نال رجلاً منهم كلْمٌ** ولا جرحٌ **ولا أريق لهم دمٌ** وبعد تلك الأخبار التي وردت للإمام علي عليه السلام **فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً** ومحاسباً **بل كان عندي جديراً** وواقعياً، وبعد ذلك يبدي الإمام عليه السلام دهشته بقوله **فيا عجباً والله يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم** - الغزاة **على باطلهم** في حين أن أصحابه **وتفرقكم عن حقكم** وبذلك يستحقون التوبيخ من قائدهم حيث قال لهم متوجهاً **فقبحاً لكم وترحاً** وحزناً وشؤماً **حين صرتم غرضاً يُرمى** وهدفاً يرميه الأعداء حتى **يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَوْنَ ولا تغْزون ويعصى الله وترضون** باستباحة الحرمات وذلك بسبب كثرة التبريرات التي يخلقها أصحابه لأنفسهم لتبرير تقاعسهم **فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر، قلتم: هذه حمّارة** حرارة **القيظ أمهلنا يُسَبخ** يخفف **عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارة القر** شدة البرد **أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفرّ**.

وهؤلاء المتخاذلون عن نصرة الحرمات وصون أعراض النساء لا يعتبرهم الإمام علي عليه السلام رجالاً **يا أشباه الرجال ولا رجال، حُلومُ** مستوى **الأطفال، وعقول ربات الحجال** وهي المرأة العروس غير المدخول بها والتي لا خبرة لها بالزواج حيث تساوت جهالتها بعقول هؤلاء المتخاذلين.

وأمام جيش المنهزمين تمنى الإمام عليه السلام أمنيته التي قالها **لَوَدَدْتُ أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندماً، وأعقبت سَدماً** خلفت أسفاً، فاستحقوا اللعن من أمير المؤمنين عليه السلام **قاتلكم الله** بسبب أنهم **لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نُغَبَ التهمام** جرعة الهم **أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان** وتسبب خذلان جيشه له عليه السلام أن شاع على الإمام بين العرب أنه لا خبرة له بالحرب **حتى لقد قالت قريش: أن بن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب** ولكن تلك مجرد إشاعة **لله أبوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني** كلا.. وألف كلا.. فهو أول مقاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهاأنذا قد ذرفت على الستين** ، ولكن المشكلة تكمن في صفوف أصحابه حيث انعدمت الطاعة لقائدهم العسكري **ولكن لا رأي لمن لا يُطاع** فكيف يطيع جيش أوامر قائدهم وهم لا ينصتون له حديثاً ، ولا يسمعون له رأياً ، فسواء أفصح القائد عن رأيه أو كتمه عن جنده فالنتيجة واحدة طالما أنه لا يطاع .

وهذا بطبيعة الحال مخصوص في ميدان الحرب ، أما على طاولة الشورى وفي أروقة المجالس النيابية وأمام مرأى المشاهدين في منتديات الحوار الفكري ، فالأمر مختلف تماماً ، لأنه ليس ساحة حرب ولا قتال ، ولأن النقاش الديمقراطي ليس فيه زعيم حاكم وقائد آمر ، فالحاكم هو قرار الأغلبية وهنا ... على الانسان أن يقول رأيه بكل صراحة بعيداً عن حسابات الطاعة من عدمها ، ولا يحق له الصمت بحجة أنه يعتقد بأنه لن يطاع في أوامره إذ الأوامر والقرارات مخصوصة في ساحة القتال ، وفي ساحة الشورى فالمحكم هو الآراء وليست الأوامر .

" دقات قلبك... أثمان الجنان "

((أما بعد، فإن الدُنيا قد أَدْبَرَت، وآذَنَتْ بوداعٍ، وإنَّ الآخرَةَ قد أشْرَفَت باطلاعٍ، أَلاَ وإنَّ اليومَ المِضْمارَ، وغداً السِّباقَ، والسَّبَقَةُ الجنَّةُ، والغايَةُ النارُ، أفَلا تائِبٌ من خَطيئَتِه قبلَ مَنيَّته ! ألا عامِلٌ لنَفْسِهِ قَبْلَ يومِ بؤْسِه ! ألا وإنَّكُم في أيامِ أمَلٍ من ورائه أجل، فَمَن عمِلَ في أيَّامِ أملِه قَبلَ حُضورِ أجلِه فقد نَفَعَهُ عمَلُه، ولم يَضْرُرْهُ أجَلُهُ. ومَن قصَّرَ في أيامِ أملِه قَبلَ حُضورِ أجَلِه، فقد خَسِرَ عَمَلُهُ، وضَرَّهُ أجَلُهُ. ألا فاعملوا في الرغبةِ كمَا تعملون في الرهبة، ألا وإنّي لم أرَ كالجَنَّةِ نامَ طالِبُها، ولا كالنارِ نامَ هارِبُها، ألا وإنّهُ مَنْ لا ينفَعُهُ الحقُّ يَضُرُّه الباطِلُ، ومَن لم يستقم به الهدى، يجُرُّ به الضَّلالُ إلى الردى. ألا وإنكم قد أُمِرْتُم بالظَّعنِ ودُلِلْتُم على الزاد ؛ وإنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عليكُمُ اثنتان: اتباعُ الهوى، وطولُ الأَملِ، فتزوَّدوا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم بهِ غدا)).

لو سألنا بعض الناس، ما هو أهم شيء في حياتك ؟ لقال أحدهم المال

والثروة، وقال آخر المنصب والوجاهة، وقال غيره الحب والجمال، وآخر الصحة والغذاء أو الأمن والسلام، ونحن وإن سلمنا بأهمية هذه الأمور بالنسبة لطبيعة حياة الإنسان إلا أن هذه الأشياء مرتبطة بوجود ذات الإنسان فإن لم يوجد الإنسان ذهبت عنه هذه الأمور بالبداهة لأنها من متعلقات ومستلزمات وجوده، ووجود الإنسان ذاته محكوم بعامل الزمن، فالزمن الدوار في عمر الإنسان هو رأسمال بقائه، وديمومة الزمن في عمر الإنسان كفيل أن يحقق المرء سعادته من خلال السعي لتحقيق ما يصبو إليه من الثروة والحب والمنصب والأمن وما شابه.

وقد اعتاد الناس أن يسأل أحدهم الآخر: كم عمرك ؟ فيجيب السائل إنه وصل الأربعين من عمره مثلاً، في إشارة منه إلى أنه قطع زمناً طويلاً، والحقيقة أن الزمن هو الذي اقتطع من عمر الإنسان، والجدير به أن يجيب: أنه قد نقص من عمره أربعون عاماً، لأنه ما مضى من عمره فلن يعود، من هنا ابتدأ الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام خطبته مستعرضاً تلك الحقيقة بقوله: **أما بعد، فإن الدنيا أدبرت** وانقضى منها بمقدار انقضاء ساعات حياتنا وأيام عمرنا فيها، وبمجرد ولادة طفل جديد فيها فقد ابتدأ العد التنازلي لعمره بالوداع عنها **وآذنت بوداعٍ** عنها. ليس هذا فحسب فالزمن ذو حدين فكلما نقص من حده الأول وهو الدنيا اقترب منا حده الآخر وهو الآخرة ويوم الحساب **وإن الآخرة قد أشرفت بإطلاع** شيئاً فشيئاً وخطوة فخطوة، ولابد أن نغتنم كل ساعة من ساعات الدنيا للآخرة التي تطلع علينا وتقترب يوماً بعد آخر، لأن الدنيا دار الاستعداد والآخرة دار الانطلاق والسباق، إمّا الجنة أو النار **ألا وإن اليوم المضمار** ومعسكر الاستعداد وملعب التحدي بينما **وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار** فإن الموطن الأخير الذي ينتهي إليه الإنسان المذنب: النار، وإذا وقعنا في الذنب لابد لنا من الإسراع في التوبة **أفلا تائب من خطيئته قبل منيته** وموته، ولابد من الإسراع في العمل **ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه** وخيبته عند التفريط بعامل الزمن، ولكن أملنا بالفوز يتجدد كلما نهضنا للعمل، وإلا فسيسبِقُنا الأجل **ألا وإنكم في أيام أملٍ من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه**

عمله، ولم يضرره أجله والعكس صحيح **ومن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله، وضرّه أجله** .

من هذا المنطلق يسدي الإمام علي عليه السلام نصيحته لنا بقوله: **ألا فاعملوا في الرغبة** وأيام الرخاء من خلال الرغبة الشخصية والقناعة الشخصية دون ضغط، ويكون الاندفاع العملي والحماس منا في العطاء كمثل اندفاعنا للعمل مرعوبين ومرهوبين **كما تعملون في الرَّهبة** وأيام الشدة والبلاء ، وقد ألح الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بقوله في أهمية طلب العلم لأصحابه : ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الدين وذلك لأهمية فوزنا بالآخرة **ألا وإني لم أرَ كالجنة نام** صاحبها **طالبها**، إشارة منه عليه السلام على أهمية طلب العلم وضرورة الرغبة والقناعة كي يجتهد بطلبه بالرهبة والتخويف ، ويحثُ الإمام علي عليه السلام على أهمية العمل الصالح في أيام الرخاء قبل حلول أيام البلاء وترك العمل لها ، **ولا كالنار نام** غافلها ولم يستعد للنجاة عنها **هاربها** فما علينا للفوز بالجنة إلا أن نلتزم طريق الحق، وإلا فإنه ليس أمامنا إلا الارتماء بالباطل وما ينطوي عليه من مخاطر **ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضْرّهُ الباطل** فإنه لا خيار ثالث أمامنا **ومن لم يستقم به الهدى، يجرّ به الضَّلالُ إلى الرّدى** والهلاك .

وإن هذه الدنيا زائلة لا محالة عنا **ألا وإنكم قد أُمرتم بالظَّعن** والاستعداد للرحيل عن الدنيا، ولكن الله قد لطف بنا ولم يتركنا نضلَّ الطريق **ودُلِلْتُم على الزاد** وإن خير الزاد التقوى مصداقاً لقوله تعالى في سورة البقرة/آية ١٩٧: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ ومن ضيع على نفسه فرص الحياة فإنه أبعد ما يكون عن التزود بالإيمان، لأن فرص الحياة لا تتكرر وإن الزمن يأكل من عمر الغافلين سريعاً، وإن أبرز عوامل الغفلة الإفراط بعامل الزمن من خلال ضياع عمرنا باللهو والركون للأمل البعيد عن اغتنام أوقاتنا الحاضرة، وهذا ما يخافه أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام علينا **وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: إتباع الهوى، وطول الأمل** وتأجيل العمل **فتزودوا**

من الدنيا ما تحـرزون تحفظون **أنفسكم به غداً** فدقات قلبك أثمان الجنان فلا تشتري بها حطباً في النار تشتعل.

أصناف الناس في الدهر العنود

((أيها الناس، إنّا قد أصبحنا في دهرٍ عنودٍ وزمنٍ كنود، يُعَدُّ فيه المُحسن مُسيئاً، ويزدادُ الظالمُ فيه عُتُوّاً، لا ننْتَفعُ بما علِمْنا، ولا نسألُ عمّا جَهِلنا، ولا نَتَخوّفُ قارِعةً حتى تَحلّ بنا. فالناسُ على أربعة أصناف: منهم مَن لا يمنَعُهُ الفسادَ إلاّ مَهانَةُ نَفْسِه، وكلالَةُ حَدّه، ونضيضُ وَفْرِه، ومِنْهُمُ المُصْلِتُ لسيفه، والمُعْلِنُ بشَرّه، والمُجلِبُ بخيْلِه ورجِله، قد أشْرَطَ نفسَهُ، وأوْبقَ دينَهُ لحطامٍ ينْتَهِزُهُ مقْنَبٍ يقودُه، أو منبرٍ يَفْرَعُه. وَلَبِئْسَ المتْجرُ أنْ ترى الدنيا لنفسكَ ثَمَناً، ومما لكَ عندَ الله عوضاً! ومِنْهم مَن يطْلُبُ الدنيا بعمَلِ الآخرَة، ولا يطلُبُ الآخرَةَ بعمَلِ الدنيا، قد طامَنَ مِن شَخْصِه، وقارَبَ من خطْوِه، وشَمَّرَ من ثوبِه، وزَخْرَفَ مِن نَفْسِه للأمانَة، واتَّخذَ سِتْرَ الله ذَريعةً إلى المعصية. ومنهم مَن أقْعَدَهُ عن طَلَبِ المُلْك ضُؤولَةُ نفسِه، وانقطاعُ سَبَبِه فَقَصَرَتْهُ الحالُ على حالِه، فتَحلّى باسْمِ القناعةِ، وتَزَيَّنَ بلباسِ أهلِ الزَّهادة، وليسَ من ذلك في مَراحٍ

ولا مـغـدى، وبَقِيَ رجـالٌ غَضَّ أبصـارَهُم ذِكْـرُ المَرْجِعِ، وأراقَ دُموعَهم خَوفُ المَحشَرِ، فَهُم بينَ شَريدٍ نادٍّ، وخائفٍ مقموعٍ، وساكتٍ مكعومٍ، وداعٍ مُخلصٍ، وثكلانَ موجعٍ، قد أخْملَتْهم التَّقيَّةُ، وشَمَلَتهم الذِّلَّةُ فَهُم في بحرٍ أُجاجٍ، أفواهُهُم ضامزةٌ، وقلوبهم قَرِحةٌ، وقد وعَظوا حتّى مَلّوا وقُهِروا حتّى ذلّوا وقُتِلوا حتّى قلّوا. فَلْتَكُنِ الدنيا في أعيُنِكُم أصغرَ من حُثالَةِ القَرَظِ، وقُراضَةِ الجَلَمِ، واتّعِظوا بمَن كان قَبلَكُم، قبلَ أنْ يَتَّعظَ بكُم مَن بعدِكُم وارفُضوها ذميمةً فإنّها قد رفَضَت مَن كان أشغَفَ بها منكم.)).

علم الاجتماع هو علم يبحث فيه عن فن التعامل مع الناس، والناس أجناس، وهناك علاقة طردية بين الناس والواقع المعاش، فكلما كان الزمان رديئا كلما انقسم الناس على أنفسهم أجناس وأجناس، وكل منهم يجر القرص إلى نفسه، وكلما كانت الحياة سعيدة ومستقرة وآمنة كان المترشح منها من أصناف الناس التعساء والسيئين قليلا.. قليلا، فلكي تكون نظرتنا تجاه المجتمع وطبقاته أقرب للواقع في تصنيف الناس لابد أن نأخذ بعين الاعتبار الواقع الزمني المعاش الذي يحيط بهم، وكأني بالإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يتحدث عن التصنيفات الحاضرة لزماننا بالنسبة لمستويات الناس وتصنيفاتهم، وذلك للتشابه القريب بين واقع أمتنا الإسلامية المتردي والواقع المعاش في زمن الإمام علي عليه السلام، إذ يخاطب الناس من مدخل تشخيص حالة زمانهم آنذاك بقوله عليه السلام:

أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهرٍ عنود جائر **وزمن كنود** سيئ، وقد انعكست الأمور فيه بحيث **يعد فيه المحسن مسيئا، ويزداد الظالم فيه عتوا** وتجبرا، والسبب في ذلك يرجع لأننا **لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا** فالناس أعداء ما جهلوا، ولو سكت الجاهل لما اختلف الناس، واكتسابنا لبعض العلم في هذه الدنيا كان نتيجة ما دفعناه غاليا من تضحياتنا في معترك التجارب الحياتية، فإنه من السفاهة أن ننسى ما

تعلمناه، ومن الحمق أن لا نسـأل عما جهلناه، فالعلم كنز ومفتاحه السؤال، ونتيجة ذلك تكمن في أننا لا نستعد لمعضلات الحياة القادمة فنُصْدَم بمجرد ما تصدمنا المشاكل الجديدة خصوصا التي بعضها تكررت سابقا علينا وتلبست بأثواب جديدة، ولم نستعد لها لسوء التخطيط حيث فرطنا بتجاربنا السابقة **ولا نتخوف قارعةً** ومصيبة **حتى تُحلَّ بنا** فجأة مرة أخرى. ولهذا ينقسم الناس إلى خمسة أصناف **فالناس على أربعة أصناف** سيئة والصنف الخامس حسن.

أما الأصناف الأربعة السيئة:

الصنف الأول: **منهم من لا يمنعه الفساد إلا مهانة** وضعف في **نفسه وكلالَةُ حدّه** وضعف سلاحه وحيلته **ونضيض وفره** وقلة ماله.

والصنف الثاني: **ومنهم المصلت** والشاهر **لسيفه، والمعلن بشَرّه، والمجلب بخيله ورجله** والمستنفر للشر بفرسه وفرسانه، وحاله أنه **قد أشرط** وأعدَّ **نفسه** لاقتراف الفساد **وأوبق** أضاع **دينه لحطامٍ ينتهزه** وفتات من الدنيا يستغلها **أو مقنَبٍ** وجمع من الانتهازيين **يقوده، أو منبرٍ يفرَعُهُ** ويعتليه لغواية العوام من الناس، فهذا الصنف من الناس يهوى تشكيل و قيادة حزب من الطفيليين، أو مؤسسة إعلامية منبرية يغوي بها ضعاف العقول، فتباً لمثل هؤلاء وتعساً **ولبئس المتجرُ أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً** فبئس المتاجرين من أجل حطام الدنيا أولئك الذين يدفعون لشهواتهم وإشباع غرائزهم ثمناً غالياً، ويتركون ما ادخر لهم الله في الآخرة من نعيم دائم عوضا عن الدنيا الزائلة **وممّا لك عند الله عوضاً** .

الصنف الثالث: أولئك الذين دخل الرياء في قلوبهم والنفاق، فهو ممن يطلب الدنيا ويبحث عن ملذاتها من خلال التلبس بجلباب الدين ومظاهر المتزمتين **ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة** فإنه يريد الدنيا من خلال التصنع بالإيمان، في حين أنه **ولا يطلب الآخرة بعمل** الخير والإحسان في **الدنيا** وهذا الصنف ممَّن يجيد التلون والتمثيل لاستدراج عواطف الناس إليه

قـد طَامَنَ وتخاشـع **من نفسـه** واصطنـع التواضع لنفسـه أمـام الناس، ليتمَسْكَنْ أمامهم فيتَمَكّن عليهم، ولكي يجيد عملية التصنع والتمثيل كان لابد له أن يظهـر نفسـه بمظهـر المتـزهـدين ويمشي بمشيـتـهم **وقـارب مـن خطوه** فيمشي بخطى متقاربة تشبهاً بالصالحين بل **وشمـر من ثوبه** ورفعه عن الأرض وقصّـر منه **وزخـرف من نفسه للأمـانة** فجعل يضع على نفسه جلباب الصالحين ومسوح المتدينين حاملاً سبحته ومتخَتّماً بيمناه ومخضباً لحيته ومتمتماً بشفتيه ليظهر بمظهر القديسين، فيأتمن الناس عليه أماناتهم وأملاكهم، وهو من أشد المنافقين إذ أنه **واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية** .

أما الصنف الرابع والأخير منهم: أولئك الذين لا تطول أيديهم لركوب الفساد، لا لأنهم يصونون أنفسهم عن الفواحش، بل لعجزهم عن نيل مآربهم وقصورا منهم عن إدراك المفاسد **ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولةُ** قصوراً في **نفسه، وانقطاع سببه** وعدم قدرته في الوصول لأطماعه **فقصرته الحـال** والظروف لم تساعده وبقي **على حـاله** فلاٍ حيلة له إلا الاستسلام والرضوخ للأمر الواقع عليه، فما كان منه إلا **فتحلّى** وتصنَّع عدم الاهتمام **باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة** في الوقت الذي هو وليس أهلاً **من ذلك** الصنف الزاهد الحقيقي لا **في مراحٍ ولا مغدى** والمراح هو المحل الذي تأوي إليه الماشية وتستريح ليلاً، والمغدى هو المحل الذي تذهب إليه الشياة في النهار لغذائها، وهذا كناية عن أنه لا حظ له في صنف الزهاد الحقيقيين في أي وقت من الأوقات لا ليلاً ولا نهاراً.

أما المؤمنونٍ الحقيقيون فهم يشكلون الصنف الخامس من الناس: **وبقي رجالٌ غضٌ** خشعت **أبصارهم ذكر المرجع** والآخرة **وأراق دموعهم خوف المحشر** وأهاويله، وهذا الصنف الخامس من المؤمنين موزعون على خمس حالات **فهم بين شريدٍ** هارب **ناد** بعيد عن الاختلاط بالناس خوفاً من التلوث معهم **وخائفٌ مقموعٍ** خائفٌ من قمع الظالمين **وساكت** من شدة الإرهاب الفكري المفروض عليه **وداعٍ مخلصٍ** لله في دعواته بينه وبين ربه، وآخر **وثكلان موجعٍ** بوجع شديد في نفسه من شدة الحزن والألم الذي

يعتصر قلبه بسبب تمادي الحاكمين في ظلم المحكومين، **قد أخملتهم** وأقعدتهم **التقية** واجتناب المعاصي والمفاسد المنتشرة في المجتمع **وشملتهم الذلة** الاجتماعية بسبب الانعزال عن المجتمع الفاسد، والانكفاء على الذات **فهم في بحرٍ** اجتماعيٍ **أُجاج** متلاطمٌ بالفساد **أفواههم ضامزةٌ** مكبوتة وساكتة بينما نجد أن أفئدتهم **وقلوبهم قرحة** مجروحة تنزف ألماً على مصير المجتمع الفاسد، وإنهم إنما وصلوا لتلك الحالة بسبب أنهم **وقد وعظوا** الناس **حتى ملّوا، وقُهروا حتى ذلّوا، وقُتلوا حتى قلّوا** من هنا كانت الدنيا بالنسبة إليهم لا شيء نسبة للآخرة.

وبناءً على تصنيف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للطبقات الاجتماعية الخمس والتي لا ينجو منهم إلا الصنف الخامس فقط، يسدي الإمام علي عليه السلام نصيحته لنا نتيجة لما مضى بقوله: **فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة** بقايا **القَرَظ** المتساقط من الأشياء بسبب القطع والجز **وقُراضةِ** وشوائب **الجَلَمِ** وهو المقص الذي يجز به الصوف ونحوه فتسقط منه قراظته وشوائبه وبقاياه، ولا تصل النفوس لتلك المرتبة إلا لأولئك الذين **اتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم** فتكون عبرة لغيرنا **وارفضوها** أي الدنيا **دميمة** عن تعلق ذمتكم ونفوسكم بها، لأنها غدارة **فإنها قد رفضت من كان أشغَفَ** وأحرص **بها منكم** .

الكتاب والقائد أساس لصنع حضارة

((إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله، وليس أحدٌ من العرب يقرأُ كتاباً، ولا يدَّعي نبوةً، فساق الناس حتى بوّأهم محلّتَهم، وبلَّغهم منجاتهم، فاستقامت قنَاتُهم، واطمأنَّت صفاتهم، أما والله، إنْ كنتُ لفي ساقتها حتى تولت بحذافيرها، ما عجزتُ ولا جبنت، وإن مسيري هذا لمثلها، فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحقٍ من جنبه، مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنّهم مفتونين وإني لصاحبُهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم)).

يتحدث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له حول نظرية بناء حضارة للبشرية، تلك النظرية التي تتكئ على عاملين أساسيين هما: الرسالة.. والرسول، والرسالة عبارة عن مجموعة مبادئ وقيم أساسية راقية لصناعة حضارة من حيث المبدأ والنظرية، ولكن المبادئ وحدها لا تصنع مجداً ولا أوطاناً، ونظرة عامة إلى واقعنا الإسلامي نشاهد كثيراً من هنا وهناك عمليات فن صناعة الخطب وتنسيق الكلمات والمواعظ والحكم، مقروءة منها ومسموعة، بيد أن ذلك لا يكفي وحده

لبناء دولة راقية، فما نعيشه اليوم ما هو إلا نوع من مرض الترف الفكري والسجال الثقافي على صعيدي الفلسفة والأدب، ولكي تشق الفكرة الخلاقة طريقها نحو الحضارة كان لابد من وجود المُدافع عن الفكرة وعن تطبيقاتها في الساحة الحضارية، وهل يمكن لنا أن نتصور رسالة بدون مرسل ؟! كذلك لا يمكن لنا أن نتصور رسالة بدون رسول، ورسالة حضارية بدون قائد وزعيم.

من هنا نستطيع أن نستوعب بعض الأحاديث التي تشير إلى أن الله عز وجل يبعث على رأس كل مائة عام رجلا يجدد حيوية الرسالة المحمدية ويجذرها في نفوس المسلمين ويفعلها في حياتهم اليومية، والى ذلك يقول الإمام علي عليه السلام في خطبته: **إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وآله، وليس أحد من العرب يقرأ كتابا** سماويا صحيحا **ولا يدّعي نبوةً** وقيادة رسالية أصيلة، فالجزيرة العربية قبل البعثة النبوية كانت بسبب انعدام رسالة وفقدان رسول تعيش في فراغ حضاري كبير، والفراغ الحضاري هذا وتداعياته الجاهلية تشهد له كل كتب التاريخ، فالجهل العلمي، والمعارك الطاحنة، والأمراض، والفقر، ووأد البنات، والتعامل الاقتصادي الربوي في التجارة، والخواء الروحي.. وما إلى ذلك كله ما هو إلا انعكاس فصول مختلفة لمشهد مأساوي واحد هو الفراغ الحضاري. من هنا نجد بأن القرآن الكريم يؤكد على صحة القول بأن الكتاب والقائد هما العاملان اللذان يصوغان حضارة البشرية، وذلك في قوله تعالى مطلع سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام، حيث يقول عز وجل: ﴿**الر، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور**﴾ وحتى يتحقق إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة كان لابد من كتاب منزل، وذلك لمن ؟ إليك.. يا قائد البشرية، لتخرج من ؟!! لتخرج الناس، والخطاب القرآني هنا موجه للرسول، لتخرج أنت يا رسول الله الناس من الظلمات إلى النور.

ولأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استطاع أن يملأ الفراغ الفكري والثقافي والروحي في جزيرة العرب من خلال نصوص القرآن الكريم، وبواسطة مباشرته الذاتية في التصدي لقلب الواقع المتخلف رأساً على عقب، كانت النتيجة

أنه **فَسَاق الناسَ حتى بوأَهُم** وأرسى لهم صناعة **مَحلّتَهم** الحضارية في الدنيـا . ليس هذا فـحسب بل **وبلّغَهم** طرق **منجاتهم** لسعادة الآخرة، ويا ترى.. ماذا ستكون نتاج بناء الحضارة للبشرية وثمارها، إنها حتما ستكون السعادة في الاستقامة على طريق الخير في الحياة **فاستقامت قناتُهم** والقناة هي الرمح، وهذا تعبير بلاغي جميل من الإمام علي عليه السلام حيث يشبه نتيجة المضي نحو تحقيق الحضارة بأنه الانطلاق نحو حياة متزنة ومستقيمة لهدف محدد وهو سعادة الإنسان كانطلاق الرمح مستقيما نحو هدفه من دون اعوجاج أو اضطراب، ولهذا السبب **واطمأنّت صفاتهم** الحضارية الخيرة في نفوسهم وترسخت المفاهيم الراقية في عقولهم.

فإذا كانت تلك مبادئ مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الإمام علي عليه السلام باب تلك المدينة وحصنها الحصين، بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " أنا مدينة العلم وعلي بابها "، وقد مضى صحابته الكرام على ذلك النهج، والآن وقد تولى الإمام علي عليه السلام الخلافة في عهده يريد البعض ثنيه عن النهج الحضاري الذي رسمه للأمة رسولها العظيم، وذلك من خلال إعاقته عن إكمال مشوار الحضارة ووضْع العصا في عجلة حضارة الأمة الإسلامية ومسيرة قائدها الجديد عن طريق تفجير الحروب بوجهه وإثارة القلاقل السياسية عليه، وبالتالي الرجوع إلى نقطة الصفر اللاحضارية في تاريخ الجاهلية، وهو المساهم الفعّال مع الصحابة الخيرين في النقلة الحضارية بتاريخ الجزيرة العربية وما حولها، والى ذلك أردف الإمام قائلا لمثل هؤلاء:

أما والله إنْ - إنني مشاركا **كنتُ لفي سَاقَتها** أسوق ركبها الحضاري مع رسول الله وصحبه المخلصين، **حتى تولّتْ** الجاهلية واندثرت **بحَذافيرها** والحال قديما أن بنفسيتي وعزيمتي **ما عجزتُ ولا جبنتُ** واليوم وأنا خليفة المسلمين ماذا تتوقعون مني ؟ التراجع عن إكمال مسيرة الحضارة النبوية ؟!! كلا.. وألف كلا.. **وإن مسيري هذا** اليوم **لمثلها** بالأمس، غير عاجز، ولا متراجع عن قرار **فلأنْقُبَنّ الباطل** المتخلف **حتى يخرُجَ الحق من جنبه** كما نقبتُ الجاهلية وأخرجت بُؤَرَ الباطل والفساد

من جنب الجزيرة العربية قديما، واليوم مسيرك هذا أيها الإمام لمثلها بالأمس وستظل كذلك، وهذا لا يعني بأن الإمام علي عليه السلام له عداوات شخصية ضد بعض عرب قريش، فإنه منهم ومن لحمتهم، ولأن بعض الذين ممن يحاولون زعزعة أمن الأمة الإسلامية في عهد خلافته ينطلقون من ثارات جاهلية قديمة وشخصية، جاء جواب الإمام علي عليه السلام لهم سريعا في خطبته عندما استرسل قائلا **مالي ولقريش** وعداواتهم الشخصية والجاهلية ؟ وإنني أعترف بأنني **والله لقد قاتلتهم كافرين** سابقا من حيث المبدأ انتصارا للدين والعقيدة لكونهم كانوا كافرين **ولأقاتلنهم** اليوم كونهم بالدنيا **مفتونين** والحقيقة **وإني لصاحبهم بالأمس** الذي قاتلهم من حيث المبدأ والعقيدة **كما أنا صاحبهم اليوم** الذي يقاتلهم على نفس النهج الذي قاتلكم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

المتخاذلون بين الأمس واليوم

((أُفّ لكم، لقد سئمتُ عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ؟ وبالذُّل من العزّ خَلَفاً ؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم، كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة، يُرتجُ عليكم حَوَاري فتعمهون، وكأنّ قلوبكم مألوسة، فأنتم لا تعقلون، ما أنتم لي بثقة، سجيس الليالي، وما أنتم بركن يمال بكم، ولا زوافر عز يُفتقرُ إليكم، ما أنتم إلا كإبل ضلّ رعاتها، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر، لبئس - لعمر الله - سُعر نار الحرب أنتم، تُكادون ولا تَكيدون، وتُنتقصُ أطرافكم فلا تمتعضون، لا يُنام عنكم وأنتم في غفلة ساهون، غُلب والله المتخاذلون، وايمُ الله، إني لأظن بكم أنْ لو حمس الوغى، واستحرَّ الموتُ، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس، والله إنّ امرأً يُمَكّنُ عدوه من نفسه يعرق لحمَهُ ويَهشمُ عظمَهُ، ويفري جلدَهُ، لَعَظيمٌ عجزهُ، ضعيفٌ ما ضُمّت عليه جوانح صدره، أنت فكن ذاك إن شئت، فأما أنا فوالله دون أن

أُعطيَ ذلك ضربٌ بالمشرفيّة تطيرُ منه فَرَاشُ الهام، وتطيحُ السواعدُ والأقدام، ويفعلُ اللهُ بعد ذلك ما يشاءُ)).

المتخاذلون اليوم عن نصرة قضايا أمتنا الإسلامية والمتراجعون عن التصدي لمشاكلها الاجتماعية والسياسية هم أنفسهم الذين تنطبق عليهم صفات المتخاذلين والمنهزمين بالأمس والذين قد أشار إلى صفاتهم وسلوكياتهم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته التي عرّى بها سوءاتهم بشكل دقيق، ولعل أبرز مصاديق التخاذل عند المنهزمين في واقعنا الإسلامي المعاصر هو تراجع الكثيرين عن التصدي لتطهير المسجد الأقصى السليب من براثن صهاينة اليهود المحتلين، ذلك الأقصى السليب الذي هو محط نزول كثير من أنبيائنا والمرسلين ومدافن أسرارهم وهو أول قبلة للمسلمين، وهي الأرض التي باركها الله وبارك من حولها كما أنها هي أرض إسراء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله﴾** سورة الإسراء الآية ١، وبعد مرور أكثر من نصف قرن على احتلال مسجدنا الأقصى يتراجع اليوم أكثر من نصف المسلمين تخاذلا عن نصرة أهم قضية سياسية ودينية على الإطلاق في حياة أمتنا الإسلامية، فما هو شكل المتخاذلين اليوم وصفاتهم ؟.

تعالوا معي لنقتفي آثارهم من خلال إلقاء الضوء على نهج بلاغة الإمام علي في قصته مع المتخاذلين في عصره، حيث ابتدأهم بعبارة **أفّ لكم** أيها المتخاذلون **لقد سئمتُ عتابكم** وشكاياتكم وتبريراتكم التي لا تنتهي في تبرير تخاذلكم عن القتال بمبررات واهية، وهذا هو ظاهركم، ولكن الواقع والحقيقة لعلكم **أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا** ورضيتم أن ينقلب واقعكم **وبالذلّ من بعد العزّ خَلَفاً** كما هو واقع وحال أمتنا الإسلامية اليوم، ويبدو ذلك جليا **إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم** سرعان ما **دارت أعينكم** ولويتم رؤوسكم كأنكم لم تسمعوا نداء الجهاد، ومصداقا لقوله تعالى في سورة المنافقين حيث يقول عز من قائل: **﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾** آية

ه، ولماذا تدور أعينكم في رؤوسكم من الخوف؟ **كأنكم من** خشية **الموت في غمرة** تغرقون، وكأنكم **ومن الذهول** والفزع الشديد **في سكرة** وتخبط كبير لا تعقلون، مما يكون سببا بأن **يُرتجُ عليكم** وتُغلق عقولكم عن فهم **حواري** الفكري واستيعاب كلامي، ونتيجة ذلك أنكم **فتعمهون** الطريق وتفقدون البصيرة الإيمانية، ما بالكم **وكأنَّ قلوبَكم مألوسة** بالهلوسة والوسوسة **فأنتم لاتعقِلون** وهل يستطيع القائد أن يقاتل إلا مع من يثق بهم ويعتمد عليهم ؟!.

فيا أيها المتخاذلون **ما أنتم لي بثقة** مادامت نفوسكم السوداء وأفكاركم **سجيس** وحبيسة مخططات **الليالي** فالمتخاذلون ظلاميون ليس لهم وجود إلا في عتمة الأفكار وسوادة الأفعال، ولأنكم كذلك أيها المتخاذلون فلا أنتم بثقة **وما أنتم بركنٍ** متين وأمين **يُمال بكم** ويُعتمد عليكم، ليس هذا فحسب بل **ولا** أنتم **زوافر عزٍ** ولا أنصار مجد وطلاب كرامة، كما لا **يُفتقر** ويُحتاج للنصرة المجاهدون **إليكم** أيضا، وقيمتكم عند أمتنا الإسلامية كقيمة **ما أنتم إلا كإبلٍ** وبهائم **ضَلَّ رُعاتُها** وحراسها عن المحافظة عليها من الضياع والتشتت **فكلما جُمعتْ من جانبٍ، إنتشرت من** جانبِ **آخر** وأُقسم أنكم **لبئس، لعمر الله** ستكونون بتخاذلكم محرقة و **سُعرَ نارِ الحربِ أنتم** جحيمها، وهذا سيكون مصيركم أمام أعدائكم ما دمتم **تُكادون** من قبل أعدائكم وأنتم **ولا تَكيدون** عليهم بشيء ولا تغيرون، ليس هذا فحسب.. بل وصل الأمر جراء سلبية المتخاذلين وحالهم بأنهم **وتُنتقص أطرافكم** وأطراف البلاد الإسلامية **فلا تمتعضون** ولا تبالون **لا يُنام عنكم** الأعداء بينما **وأنتم في غفلةٍ ساهون** ومشغولون بدنياكم، ولكن فلسفة الحياة وقوانينها الحتمية كلها تقول **غُلب** وانهزم وخسر **والله المتخاذلون** !!.

ثم يأتي إمام المتقين عليه السلام يعري موقفهم تجاهه إذا ما قادهم إلى حرب الأعداء، فقسماً **وأيم الله إني لأظن بكم** بل أكاد أجزم **أن لو حمس** واشتد **الوغى** واشتعلت الحرب **واستحرَّ** ورأيتم حرارة **الموتُ** فإنني

كقائدكم أتوقع منكم ومن أمثالكم أنه **قد انفرَجْتُم** وتفرقتم **عن ابن أبي طالب انفراج الرأس** من البدن، الذي لا يصلحه الأطباء، وهنا الإمام علي عليه السلام يضع إصبعه على حقيقة دينية حتمية لازالت أمتنا الإسلامية تعاني من ويلاتها جراء تخاذل المتخاذلين منا هذا اليوم **والله.. إنَّ امرأً يُمكِن عدوه من نفسه** فالعدو سوف لن يرحمه، ويفعل به ما شاء، كأن **يعرُق** ويأكل **لحمه، ويهشم عظمه** .. ليس هذا فحسب، بل لا يتوانى عن أن **ويفري** يشق ويسحق **جلده** كل ذلك ما هو إلا انعكاس لتراجع المسلم واستسلامه و **لعظيم عجزه** فهو **ضعيفٌ** قلبه برغم **ما ضُمَّت عليه جوانح صدره** وحمته أضلاعه، فالقفص الصدري الذي يفترض أن يحمي قلبه النابض بالحياة والحيوية عاجز عن الدفاع عنه، لأن الواقع هو أن أضلاع المتخاذلين هشة قد نخر فيها الضعف والوهن فـ **أنت** أيها المتخاذل **فكن ذاك إن شئت** والخيار لك، وأما الموقف بالنسبة لأسد الله وأسد رسوله **فأما أنا، فوالله.. دون أن أعطي ذلك** الاستسلام لأعداء الأمة بل أعطيهم مني **ضربٌ بالمشرفية** نسبة إلى أفضل السيوف الأصيلة التي كانت قبائل منطقة المشارف العربية تصنعها ببلادهم، هذه الضربة بهذه السيوف على الأعداء أقلها **تطير منه فَراشُ** العمود الفقري ويطير **الهامِ** وكل ما يحتويه الرأس من غضاريف وأوردة وشرايين، ثم أعمد لباقي بدن العدو ضرباً بحيث **وتطيحُ السواعد والأقدام** حيث لا أترك جزأ من بدن العدو إلا وتناله سيف ذي الفقار **ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء** .

هذا الموقف الصلب من الامام علي عليه السلام في مدرسة المواجهة والجهاد قلما نجدة اليوم بين مواقف أبناء أمتنا الاسلامية ، إلا أن المعول في المساهمة والمثابرة لتنشئة جيل يحمل تلك الصفاة والتي تؤهله لريادة العالم الاسلامي وتطهير بؤر الفساد المستفحل هذه الأيام في جسد أمتنا الاسلامية ، وذلك بتعرية الوجه القبيح للمتخاذلين الدنيويين وتجاوزهم سواء كانوا حكاماً أو محكومين.

دولة المؤسسات الدستورية

((أيّها الناس.. إن لي عليكم حقاً، ولكم عليَّ حقٌّ، فأما حقكم عليٍّ: فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا.

وأما حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم)).

القائد والحاكم والزعيم ينبغي عليه توجيه اهتماماته وبسط توجيهاته للأمة كافة بدون تفريق، والأمة هي كل الشعب، وكما في طياتها المسلم، كذلك تحتوى على أهل الكتاب من النصارى واليهود وغيرهم، ومنهم المؤمن ومنهم الفاسق، وفيهم المرأة والطفل كما فيهم الرجل والشيخ، لذا كان الخطاب السياسي لأمير الأمة عليه السلام عاماً لكافة الأمة إذ قال: **أيها الناس..** وهو تعبير شمولي في الخطاب العام الذي يشمل كل الأمة لتنظيم دولة المؤسسات في عهده، وبالرغم من تفاخر بعض الأنظمة الديمقراطية في عالمنا اليوم بالمنهاج الديمقراطي الذي يبتني أساساً على تنظيم المؤسسات الدستورية والشعبية وتأكيد نظام فصل السلطات الثلاث التنفيذية منها والقضائية والتشريعية، نجد

بأن نظام دولة المؤسسات الذي رسم ملامحه الإمام علي عليه السلام في خطبته هذه جعلته بحق يستحق أن يكون لقبه أمير الديمقراطية الإسلامية وبانيها في ظل نظام الشورى في الإسلام.

من هنا فقد رسم الإمام صلوات الله عليه ملامح ديمقراطية حكمه عندما أوضح وبجلاء فوارق الحقوق ومساراتها بين الحاكم والمحكوم **إن لي عليكم حقا** ولو كان الإمام قد توقف عند هذا الحدّ من مقطع الخطبة لتناغم الخطاب هذا مع خطابات الحكام الديكتاتوريين الذين لا يرون إلا أن لهم حقوقاً على الأمة من دون ان يكون لها ولو حق واحد على السلطان، فكلما كان الخطاب السياسي للنظام وزعيمه موغلاً في تبيان قائمة حقوق السلطة والمتسلطين من جهة واحدة فقط على رؤوس الجماهير كان ذلك مؤشرا واضحا على ولوغ الحاكم مستنقع البطش وتمرغه بطينة الاستبداد وسجنه لشعبه في حضيرة الديكتاتورية. وحتى لا يعتري أحداً في الأمة الشك في سلامة المنهج الديمقراطي لأمير الشورى وزعيمها الذي أوضح بأن له بعض الحقوق على الأمة كخليفة شرعي سرعان ما أردف قائلا **ولكم عليّ حقٌ** فمن أبرز ملامح ديمقراطية دولة المؤسسات لديه أنه صلوات الله عليه أشار إلى نظرية تبادل الحقوق بين الحاكم والمحكوم، عندما وضح بأن كما للحاكم حقوق فكذلك للمحكوم حقوقا على الحاكم.

وتعالوا لنلقي نظرة فاحصة على مؤسسات دولة الشورى والحرية لديه **فأما حقكم علي** وهذا المقطع من الخطاب السياسي له يكفي لإثبات أنه قد تفوق وبجدارة على أبرز القيادات الديمقراطية التي حكمت تاريخ البشرية قديما وحديثاً، ذلك لأنه لا يوجد أحد من زعامات الديمقراطية لا قديما ولا حديثا من ابتدأ خطابه الجماهيري بتوضيح حقوق الناس قبل استعراض الحاكم لحقوقه أولاً !!. وهذا دليل واضح على أهمية أن يتوجه الحاكم لتثبيت حقوق المحكومين ومن ثم يمكن له استعراض حقوقه على الناس بعد ذلك، وليس كما فعله بعض الدكتاتوريين في التاريخ عندما كان يخاطب الناس بأن يطيعوه ولا يعصوه في أمرٍ ، ومقولتهم المشهورة : فمن أبي فهذا !!! إشارة إلى التهديد بالسيف ، أو مشهورة أحد الدكتاتوريين التاريخيين وهو يخاطب المسلمين قائلاً إني أرى رؤوساً قد

أينعت وحان قطافها... !! والإمام عليه السلام يعلمنا درساً في أهمية احترام حقوق الأمة أولا وبيانها لهم أولا بأول وبعد ذلك سيكون من السهل تقبل الجماهير لبيان الحكومة في استعراض حقوقها على الأمة **فأما حقكم علي** وهي علي أربعة محاور أساسية هي: **فالنصيحة لكم** وباعتبار أن الإمام علي عليه السلام هو الحاكم العام بالانتخاب الذي جرى تعيينه تاريخيا في حينه فهو يمثل رئيس السلطة التنفيذية بشكل طبيعي، ولأنه كان خليفة على المسلمين بالشورى والانتخاب فهو يلتزم بالشورى شكلا ومضمونا، لذا فإنه ليس من النوع الذي يرسم الأوامر ويصدر المراسيم ويسوق البروتوكولات التنفيذية للأمة من دون قيد أو شرط.

بل إنه في ظل نظام المؤسسات الدستورية ما هو إلا ناصح أمين يستعرض البرنامج الحكومي الناجح لنواب الأمة، وإذا كان بالأمس حضور ومشاركة أهل الحل والعقد في مناقشة برنامج الإمام علي من خلال نصائحه لهم وتوجيهاته يتم في مؤسسة المسجد ومن خلال استعراض تلك البرامج من على منبر الجمعة والجماعة، فإنه اليوم قد تطورت عملية المشاركة الشعبية في صنع القرار فأخذت شكلاً آخراً تحت قبة البرلمان، والذي يمكن للجمهور العام حضور وسماع برنامج عمل الحكومة في قاعة مجلس الأمة والذي عبر عنه الإمام بالنصيحة لهم كما كان لهم حضور ذلك في ساحة المسجد قديماً، والنصيحة يمكن أن يتناقش فيها المنصوحون قبولاً ورفضاً تعديلاً وتقليصاً أو توسعةً، لأن الأمة عند الإمام علي عليه السلام هي مصدر السلطات، ولأن النصيحة الحكومية أو ما نعبر عنه اليوم ببرنامج عمل الحكومة يجب أن يكون واضح الملامح، فقد عمد الإمام رئيس السلطة التنفيذية إلى بيان أبرز ملامح عمل حكومته في ثلاثة ملفات: الاقتصاد، والتعليم، وتثبيت سلطة القانون.

فأما الأمن الاقتصادي في الإسلام فإنه يشمل حرية التجارة وتوفير السكن والغذاء وحق العمل والتوظيف وغيره مما يشتمل عليه في الإسلام مصطلح - الفيء - لذا فقد قال الإمام عليه السلام **وتوفير فيئكم عليكم** وإذا كان إنشاء وزارة التربية والتعليم اليوم والمدارس والجامعات والمعاهد والكليات

الصناعية وتأهيل الأساتذة والمدرسين وتوفير موازنات مالية ضخمة لها، ما هو إلا من أجل إنقاذ الأمة من ظلمة الجهل ، كان برنامج عمل حكومة الإمام علي في هذا الشأن هو **وتعليمكم كي لا تجهلوا** أما بالنسبة لبرنامج عمله عليه السلام لتثبيت الحالة القانونية بدلاً عن الواسطة المعهودة والرشاوى الشائعة في هذه الأيام فقد قال **وتأديبكم كيما تعلموا** حقوقكم القانونية، وبما أن عملية التأديب اصطلاحاً في ظل النظام الإسلامي من اختصاصات القضاء أراد الإمام أن يشير إلى أهمية رفع الجهل و تحقيق العلم بالحقوق القضائية التأديبية عادة كما اصطلح عليه الإمام والمختص بالمنازعات والحدود والقصاص، حيث لا يتم التأديب إلا بإنشاء دائرة مختصة بذلك يصطلح عليه الناس اليوم في سياسة الحكم بالسلطة القضائية، هذه حقوق الأمة،

أما حقوق الحاكم **وأما حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة** السياسية لأنها جاءت من مبايعة الناس له بعد إختيارهم الحرّ له خليفة عليهم **والنصيحة في المشهد** بحضور الحكومة في قاعة البرلمان كما يحدث اليوم **والمغيب** من خلال الصحافة والإعلام وفي المؤتمرات والمنتديات الاجتماعية والمؤسسات الشعبية الأخرى أو عندما يغيب رئيس الحكومة عن جلسات مجلس الأمة لمختلف الالتزامات الرسمية الأخرى، ولأنه يجب على الحكومة سماع توجيهات مجلس الأمة ونصائحه وانتقاداته لبرنامج عمل الحكومة وأدائها، لم يمنع ذلك من تعاون أعضاء المجلس كذلك لمساعدة الحكومة واحترام وزرائها والاستجابة لسلطتها التنفيذية، وتفعيل التعاون بين السلطتين التشريعية والتنفيذية من خلال **والإجابة حين أدعوكم** للتعاون في حل مشاكل المواطنين، أما في ظل الاضطرابات والحروب ومحاولات غزو البلد من أعداء الخارج فللحاكم الحق في تجميع السلطات الدستورية الثلاث تحت سلطته المباشرة والانفراد بالقيادة العليا للقوات المسلحة **والطاعة حين آمركم** أثناء إدارة المعارك والحروب والأزمات العاصفة .

المبادرات في فعل الخيرات

((فقمت بالأمر حين فشلوا، وتطلّعت حين تقبّعوا، ونطقتُ حين تعتعوا، ومضيتُ بنور الله حين وقفوا، وكنت أخفضهم صوتا، وأعلاهم فوتا، فطرتُ بعنانها، واستبددت برهانها، كالجبل لاتحركه القواصف، ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحدٍ فيَّ مهمزٌ، ولا لقائل فيَّ مغمزٌ.)).

يَعتبِر علم النفس الاجتماعي أن من أبرز صفات الرجل القيادي هو المقدرة على طرح المبادرات واستباق الآخرين في التصدي للعمل الخلاق، وهذا ما يعرفه علم النفس الاجتماعي بالرجل الريادي، أي المتطلع قبل الآخرين في صنع الأحداث والاقتحام فيها.

والقرآن الكريم يعلمنا أهمية ذلك، وتشير الكثير من آياته على أهمية اتصاف المؤمنين خاصة بصفة الريادية في العمل الخيري، من خلال إطلاق المبادرات الشجاعة على طريق فعل الخيرات، فالمسارعة والمسابقة وغيرها مصطلحات قرآنية تشجيعية تحث المؤمنين على الاتصاف بها على طريق الخير، فمن أبرز صفات المؤمنين التي يستعرضها القرآن الكريم ما جاءت في سورة آل عمران:

﴿**يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، أولئك من الصالحين**﴾ آية ١١٤. بل هناك آيات قرآنية أخري تشجيعية على ذلك كقوله تعالى: ﴿**فاستبقوا الخيرات، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا**﴾ البقرة/آية ١٤٨، وفي سورة الأنبياء يصف الله تبارك وتعالى أنبياءه: ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغبا ورهبا**﴾ اية ٩٠. ومن جانب آخر يصف الله عز وجل عباده المؤمنين ليس فقط بالمسارعة في فعل الخيرات بل بالمسابقة أي المبادرة لها كذلك ﴿**أولئك يسارعون في الخيرات، وهم لها سابقون**﴾ المؤمنون/آية ٦١. ولأن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قد ترعرع في بيت القرآن في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت المبادرات سريعة عنده في فعل الخيرات برغم تلكؤ الآخرين من نفس مجتمعه القرشي وفشل بعضهم **فقمتُ بالأمر** الدعوي والجهادي **حين فشلوا** .

ليس هذا فحسب.. بل **وتطلّعتُ** وتقدمت مبارزا **حين تقبَّعوا** واختبئوا في جحورهم **ونطقتُ** بالحق **حين تعتعوا** وتلكؤا بالكلام واضطربوا، فما كان منه إلا أن تسابق في اقتفاء نور الله ونور رسوله الكريم بلا تردد إذ **ومضيتُ بنور الله** متى ؟ **حين وقفوا** وتراجعوا محرومين من الفيض الرباني، ولأن بعض المتظاهرين بالشجاعة في فعل الخيرات زورا وكذبا يتباهون عندما يكثر الحديث ويعلو الصوت ويصفق الجمهور ولكنهم سرعان ما يتراجعون ويتوقفون عندما يطرح عليهم فعل الخيرات وتطلب منهم المبادرات الخيِّرة، لكن الإمام علي عليه السلام عندما يتباهى الناس بالحديث عن الخيرات أمام الناس كان حاله **وكنت أخفضهم صوتاً** وأقلّهم دعايةً، لا كما يقوم به البعض في وسائل الإعلام الحديثة عبر الفضائيات من المفاخرة في ذلك.

أما في مقام العمل فكان عليه السلام **وأعلاهم** وأرفعهم وأسرعهم **فوتاً** دخولاً وسبقاً ومبادرةً في فعل الخيرات حتى بلغ درجةً بحيث **فَطِرتُ** طائراً **بعنانها** والعنان زمام الخيل ومقدمته، حيث كان فارس الخيرات بل أسبق من الفرس لذلك، حتى عرف منه الناس لكثرة مبادرته في الجهاد في الله أنه قد استبدَّ بذلك واحتكره لنفسه متصفا به **واستبددت** واختصصتُ **برهانها**

والرهان هي الجائزة التي يفوز بها المتسابق، فالإمام علي عليه السلام كان يفوز دوما في مسابقته مع الآخرين في مضمار الخيرات عندما يمتطي طائرا بعنان فرسه حتى استبد بجميع الجوائز واختصّ بها في فعل الخيرات، وهو عندما يشبه نفسه كالمتسابق الطائر والمقتحم فإنه أمام رياح المشكلات **كالجبل لا تحركه القواصف** والكوارث كالزلازل **ولا تزيله العواصف** العاتية التي تحول دون مبادرته للجهاد.

ولأنه كان قليل الكلام وكثير الفعل للخيرات ومتقناً في عمله فإنه صلوات الله عليه عند الناس **لم يكن لأحد** من الناس عند فعل الخيرات **فيَّ مهمزٌ** ولا دعايات مشككة أو مضللة ولا يستطيع أحد أن يعيب عليه ذلك **ولا لقائل منهم فيَّ مغمز** أو الإشارة بالسوء عليه خفية، وذلك لأنه كان قمة في الإخلاص من حيث النية عندما يبادر إلى فعل الخيرات، أوَليس قد قال عنه الله عز وجل في صدقاته وإحسانه للمساكين واليتامى والأسرى في كتابه الكريم في سورة الإنسان/آية ٨-٩: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾**.

الحق.. معيار قوة الإنسان

((الذليل عندي عـزيزٌ حـتـى آخـذ الحق لـه، والقـويُ عـندي ضـعـيفٌ حـتى آخـذ الحـق منه، رضـينـا عن الله قـضـاءه، وسـلمنـا لله أمـره، أتـراني أكـذب عـلى رسـول الله صلى الله علـيـه وآله وسلم ؟!! والله لأنا أول من صدقه، فلا أكون أول من كذب عليه، فنظرتُ في أمري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا الميثاق في عنقي لغيري)).

إنه في مجتمعنا المتخلف يُحترم القوى حتى لو كان من أهل الباطل، ويُهان الضعيف ولو كان صاحب حق، والظاهرة هذه منتشرة عندنا، فمثلا.. يضخ المرشح في الانتخابات كمية هائلة من الأموال رشوة ولكن بعناوين مختلفة على الناخبين، وفي الوقت الذي تنقصه الكفاءة يفوز بالمقعد النيابي ويكاد البعض منهم لا يفقه شيئاً ولربما البعض منهم أمي لا يجيد الكتابة ولا القراءة، فيكون بعدئذ محلاً لتقدير الناس وإعجابهم، ويأتي البعض الآخر يتحاكم إلى الطاغوت وقد أمرنا شرعا أن نكفر به ثم يتملق له بذلة كبيرة فيقوم الطاغوت الحاكم يعلق على صدره نُوَطُ الشجاعة العسكرية فيصبح بعدها شخصية عظيمة عند الناس

حتى ولو قد تلوثت يداه بدماء الأبرياء. وكذلك الوضيع لو يعمل السلطان منه وزيراً، وأيضاً الجاهل لو يقدمه الملك إلى الناس على أنه عالمٌ ولو كان موغلاً في الجهالات، وإنّ هذا الجاهل وذاك الوضيع والآخر الذليل وما شابه ذلك بمجرد تربعهم على كراسي البهاء والكبرياء ولو شكلاً فإنهم يكونوا في أعين الناس أقوياء في الحق والباطل على حدّ سواء.

وهذا الصنف من الناس إما أنه التبس عليه الأمر أو يحاول تلبيس الأمر على الناس كما يفعل إبليس عادة، في الوقت الذي ينهانا القرآن عن فعل ذلك في قول الله عز وجل: ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**﴾ البقرة/آية ٤٢. أما العالم الرباني والمفكر المبدع والصانع الحاذق والشاعر والمخلص البار والتقي المتواضع الهادف والأديب الناصح وما شابه فأولئك في أعين الناس هوامش ضعاف لا قيمة لهم وإن كانوا عند الله من المقربين الزلفى ومن أصحاب الدعوات المستجابة، فمعايير قياس الشخصية الناجحة واللامعة في المجتمع المتخلف تنطبق على المتخلف القوي فقط ضالاً كان أم مضلاً، ولكن المعادلة تختلف في حكومة الإمام أمير العادلين علي بن أبي طالب عليه السلام ف **الذليل** في أعين الناس **عندي عزيزٌ** في حكومتي، وهو وإن لم يكن يستطع في كثير من الأحيان أن يطالب بحقه ولكنني كإمام وخليفة للمسلمين سأعمل جاهدا **حتى آخذ الحق له** من يد من اغتصب منه ذلك، كائنا من كان ذلك الإنسان. كيف لا.. والله يعلمنا في القرآن الكريم أهمية إحقاق الحق عنده سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿**ويريدُ اللهُ أنْ يُحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليُحِقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾ الأنفال/آية ٧-٨.

وهناك صنف من المغصوب حقهم يقومون بالمطالبة بحقوقهم عند السلطان العادل أو عند القضاء أو من غاصبيهم مباشرة، وهؤلاء لا ضير عليهم إذ أنهم يستطيعون فعل ذلك بكل جرأة، ولكن يبدو لدى الناظر المتأمل بأن الخطاب العلوي والبلاغي هنا للصنف الآخر الذين لا حول لهم ولا قوة في المطالبة بحقوقهم المهدورة لضعفهم وقلة حيلتهم، فهؤلاء وأمثالهم في ظل حكومة أمير العادلين يبادر الإمام شخصيا بأخذ حقوقهم من غاصبيهم، بدلالة كلمة **الذليل**

أي العاجز الضعيف وكلمة **حتى آخذ** فالمبادر بأخذ حق الضعيف هنا هو الإمام علي سلام الله عليه، أما فيما يرتبط بأصحاب الكروش المنتفخة بالباطل، فهؤلاء وإن كان أغلب الناس لا يستطيعون مقاضاتهم لخشية عموم الناس من جورهم لأنهم في أعين عامة الناس من أقوى رجال الدولة والمجتمع.

ولكن المعادلة عند الإمام علي عليه السلام تختلف حيث **والقوي** في أعين الناس **عندي ضعيف** سواء كان وزيرا أو أميرا أو واليا أو حاكما أو قاضيا أو تاجرا أو سفيرا أو متنفذا في دولتي **حتى آخذ الحق منه** وأرجعه لصاحبه بدون تردد، وليحدث بعد ذلك في الدولة والخلافة ما يحدث من تقلبات وتحولات مادمنا **رضينا عن الله قضاءه** خيراً أم شراً، بلاءً أم رخاءً، وليفعل ما يفعل أهل الباطل بدولتي وخلافتي والذين يبدون عند عامة الناس أنهم أقوياء، ولا أخشى في الله لومة لائم طالما **وسلمتُ لله أمرهُ** يفعل بنا ما يشاء ولا يشاء غيره.

ولأن الإمام علي خليفة الله الشرعي على المسلمين من قبل الله ورسوله وامتداد طبيعي لسيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فهو في مقام إحقاق الحق للضعيف وإبطال الباطل للقوي، فهما عنده سواء من جهة القوة والضعف الذي بهما يفرق المجتمع بنظرته لأحدهما دون الآخر، ولكن بنظره هما سواء أمام الحق، ففي ذلك نجد الإمام علي يستنكر أن تكون نظرته لهما كنظرة المجتمع لهما فتكون نظرته لهما مغايرة لنظرة رسول الله لهما، حاشاه.. **أتراني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** وأنا خليفته الشرعي، كيف أفعل ذلك وفي الأمس **والله لأنا أول من صدَّقه، فلا أكون** اليوم **أول من كذب عليه** هذا بالنسبة لي، ولكن للأسف بالنسبة للناس فالحقوق ضاعت واختلط الحق بالباطل **فنظرتُ في أمري** وأمر الناس، وتعجبت من أمر الناس **فإذا طاعتي قد سبقت** قديما على **بيعتي** ولكن يؤسف على حال الناس لما ننظر لمقاييسهم المقلوبة **وإذا الميثاق** الشريف الذي كنت أحمله **في عنقي** قد أصبح بعد الفوضى **لغيري** حيث يسيطر القوي المبطل على الضعيف صاحب الحق.

مزالق الشبهات الفكرية

((وإنما سُمّيت الشُبهة شُبهةً، لأنها تُشبهُ الحق، فأما أولياء الله: فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداءُ الله: فدعاؤهم فيها الضلال، ودليلهم العمى، فما ينجو من الموت من خافه، ولا يُعطى البقاءَ من أحبَّهُ)).

يستعرض إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام حقيقة الشبهة وماهية الشبهات بأبسط العبارات وأدق المعاني، تلك الشبهات بمواضعها التي تعتبر منزلق خطير لكثير من الناس باستثناء الواعين منهم، ويفرق الإمام بين موقف أولياء الله المؤمنين منها وبين أعداء الله الذين يطربون لسماع الشبهات وريادة مسالكها ومراميها المهلكة، ولو أردنا أن نعرف موقع الشبهات من المعرفة فلا بد أن ندرك بأن هناك ثلاثة حدود: اليقين بالحقيقة، والعلم بالكذب، وأما الحد الثالث فهو الحد الذي يقع بين الحقيقة والباطل، وبين الواقع والخيال، وبين الصدق والكذب، وبين النور والضلال، وأخيرا بين الأبيض والأسود كما يعبر عنه الأدباء، هذه البينية هي مربض الشبهات ومرتع الفتن وملجأ المتشابهات ومحل الشكوك و منحدر التشكيك.

وفي واقعنا الإسلامي العام نجد الكثير ممن يتلبسون بلباس المدنية الحديثة وممن يدعون التحقيق العلمي ومنهم دعاة الانفتاح والحداثة والتجديد لا يتورعون بين الفينة والأخرى في إثارة الشكوك ونثر غباره على عقول البسطاء من أبناء أمتنا الإسلامية رغبة منهم في تجريدهم من الأصول والقواعد الدينية الثابتة في العقيدة، أو لا أقل زلزلة المفاهيم الإسلامية في أذهانهم كمقدمة للتشكيك فيها ومن ثم رفضها فكريا واجتماعيا شيئا فشيئا، وخلق حالة من التعتيم على الفكر الناصع أو التغييم عليه بدعوى عدم التثبت وبحجة إثارة العلم من مكامنه، ودعاوى تحقيق نهضة فكرية حديثة، وقد غاب عنهم بأن الحداثة النهضوية للثقافة الإنسانية والبناء الحضاري للأفكار والقيم الحيوية تكمن في تثبيت أصولها وجذورها وتجذير عروقها أولاً ومن ثمَّ تجديد فروعها وتورقة أغصانها وتنضيج ثمارها، وليس هدم منابعها الحيوية الخلاقة بالتشكيك والإثارة والفتن، وكما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا: علينا الأصول وعليكم التفريع، لذا فعلينا تثبيت أصول قيم العقيدة وأحكامها الشرعية أولاً، ومن ثمَّ بعث التجديد والحيوية في فروعها بما يواكب التطور الحضاري المنشود.

ولو قمنا بالتحقيق في خطوات المشككين واقتفاء آثار شبهاتهم لوجدنا أن تشكيكاتهم وشبهاتهم تمس الأصول الدينية وقواعدها الاعتقادية وتدع الكثير من التفريعات والهوامش، ولو قمنا بمسح تحقيقي عن تلكم الأفكار لوجدناها تمس في نهاية المطاف بأصول التوحيد ومعاني القرآن الثابتة والنبوة والإمامة والعترة النبوية والبعث والعدل الإلهي وهي بمجموعها تشكل عمدة أصول الدين والمعتقد، ويمكن لنا معرفة أهداف المشككين وماهية شبهاتهم من خلال خطبة الإمام علي عليه السلام الذي افتضح ألاعيبهم وعرى حقيقة وواقع شبهاتهم بقوله **وإنما سُمِيت الشُّبهة شبهة: لأنها تشبه الحق** الذي يريد المشككون هدمه، ولأن عملية إثارة الشبهات قديمة منذ تاريخ الصدر الأول للإسلام وحتى يومنا هذا فلا بد لنا لتجاوزها أن نستن بسنة الأولياء فيها **فأما أولياءُ الله: فضياؤهم فيها** في الشبهات **اليقين** وليس الظن، واليقين الذي يعتمد عادة على العلم أو البينة الشرعية والأدلة القطعية، ولذلك نجد أن علماء الدين العدول

والمتدينون الثقات عندما يعتمدون على ضياء يقينهم العلمي ذلك لأن **ودليلهم** في إبطال حجج المشككين **سمتُ الهدى** وهي الطريق القويم لبلوغ أصول المعتقدات وتثبيت هداها، إذ أن سمت الهدى طريقه الصائب والمستقيم.

وفي المقابل **وأما أعداء الله** المتلبسون بلباس العلماء وجلباب الإيمان **فدعاؤهم** وأدلتهم وغايتهم **فيها** في إثارة الشبهات هي واقع **الضلال** وغواية البسطاء من أبناء أمتنا الإسلامية، وهم بإثارتهم للشبهات الفكرية كما يدعون ليس لديهم إلا الظن يعتمدون عليه: ﴿**مالهم به من علم إلا اتباع الظن**﴾ النساء/الآية ١٥٧. ولذلك نجد أن حججهم ضعيفة وواهية كونها **ودليلهم** في الشبهات **العمى** والضلال عن حقائق الأمور، من هنا يمكن لنا استيعاب دلالة آيات الله الكريمة في القرآن الكريم عن حقيقة المتبعين للشبهات ومراميهم، حيث يقول الله عز من قائل عنهم: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنَّ أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾ آل عمران/الآية ٧.

وفي ختام الخطبة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام يضرب المثل بالموت بأنه علم لأن الموت حق ويقين وعلينا أن لا نهاب التعلم ولا نخاف المعرفة كما لا يخاف المؤمن من الموت لأن بالعلم نخرج من الشبهات سالمين **فما ينجو من** حقيقة وواقع **الموت من خافه** كذلك لا ينجو من مهالك الشبهات من هرب من التعليم وخاف المعرفة، كما أنه **ولا يُعطى البقاء من أحبه** كذلك لن تعشعش الشبهات طويلا في المجتمعات الدينية والعلمية من أحب الوقوع في أحضانها أو إيقاع الناس في شباكها ﴿**وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**﴾ العنكبوت/الآية ٤٠.. صدق الله العلي العظيم.

المبطلون المتلونون بالحق

((كلمة حق يراد بها الباطل، نعم.. إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله !! وإنه لابد للناس من أمير، برٍ أو فاجرٍ، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح برٌ، ويستراح من فاجرٍ، حكم الله أنتظر فيكم، أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقي، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته)).

المبطلون المتلونون بالحق كثيرون هذه الأيام، وهم امتداد للمبطلين السابقين والمعاصرين أيام خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وهؤلاء متدينون في الظاهر والشكل، ولكنهم مصلحيون في الواقع، وتختلف مواقفهم باختلاف مصالحهم فيها، وهم على عدة أقسام، أولّهم: ما في سورة الحج **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾** الآية/١١، وثانيهم: **﴿وإن منكم**

لمَن ليُبَطِئن، فإنْ أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولنّ، كأنْ لم تكن بينكم وبينه مودة: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴿النساء/الآيات ٧٢ - ٧٣﴾، وثالثهم: من يقوم بعملية التلبيس الديني والتدليس الفكري وممارسة تزييف الحقائق، كما في قوله تعالى﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**﴾ ﴿البقرة/٤٢﴾.

وهناك أصناف كثيرة ومتعددة بارعة في فن التزييف واللعب بالعبارات والتمويه بالكلمات، ولكنهم جميعا لا يستطيعون أن يمرروا حيلهم وألاعيبهم أمام أمير المتكلمين الذي سرعان ما كشف نواياهم الحقيقية بقولته الشهيرة والتي ابتدأ بها خطبته **كلمة حقٍ يراد بها باطل** وهي العبارة المشهورة التي أطلقها الإمام علي عليه السلام في حق المُدلِسين والتي لازالت تطلق إلى يومنا الحاضر على من يستخدم الألفاظ الدينية ومصطلحاتها الشرعية لغير أهدافها النبيلة والمرجوّة، كما استخدمها الخوارج في عهد الإمام علي عليه السلام لما أراد أن يستنهِضَهُم فلم ينهضوا معه تحت مبررهم المشهور: لا حكم إلا لله. وبالرغم من أن الإمام علي عليه السلام يدرك مفهوم ذلك بقوله **نعم.. إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء** المبطلون والمتلونون بالحق بدعوتهم هذه **يقولون** ويريدون بالواقع التملص من مسئولية طاعة القيادة والتهرب من تحمل أية مسئولية، فهم برفعهم شعار: لا حكم إلا لله، والذي لا يختلف عليه أحد، يهدفون من وراء ذلك التملص من طاعة القيادة الرشيدة برفع شعار جميل.. لا حكم إلا لله، وصولاً إلى حقيقة **لا إمرةَ إلا لله** أي لا قيادة إلا لله فقط، ومعنى ذلك التملص من التزام طاعة ولي الأمر المتمثلة في حينها بشخص الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام باعتباره الخليفة الشرعي والرسمي من الله ومن بيعة الناس له، وهؤلاء المبطلون بلباس الإيمان والدين يجيدون أروع فنون التدليس، تلك العملية التي عرى حقيقتها الإمام علي عليه السلام بقوله: كلمة حق يراد بها باطل، ومن قبل قد كشفها القرآن الكريم بقوله تعالى: **وليَلبِسُوا عليهم دينَهُم** ﴿الأنعام/الآية ١٣٧﴾.

ولأن الخـوارج كـانوا يقـصـدون من جـملة: لا إمـرة إلا لله، تفـريغ الأمـة من القيادة، نجد أن الإمام علي عليه السلام بدأ يناقشهم في هذه المفردة الخاطئة من خلال منطق العقل منبّهاً بأنه لابد لكل أمة كائنة ما كانت لابد لها من قائد أو أمير لينظم لهم أمور البلاد، وبغير ذلك ستتحول الأمة إلى مجتمع الغاب الذي يأكل الكبير فيه الصغير وينعدم فيه القانون، فمَنْعاً من أن تدب في الأمة الفوضى أشار عليه السلام **وإنه لابد للناس من أمير.. برّ أو فاجر** وتختلف الحيثية حينئذ بحيث **يعمل في إمرته** في حكومة الأمير البار **المؤمن** لدنياه وآخرته بإخلاص، **ويستمتِع فيها الكافر** حيث يستمتع الكافر في حكومة المؤمن أيضاً الذي لا تهمه إلا دنياه الفانية، ولكن في الجميع بدون استثناء **ويُبلّغ الله فيها** في الحكومتين **الأجل** والنهاية الأخروية المحتومة، وحينئذ يكون الفوز للمؤمنين فقط، وللكافرين النار، وعلى كل حال، فسواء كان أمير الأمة بارا أو كان فاجرا فهو في كلتا الحالتين أفضل من وجود أمة بلا أمير مطلقا، والسبب في ذلك يرجع لأهمية سيادة القانون المدني للدولة الذي لا يمكن له التحقق من دون أمير يحرص على ضبط مؤسسات المجتمع وأفراده بغض النظر عن فجوره أو برّه.

من هنا يتوسع الإمام علي عليه السلام بخطبته في شرح المهام والوظائف الطبيعية لكل حاكم برٍ كان أم فاجرٍ، ولابد أن ندرك بأن الحاكم البر عادل بالضرورة ولكن الحاكم الفاجر ليس من الضرورة أن يكون ظالماً !! قد يكون مرتكبا للمعاصي بينه وبين الله لفجوره ولكنه ليس بالضرورة أن يكون كذلك بينه وما بين شعبه، لذلك فحتى الحاكم الفاجر الذي يحرص على ديمومة ملكه وسيادة قانون الدولة نجده من هذه الزاوية يلتقي مع الحاكم البار، والفرق بينهما هو أن الحاكم البار تسود في ملته سلطة القانون بجانب العدالة المكتملة، بينما في الحاكم الفاجر قد لا تنتشر في ظل حكومته عدالة ولكن هذا لا يعني انتشار نقيضه وهو الظلم بالضرورة ولكن حتما سيسود في حكمه القانون الذي يتحاكم إليه جميع الناس.

ومن هنا يمكن لنا استيعاب مقولة الإمام علي عليه السلام في حديث له:"

الملك يدوم مع الكفر، ولا يدوم مع الظلم " وهذا واضح.. ذلك لأن كفر الملك أمر مرتبط بينه وبين ربه، ولا منافاة بينه وبين رغبته تحقيق مصلحة شعبه في ظل حكمه بالمعروف والحسنى، بينما الحاكم الظالم إنما سمي بالظالم لوقوع ظلمه الخصوص على من هم سواه، ولا يوجد غير الشعب سواه في مملكته، من هنا يشرح الإمام علي عليه السلام وظائف الدولة المشتركة سواء في حال حكم البار أم حكم الفاجر **وَيُجمَعُ به الفَيْء** اقتصاد البلد وتنمية موارده الطبيعية والتجارية **ويُقاتَل به العدوُّ** بتكوين القوة العسكرية للمحافظة على حدود الدولة الخارجية **وتأمن به السبل** وتكوين جهاز الشرطة لحماية حقوق المواطنين داخليا للتعايش السلمي **ويُؤخَذُ به للضعيف من** المغتصب **القوي** لحقوقه من خلال سيادة القوانين الجزائية وإنشاء المحاكم وتقوية السلطة القضائية، والنتيجة الطبيعية لحكومة كِلا الصنفين من خلال وجود المهام الحكومية الطبيعية المشتركة فيما بينهما، يكون الشعب بصنفيه المؤمن منهم والفاسق في أمان بحيث **حتى يستريح برٌ** من احتمالات طغيان بعض المواطنين عليه، ويقوم بشعائره العبادية الدينية وفقاً للقانون، أما بالنسبة للفاسقين منهم **ويُستراح من** ظلم وتعدي مواطن **فاجرٍ** إذا ما سولت له نفسه ظلم بقية المواطنين لوجود حاكمية القانون ونظام دولة.

ولكن أنتم أيها المبطلون المدلسون للحقائق **حكم الله أنتظر فيكم** فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم يرجع الإمام عليه السلام لما استعرضه سابقا من ضرورة وجود أمير صالح أم طالح لأي شعب وذلك لمزيد من التوضيح للحقائق، خصوصاً أن خطابه هذا موجه للفئات التي تقوم بعملية التضليل والتدليس للحقائق، فمنعا للتشويش من جهة ومن جهة أخرى منعاً للآخرين من تحوير مقصوده وتأويله من قبل الغير أردف الإمام عليه السلام قائلا: **أما الإمرة البَرَّة فيعمل فيها التقي** بكل إخلاص وسرور **وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقيّ** لما يجد من السعادة الآنية فيها، والتي سرعان ما ستنتهي **إلى أن تنقطعَ مدّته وتُدركه مَنِيَّتُهُ** فلا يسود بعد ذلك فيها إلا المؤمنون.

وفي هذه الخطبة بالذات يمكن التدبر برؤى ومفاهيم أخرى تحكم العلاقة السياسية بين الحاكم والمحكوم إذ يمكن الحديث عنها مفصلاً ، ونحيلها لبحوث أخرى أكثر تفصيلا في المستقبل إن شاء الله تعالى .

الحيلة.. في ترك الحيلة

((إنّ الوفاء توأم الصدق، ولا أعلَمُ جُنَّةً أَوقى منه، ولا يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتَّخذ أكثرُ أهله الغدر كَيْساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، مالهم قاتلهم الله، قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجه الحيلة ودونه مانعٌ من أمر الله ونَهْيِهِ، فيدَعُها رأيَ عينٍ بعد القدرة عليها، وينتهزُ فرصتها من لا حريجة له في الدِين)).

التوأم ولدان قد يختلفان من حيث الخلقة البشرية بين ذكر وأنثى أو من حيث الشخصية المستقلة لكل واحد منهما في السلوك ونمط التفكير والمواهب وما شابه، وبرغم الإختلاف بينهما الذي قد يصل في بعض الأحيان إلى كل شيء، ولكن يجمعهما رحم واحد.. لا اثنين، كذلك يصف الإمام أمير البلاغة علي بن أبي طالب عليه السلام في بداية خطبته بأن الوفاء والصدق توأمان في رحم الإيمان **إنّ الوفاء توأم الصّدق** هذا في بادىء النظر لمن يرى أن الوفاء والصدق صفتان مختلفتان ، فيراهما وكأنهما شيئان مختلفان وكلٌّ ما في الأمر أنهما يلتقيان في رحم واحد ألا وهو رحم الإيمان ويجتمعان فيه ، والحقيقة .. أنه

بالرغم من أن صفة الوفاء تختلف عن صفة الصدق ظاهراً إلا أن الحقيقة تكمن في أن الوفاء والصدق شيء واحد لا إثنان ، إذ أن نقيض الوفاء هو الغدر الذي لا يعتمد إلا على الكذب منطقاً ومنهاجاً ، وهو مخالف للصدق تماماً ، ومن جهة أخرى فإن الصدق في الشيء ما هو إلا عنوان الوفاء للحقيقة أيا كانت النتائج ، ولذلك فهما في الواقع توأمان . ونجد التوأمية هذه واضحة في قول الباري تعالى: **﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفسا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلك وصاكم به لعلكم تذكّرون﴾** الانعام/الآية ١٥٢. فالوفاء بالكيل والميزان ما هو الا إنعكاس لصورة الصدق والعدل عن قول البائع للمشتري في صحة مقدار المكيل والموزون ، فإذا قال الإنسان شيئا يجب عليه أن يعدل في قوله ولا يكذب حتى في حق رحمه وقرابته، فإن الصدق يجب أن يتخلل الوفاء بداية ونهاية كما هي دلالة الآية الشريفة: **﴿بلى.. من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾** آل عمران/الآية ٧٦، وهل يعني ذلك بأن الغدر توأم الكذب ؟!! بلا شك.. لأنهما توأمان من رحم النفاق **﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾** آل عمران/الآية ٧٥، وهؤلاء المنافقون إنما يغدرون ظناً منهم بأن غدرهم بالآخرين منجاةً لهم، في حين **ولا أعلمُ جُنةً** نجاةً ووقايةً **أوقى منه** لأنه توأم الصدق، والصدق ما دخل في شيء إلا وكان فيه النجاة والغلبة.

وفي سورة الإنسان التي نزلت في شأن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام باتفاق أغلب المفسرين في قوله تعالى **﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا﴾** الآية ٧، فكيف للإنسان الذي يخاف من يوم القيامة وشرها المستطير أن يغدر بالناس ؟!! من هنا نعرف بأن الحقيقة **ولا يَغْدِرُ من علم كيف المرجع** في الآخرة وأهوالها وما يلحق بالغدارين والخائنين، ولكن وللأسف الشديد مع غياب العقل البشري هذه الأيام عن تذكر القيامة وتهافتهم على الدنيا الفانية وحطامها، نجد أننا اليوم كالأمس **ولقد أصبحنا في زمانٍ قد اتخذ أكثر أهله الغدرَ** بالناس ذكاءً وشطارةً و**كَيْساً** وعنوانا

للبطولة الزائفة بقدرتهم في الضحك على عقول الناس وخداعهم واستغلال عواطفهم، ويتفاخر كل فاجر منهم وظالم أمام حثالته وأقرانه بأنه بارع في استدراج البسطاء من الناس إلى شراك حيله وفنونه، كما يفعل كثير من السحرة اليوم ذلك ومن المشعوذين **ونَسَبَهُم أهل الجهل فيه** في الغدر بالناس **إلى حسن الحيلة** والذكاء الخارق وخفة اليد **مالَهُم** لا يتذكرون نار الآخرة **قاتلهم الله** والله خير الماكرين لأهل المكر وأهل الحيلة منهم.

أما المؤمنون **قد يرى الحُوَّلُ** الذي له الحول ولا تنقصه القوة و **القُلَّبُ** منهم الذين يعرفون كيف يقلبوا الأفكار ويدورونها في عقولهم النيرة وقلوبهم الواعية، يرى البعض منهم **وجه الحيلة** والطريق إليها بكل سهولة ولكنه يتوقف ويمتنع **ودونه مانع من أمر الله** عليه بلزوم الوفاء **ونَهْيِهِ** المانع له عن الغدر والخيانة، أما من لا يأتمر بأوامر الله عز وجل ولا ينزجر عن نواهيه ولا يردعه رادع ولا يخاف الله والآخرة أمثال الكفرة واليهود والصهاينة والحكام الفسقة والتجار الفجار وعلماء البلاط والنواب المنافقون البارعون في التمثيل والنساء الفاجرات منهن وأصحاب الكروش المنتفخة وغيرهم من أشباه الرجال فهؤلاء كلهم وغيرهم كثيرون ممن **وينتهِز فرصتها** فرصة الحيلة ومكائدها **من لا حريجة له في الدّين** ومن ليس له علاقة بالدين إلا من حيث المظهر والشكل الخارجي، حيث لا تشكل لهم الخيانة والغدر والحيلة بالناس أي إحراج لهم لا في دينهم ولا في دنياهم، طالما لا يهمهم في الدنيا شيء إلا إشباع غرائزهم فيها وتحقيق ملذاتهم بأية وسيلة متاحة ، من هذا المنطلق تجدهم لا يتورعون عن الغدر بالناس واستلاب حقوقهم بكل وسيلة وحيلة ، ولكن فات هؤلاء أن أفضل الحيلة ترك الحيلة والتخلص من شراكها التي عادة لا توقع في النهاية إلا بأصحابها ﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ فاطر -٤٣ .

منهج الإمام علي الديمقراطي والمعارضة

((فأنا لكم نذير.. أن تُصبحوا صَرْعى.. بأكناف هذا النهر وبأهضام هذا الغائِط، على غير بيّنة من ربكم، ولا سلطانٍ مبينٍ معكم، قد طوحت بكم الدار، واحتبلكم المقدار، وقد كنتُ نَهَيْتُكُم عن هذه الحكومة، فأبَيْتُم عليّ إباءَ المخالفين المنابذين، حتى صرفْتُ رأيي إلى هواكم، وأنتم معاشرُ أخفاءُ الهام، سفهاءُ الأحلام، ولم آت - لا أبا لكم - بُجراً، ولا أردتُ لكم ضُرّاً)).

ما لم تستخدم المعارضة لغة السلاح أمكن التعاطي معها بلغة العقل والحوار، ذلك.. لأن الله عز وجل قال بالنسبة للمعتدين بمنطق القوة والسلاح ﴿**فإن اعتزلوكم، فلم يقاتلوكم، وألقوا إليكم السلم، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم، ويأمنوا قومهم، كلّ ما رُدّوا إلى الفتنة أركسوا فيها، فإن لم يعتزلوكم، ويلقوا إليكم السلم، ويكفوا أيديهم، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً**﴾ النساء/الآية ٩٠ - ٩١. فبمجرد أن تكون المعارضة مدججة بالسلاح أمكن

مباغتتهم بالهجوم، وإلى ذلك أشار الإمام علي عليه السلام في خطبة أخرى له (اغزوهم قبل أن يغزوكم.. فوالله ما غُزي قوم قط في عُقْرِ دارهم إلا ذلّوا). فمن الغباء أن ننظر للعدو وهو يحمل السلاح ويعتلي المدرعات المسلحة وينصب الصواريخ وأسلحة الدمار الشامل باتجاهنا ونحن نترقب منه حواراً ديمقراطياً !! فالمعارضة مهما كانت لاذعة في انتقاداتها، وشرسة في خطاباتها، وعنيفة في بياناتها، فإن لها الحق في أن تعبر عن أفكارها بما تشاء وكيف تشاء ما دامت لا تخرج عن لغة الحوار والمنطق.

من هنا جاءت خطبة أمير الديمقراطية وزعيم الشورى ورائد الحوار وقائد المنطق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لتثبيت هذا المفهوم وتجذيره في الأمة برغم شراسة معارضيه وحماقتهم وسذاجتهم والذين عرفوا في التاريخ بالخوارج. فكانت هذه الخطبة قبل واقعة القتال حيث لم يبق بينه وبين معارضيه بعد الحوار إلا لغة القتال التي أجبرت الإمام علي عليه السلام الخوض فيها بعدما حملوا في وجهه السلاح وابتدأوه بالقتال في معركة تاريخية تسمى بالنهروان نسبة لوقوع القتال عند مفترق أنهر بالقرب من مدينة الكوفة عاصمة خلافته الراشدة، وكان عدد الخوارج يزيد قليلاً عن أربعة آلاف مقاتل يقودهم أميرهم عبد الله بن الكوا، وكان اجتماعهم في منطقة تسمى بـ - حروراء - فسماهم الإمام عليه السلام بالحرورية، فناظرهم بها وحاورهم بالعقل والمنطق، فرجع منهم عن القتال ألفان حيث استبصروا، وقاتل الإمام عليه السلام المصرين منهم على القتال فهزمهم وقتلهم جميعاً إلا عدة قليلة منهم لاذوا بالفرار، وهؤلاء يرجع أصلهم إلى رجل من بني تميم يقال له - ذو الخويصرة - وله مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصة تكشف عن صلافتهم في التعامل وغلظتهم في الحديث مع رسول الإنسانية.

فذات يوم وبعد إحدى المعارك مع المشركين أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توزيع الغنائم على المسلمين، فقام إليه ذو الخويصرة فقال: اعدل يا محمد، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: قد عدلتُ، فقال له ثانية: اعدل يا محمد، فإنك لم تعدل، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ويلك.. من يعدل إذا لم أعدل؟!! فقام

عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله، ائذن ليَ في ضرب عنقه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: دَعْهُ.. فسيخرج من ضيضئ هذا قوم يَمْرُقون من الدين !! كما يمرق السهم من الرمية، يخرجون على خير فرقة من الناس .

وظاهرة الخوارج في عصرنا هذه قد تتكرر بتكرر الأحداث المتشابهة خصوصاً السياسية منها، ولو تفحصنا الأحداث المعاصرة جيدا وخصوصا الأحداث الإرهابية منها والدموية ضد الأبرياء التي تحدث بين الفينة والأخرى هذه الأيام باسم الإسلام، لوجدناهم اليوم يقفون وراء تلكم الأحداث كما كانوا بالأمس البعيد كالخوارج، ولو تأملنا قليلاً الظروف التاريخية التي أفرزت هذه الفئة، لرأينا أن مثل هذه الظروف السياسية تتكرر في أيامنا هذه مما يمكن لهم أن يخرجوا ثانية على الأمة من جديد، وقد حصل لهم ذلك !! أمام الباحث المتأمل طبعاً !!.

إنهم فئة آمنت بالله عز وجل، صلت بصلاتنا وصامت بصيامنا وتلت قرآننا الكريم والقرآن لا يتجاوز تراقيهم، كما عبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قصة ذي الخويصرة لما أشار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لمستقبلهم السياسي، والذين خرجوا من صلب هذا الرجل لقتال باب مدينة علم رسول الله الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذه الفئة كانت مع الإمام علي عليه السلام يقاتلون في معركة صفين بجانب إمامهم وأميرهم العادل عليه السلام، وقد خرجوا عليه من رحم أحداث التحكيم الذي جرى بينه وبين معاوية بن أبي سفيان.

وفي الوقت الذي رفض الإمام علي عليه السلام قبول التحكيم من حيث المبدأ والشكل، أصرَّت هذه الجماعة التي معه على قبول التحكيم فتنازل الإمام علي عليه السلام عن رأيه نزولاً عند مبدأ الشورى، وقبل برأي الأغلبية من أصحابه، ولما جاءت نتيجة التحكيم لغير صالح إمامهم الديمقراطي العادل، سرعان ما رفضوا التحكيم جملةً وتفصيلاً، وألزموا الإمام علي عليه السلام على رفضه، ولم يقبل منهم ذلك، وقال لهم: ويحكم.. أبعد العهد نرجع ؟!! فما نصنع بقوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ النحل/آية ٩١، وأخذ الأشعث بن قيس كتاب

التحكيم فطاف به على أصحاب معاوية بن أبي سفيان فرضوا به، ثم طاف به على أصحاب الإمام علي عليه السلام فرضوا به أيضاً، حتى مرَّ الأشعث برايات قبيلة عنزة وكانوا من جند الإمام علي بصفين، فلما قرأ الكتاب عليهم قال فتيان منهم: لا حكم إلا لله، وإذا بالناس من أصحابه الذين قبلوا التحكيم ورضوا بكتاب الأشعث بن قيس يتنادون بنداء: لا حكم إلا لله، الحكم لله يا علي لا لك !! وقال بعضهم: وقد كنا قد أخطأنا حين رضينا بالحكمين، فرجعنا إلى الله وتبنا، فارجع أنت يا علي وتب إلى الله كما تبنا، وإلا.. بَرِئْنا منك وممن معك !! فخرجوا عليه مارقين و مقاتلين.

ولكن الإمام علي عليه السلام حاورهم ديمقراطيا قائلاً لهم: **فأنا لكم نذير** برغم كوني عليكم أمير، وأخشى **أن تصبحوا** برفضكم الحوار الديمقراطي **صرعى** وقتلى بإصراركم على القتال **بأكناف** وأطراف **هذا النهر** بالنهروان **وبأهضام** وبمكان **هذا الغائِط** وهو ما سفل من الأرض وانخفض، والحال أنكم أيها الخوارج تكونون بخروجكم هذا **على غير بيّنةٍ من ربكم** أولاً، وثانيا **ولا سلطان** ودليل واضح **مبينٍ معكم** وكأنني أراكم بقتالكم ضدي **قد طَوَّحَتْ** وتاهت **بكم الدار** والمقصد، فالحرب يمكن التحكم ببدايتها، ولكن لا يمكن لكم ضمان نهايتها لصالحكم، ولهذا فكأنني أراكم **واحْتَبَلَكم** وأوقعكم **المقدار** والقدر المحتم عليكم بحبائل الموت، كما تقع الفريسة بحبالة الصيد وشراكه، وهل تتذكرون بأنني **وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة** والتحكيم سابقاً **فأبَيْتُم عليّ إباء المخالفين المنُابذين** ولكنني أمام حجية قرار الأغلبية عليَّ في نظام الشورى في منهجي معكم، والذي به غلبتموني به بالتصويت على التحكيم، فأنا أحترم الشورى وإن خالفت رأيي الشخصي **حتى صرفت رأيي** أمام شورى التصويت بالأغلبية **إلى هواكم** وقراركم المنسجم مع هوى آرائكم، برغم مخالفتي الواضحة والصريحة لمبدأ التحكيم قبل المصالحة، بالرغم من كوني أميراً وقائداً عليكم، وأنا أنظر بنور الله وعينه التي لا تنام، ألم يقل لكم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنني باب مدينة علمه ؟ ولكن ديمقراطيتي تأبى أن أستفرد برأيي الخاص عليكم في ظل

نظام الشورى في دولتي، برغم كوني الحاكم المطلق عليكم، ولكنكم لأنكم وغيركم قد انتخبتموني خليفةً عليكم بالشورى، فأنا اليوم ألزم نفسي بها كما ألزمتم بها أنفسكم بانتخابكم لي عليكم أميراً، وبحكم منهجي الديمقراطي أرفض أن أتجاوز تصويتكم بالأغلبية لصالح التحكيم، وأرفض أن أجبركم بالتالي على قبول رأيي الشخصي بحكم ولايتي عليكم، إعمالاً بمنهج الشورى ومبدأ الديمقراطية، وبالرغم من علمي وتوقعاتي السياسية بنتيجة التحكيم سلفاً والتي ستنقلب ضدي وضدكم أيضاً، أراكم **وأنتم معاشر** الخوارج **أخِفاء الهام** وأخِفّاء العقول، بحيث يستطيع الأعداء وبكل سهولة الضحك على عقولكم، ليس هذا فحسب.. بل أراكم **سُفهاء** وتسبحون في بحر **الأحلام** والأمنيات الخيالية سياسياً، وتحسبون أنه بألاعيب التحكيم السياسية ستنتصرون لإمامكم، حيث **ولم آتِ، لا أبالكم..** ولا عقل لكم، لم آتِ لكم **بُجراً** وشراً **ولا أردتُ لكم** بالتنازل عن رأيي الشخصي برفض التحكيم **ضراً** لأنني ملتزم بالشورى مبدأً ومنهاجاً، فلماذا تريدون الانتقام مني شخصياً وأنتم السبب ؟ أهكذا تتعاملون مع أميركم الديمقراطي ؟!!!.

نعم.. هكذا طبع الجهال في الأمة دوماً، أنهم يصرّون على الديمقراطية، فإنهم إذا رأوا نتائج الشورى سلبية وضدهم، سرعان ما ألقوا باللائمة على العاقل الذي كان يخالفهم الرأي.

تعالوا معنا لنكون من أبناء الآخرة

((أيها الناس.. إن أخوفَ ما أخافُ عليكمٍ اثنتان: اتّباع الهوى، وطولُ الأمل، فأما اتباع الهوى: فيصدٌ عن الحق، وأما طول الأَمَل: فَيُنْسي الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ولّت حذاءَ، فلم يبقَ منها ألا صُبابةٌ كصُبابة الإِناء، إصطَبَّها صابُها، ألا وإن الآخِرَة قد أقبلت، ولكلّ منهما بَنونَ، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل ولدٍ سيُلحقُ بأمّه يوم القيامة، وإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل)).

عندما ينعدم العقل في ممارسة التفكير البشري سرعان ما ينحط البشر نحو المنحدر الحيواني، ذلك المنحدر الذي يكون فيه الإنسان تابعاً لا متبوعاً، ومقوداً لا قائداً، ومسوقاً لا سائقاً، وحينما يكون الإنسان تابعا.. ومقوداً.. ومسوقاً.. للشهوات والملذات يكون حينئذ أقرب للحالة الحيوانية منه للحالة البشرية: **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا﴾** الفرقان/الآية ٤٣-٤٤ والمشكلة في الإنسان لا تكمن في كونه تابعا.. ومقودا.. ومسوقا..

فلربما كـان كـذلك بالنسبة لإتباع العقل ومقودا نحو الخيرات ومسوقا للعلم والمعرفة، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في الغاية التي تجعله تابعا.. ومقودا.. ومسوقا.. والخشية أن تكون الغاية من ذلك هي الشهوات والأهواء، من هنا نجد إمام الحق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يحذرنا الإتباع والانقياد والسواقة نحو الملذات، وقد جاء تحذيره لنا ولغيرنا ولكافة الناس **أيها الناس**.. وكل العقلاء يقولوا سمعا وطاعة.. يا تابع الله.. وقائد الحق.. وسائق المؤمنين.. **إن أخوف ما أخاف عليكم** يا أيها العقلاء **اثنتان** !! ما هي يا سيد العقلاء ؟ وكأني بالإمام عليه السلام يجيبنا: الأولى **اتباع الهوى** كالبهائم والأنعام، إذ وما غياب العقل في مرحلة التفكير البشري إلا بسبب اتباع الشهوات وطغيان الهوى على القوى العقلية، ونتيجة ذلك كله هو عدم استجابة الجوارح الإنسانية لنداء العقل والجوانح الروحية، فيضطر البدن البشري أن يتلطخ بالطبع الحيواني تحت تأثير الهوى وفي غياب واضح عن عملية الإصلاح العقلي والإيماني للنفس **﴿فإن لم يستجيبوا لك.. فاعلم: أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** القصص/الآية ٥٠.

فإذا كان أخوف ما يخافه الإمام علي عليه السلام علينا أولاً هو اتباع الهوى فإن المخافة الثانية التي يخافها علينا هي: **وطول الأمل** في البقاء بالدنيا والاعتماد عليها، فعلى الإنسان أن يسارع في استزراع الدنيا بالأعمال الصالحة والتوبة وجني حصادها وثمارها في الآخرة، فإن مرض طول الأمل قد يصاب به كل إنسان في لحظة غفلة العقل وغلبة الهوى، لذا فإننا نجد الكثيرين ممن يؤجلون الصلاة والحج والزكاة والتوبة والاستغفار..الخ، وفي لحظة فجائية يخطفه الموت ويفوته الفوت.

ثم يأت الإمام علي عليه السلام ويسلط الضوء على الآثار السلبية لظاهرتي اتباع الهوى وطول الأمل **فأما اتباع الهوى: فيصدُ عن الحق** عادةً، كما يحذرنا القرآن الكريم من ذلك في قول الباري عز من قائل في سورة ص: **﴿ولا تتبع الهوى فيُضلكَ عن سبيلِ الله﴾** الآية ٢٦، أما الأثر السلبي لطول الأمل **وأما طول الأمل: فيُنسي الآخرة** حيث ينشغل الإنسان بالأمنيات الدنيوية التي

لا تنتهي حتى لحظة اقتراب أجله المحتوم، وحينئذ يندم، ولات حين مندم بعد انقضاء الأجل ﴿**وإذا قيل: إن وعد الله حق، والساعة لا ريب فيها، قلتم: ما ندري ما الساعة، إن نظن إلا ظناً، وما نحن بمستيقنين، وبدا لهم سيئات ما عملوا، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وقيل: اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا، ومأواكم النار، وما لكم من ناصرين**﴾ الأحقاف/الآية ٣٢ - ٣٤.

فينبغي أن نطهر ألسنتنا من كلمة: أنا مشغول، الدارجة في حياتنا بمجرد دعوة الآخرين لنا بالعمل الصالح والاستغفار، وأن لا نتسرع بنطق هذه التبريرات الزائفة وأشباهها، فالموت أسرع !! **ألا وإن الدنيا قد ولت حَذَّاءَ** وأسرعت بالانقضاء ساعةً حذو الأخرى، ولماذا لا ندعي بالمشغولية إذا ما عرضت أمامنا مكاسب دنيوية سريعة وفانية ؟!! لذا علينا أن نحذر منها **فلم يبق** لنا من العمر في الدنيا **منها إلا صُبابةٌ** قليلة باقية من زمن عمرنا الذي انصب أغلب ما في إنائها من سنوات حياتنا هدرا وبلا حساب، ولم يبق من زمن أعمارنا في إناء الدنيا إلا القليل، حيث هدرنا الكثير من أوقاتنا تلفا فلم يبق منها إلا **كصبابة الإناء** التي **اصطبّها صابّها** وهو الإنسان نفسه، ولم يبق من أوقات حياته إلا القليل، فأين سيصب المتبقي من وقته ؟ وماذا بقي منه حتى يهدره كذلك ؟!! ولأنه لم يبق من ساعات عمرنا في إناء الدنيا وجعبتها إلا القليل، فبالنسبة لأوقاتنا الكثيرة التي هدرت بلا استثمار، فإن المتبقي منها القليل لابد أن تذكرنا بالآخرة **ألا وإن الآخرة قد أقبلت** سريعاً حيث لم يبق من عمرنا إلا القليل. فلابد أن نعمل جادين حتى نكون من أبناء الآخرة المخلدين في الجنان، فإن النار محرقة كبيرة لأبناء الدنيا **ولكل منهما** الدنيا والآخرة **بنون** أهل وأولاد **فكونوا من أبناء الآخرة** وأهلها الفائزون **ولا تكونوا من أبناء الدنيا** الخاسرون حتما **فإن كلُ ولدٍ سيُلحق بأمه** الدنيوية الفانية أو الأخروية الباقية **يوم القيامة.**

فاجعلنا اللهم من أبناء الآخرة، واصرف عنا أم الدنيا وأبنائها الضالين، آمين يا رب العالمين، واجعلنا يا رب من العاملين في دنيانا لبناء آخرتنا قبل أن نحاسب على ما فرطنا في أمرنا **وإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.**

مزالق الرجال في الأموال

((قَبَّحَ اللهُ مَصقلةَ .. فعل فعل السادة ، وفرَّ فرار العبيد ، فما أنطق مادحه حتى أسكته ، ولا صدق واصفه حتى بَكّتَهُ ، ولو أقام لأخذنا ميسوره ، وانتظرنا بماله وفوره)) .

المناصب .. النساء .. الأموال .. ثلاثي مزدوج اعتقد غالب الناس بأنه ثلاثي شيطاني فحسب ، ولا يأتي منه إلا الشر المطلق ، ولكن الحقيقة الدينية تخالف الرأي بهذا الاتجاه ، ذلك .. لأن الثلاثي هذا مزدوج ، والمقصود من كونه مزدوجاً أنه قد يأتي منه الشر وقد يأتي منه الخير أيضاً ، فالمنصب .. في المحراب وإمامة الجماعة ، والمنصب فوق المنبر الخطابي ، والمنصب عندما يكون لرئاسة الأحزاب والتنظيمات والمؤسسات الخيرية ، والمنصب عندما يكون لخلافة دولة المسلمين أو لقيادة جيش المجاهدين .. كل هذه مناصب قد تفتح على صاحبها باباً إلى الجنة ، إذا كانت النية خالصة لله تعالى وخدمةً لخلقه وعباده ، وهذا ما لا بد أن يتشجع المؤمنون على التصدي لمسئولياته ، وبغير ذلك .. ينتهز الفاسقون الفراغ القيادي ، فيمتلئ بهم على حساب مصالح الناس ومعتقداتهم ، ولذلك ..

فبعدما أراد الله تبارك وتعالى أن يجعل سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام في منصب الإمامة دعا ربه أن يجعل ذريته في مناصب قيادية رفيعة يستطيعون بواسطتها أن يخدموا الناس ، فاشترط عليه الله بأن ذلك لن يجعله الله للظالمين ، الذين يتخذون المنصب للتأمر على الناس عادة وليس لخدمتهم ﴿ **وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُهُ بكلمات فأتمها ، قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينالُ عهدي الظالمين** ﴾ البقرة / ١٢٤ .

والنساء أيضاً .. فشكل الارتباط بهن والهدف من ذلك إما أن يجعلهن نعمة أو أن يصبحن عليه نقمة ، فسيدتنا أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ما هي إلا خير نعمة لخير نبي ، في حين أن الكثير من الرجال كانت النساء في حياتهم يشكلن المنزلق الأقوى نحو الانحراف والدمار .

والمال .. والذي نحن في صدد تسليط الضوء عليه من خلال خطبة أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه اليوم يشكل المنزلق الأكبر والامتحان الأصعب ليس للرجال فحسب بل لكثير من النساء أيضاً ، فنلاحظ .. أن الكثيرين من المتسابقين نحو السيطرة على المناصب والوجاهة إنما يسعون في الحقيقة لتجميع الثروات لأنفسهم ، وأن الكثيرين ممن تقع في أيديهم الأموال المحرمة إنما يرومون بواسطتها الحصول على متعة النساء والنيل منهن ، بل وإن كثيراً من النساء الساقطات يبحثن عن اللذة المحرمة بهدف جمع المزيد من الأموال بطرق غير مشروعة ، ومن يبحث عن المال فإنه إما يبحث عن جنة أو عن نار ، وليس من المستغرب أن يقدم الله سبحانه وتعالى المال قبل البنين في الحديث عن كونهما زينة للإنسان ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ الكهف / ٤٦ فحب المال أصعب أنواع الاختبار في حياة الإنسان على الاطلاق ، لأن البشر بطبعهم يميلون للمال كشهوة أكثر من ميلهم للأشياء الأخرى لاعتقاد بعضهم أنهم قادرون على الوصول لأي شيء في الدنيا بواسطة المال ، لذا كان حبّ الانسان للمال عظيما ﴿ **وتحبون المال حباً جماً** ﴾ الفجر/ ٢٠ .

فمن هذا المنطلق .. إعتقد مصقلة بن هبيرة الشيباني أنه بالمال يستطيع أن يسود في الوسط السياسي والاجتماعي ، ولذلك هرب واتجه نحو معاوية بن أبي سفيان ، الذي ذاع صيته بأنه كان يغدق على أصحابه بالأموال الطائلة ، هرب هذا الرجل بعد أن كان والياً للإمام علي عليه السلام في البصرة ، وكان مديناً لبيت مال المسلمين فلم يشفع له منصبه بحكمه والياً للإمام عليه السلام في أن يسقط الإمام عنه الدين أو يغض الطرف عن سداده ، فأسقط مصقلة الدين الذي في رقبته للمسلمين قسراً بعدما أسقط عن كاهله كافة التزاماته الدينية والسياسية والادارية تجاه الإمام بهروبه عنه والتحاقه بمعسكر خصمه .

أما كيف أصبح مصقلة هذا مدينا بمال لصالح بيت مال المسلمين ؟ وماذا كان موقف الإمام من ديون واليه الشخصي ؟ ولماذا لم يعفه الإمام عن سداد ديونه ؟ وتحت أي مبرر رأى مصقلة بأن الخلاص من ديونه المالية يكمن في التحرر من ولاية الإمام والانضمام تحت ولاية خصمه ؟ وهل يمكن أن تتكرر لأنفسنا اليوم تجربة مصقلة بالأمس ؟ وماذا عسانا أن نختار اليوم ؟ الصمود في التزام نهج الإمام ؟ أم التخلص منه والهروب نحو جمع الأموال ؟ !!

وقصة مصقلة الشيباني هذا تتلخص في أن مجموعة من المقاتلين ضد أمير المؤمنين من غير المسلمين وقعوا أسرى بيد كتيبة تابعة للإمام عليه السلام بعد قتال عنيف ، فوقع في الأسر قرابة خمسمائة كتابي أصبحوا بحكم أسرهم بعد قتالهم منهزمين عبيدا ، فلما مروا بهم في منطقة تسمى " أردشير خرّه " وهي من أطراف بلاد جنوب فارس توسلوا بأميرها مصقلة الشيباني أن يشتريهم ثم يعتقهم فيكونوا من بعد ذلك أحراراً ، فقام مصقلة بعمل انساني جميل حينما اشتراهم جميعاً وأعتقهم على الفور أحراراً ، وهذا عمل بحدّ ذاته يُشكر عليه مصقلة الشيباني ، ولأن عدد من اشتراهم غير قليل فلم تكن بحوزته أموال نقدية كي يدفعها لقائد الكتيبة لتحويلها للإمام عليه السلام ، فما كان عليه إلا أن اتفق مع قائد الكتيبة في أن يشتريهم بمال آجل ، فكان بذلك مديناً للإمام عليه السلام بذلك المبلغ الضخم آنذاك .

فما قام به مصقلة عمل تطوعي كريم ، ولكن الهروب بعد ذلك والتخلي عن

ولاية الإمام علي عليه السلام والتحالف السياسي مع خصمه بسبب التحرج عن تسوية المسائل المالية العالقة بذمته بينه وبين الإمام عليه السلام فهذا أمر قبيح **قبح الله مصقلة** خصوصاً عندما يصدر منه كوالي وهو بمنزلة المحافظ في هذه الأيام أو ما يسمى بالمتصرف أو أمير منطقة .

صحيح أن ما قام به مصقلة عمل انساني كريم إذ تحمل أعباء اطلاق حرية الآخرين وما ترتب على ذلك من تبعات مالية عليه ، إلا أن هروبه من جهة أخرى من التزاماته الأدبية والشرعية قد أحبط ثواب ما قام به من عمل خير ، فهو بهذا الأمر أصبح كمن تطلق عليه المقولة المشهورة أنه **فعل فعل السادة** الأحرار الكرماء **وفرّ فرار العبيد** من جهة أخرى ، فمن الأفراد من كوكن له صيتا طيباً عند عامة الناس بأفعاله الشهمة ومواقفه البطولية إلا أنه سرعان ما هدم كل ما بناه من سمعة طيبة لدى الناس بإقترافه جرماً لا يغتفر عندهم ، حتى أنه لم يعط للمادحين له والشاكرين لفعاله الطيبة فرصة متاحة لمدحه وشكره والثناء على مواقفه جراء ما أتبع أفعاله من حماقات **فما أنطق مادحه** ومن أراد شكره والثناء عليه أمام الملأ **حتى أسكته** وأخرسه ولم يعطه فرصة كافية لمدحه على معروف ، فما كان من المادحين إلا أن تراجعوا عن مدحه وسكتوا **ولا صَدق** مصقلة وأمثاله **واصفه** وشاعره ومادحه الذي كان ينعته بالنعوت الطيبة لحظة قيامه بالفعل الحسن **حتى** عنفته وشانته **و بَكّتهُ** ولامته جماعته من الشعراء والمادحين له سابقاً وعاتبوه بعد ذلك ، وفي مصطلح عالم اليوم فقد أحرق مصقلة وأمثاله أوراقهم الشخصية فسقطوا في أعين الناس سياسياً واجتماعياً وحتى دينياً .

والحقيقة .. أن قصة مصقلة تشكل هذه الأيام ظاهرة سياسية واجتماعية ، وتتلخص هذه الظاهرة بأن بعض المسئولين على المناطق بالنسبة لحاكمهم ، أو بعض الكوادر بالنسبة لقائدهم ، فإنهم وبسبب علاقتهم الخاصة بحاكمهم أو بقائدهم يعتقدون أنهم يستطيعون التصرف بممتلكات الحكومة من دون قانون لمجرد قربهم من الحاكم ، الذي يعتقدون بأنه سيتشفع لأخطائهم وسيعفيهم عن المسئولية أمام تصرفاتهم الارتجالية ، أو أن بعض الكوادر لتاريخه الحافل مع قائده يظن بأن خدماته لسيده تسوغ له تصرفاته غير المسئولة وقراراته الانفرادية المستعجلة التي لا

يرجع فيها بالمشورة مع قائده ، وأنه بسبب قربه له قد يغض الطرف عن تجاوزاته المالية أو السياسية وما إلى ذلك ، نعم .. هذا ما قد يحدث عن بعض الحكومات في عالمنا المتخلف ، أو عند بعض الجماعات والتيارات الفوضوية ، ولكن في حكومة عدل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فهذا شيء غير مشروع ، وكذلك عند بعض الدول القانونية والمتحضرة في عصرنا الراهن ، فسرعان ما يُجرّ المسئولون المتجاوزون للاستجواب في قاعة البرلمان ومن ثمَّ أمام القضاء العادل .

وهناك جانب من المسامحة القانونية لمثل هؤلاء الأفراد إذا ثبت بأن تجاوزاتهم لم تكن عن عمد أو عن سرقة أو مؤامرة مقصودة دُبِّرت بليل ، أو ثبت بالدليل بأنه كان عن حسن قصد وسوء تقدير في الوقت ذاته ، هنا بالذات .. يمكن أن تُعطى لمثل هؤلاء فرصة أخرى لتصحيح الموقف وتداركه **ولو أقام** مصقلة ومن على شاكلته **لأخذنا ميسوره** وما تيسر له من السداد النقدي العاجل **وانتظرنا** بقية ما في ذمته **بماله وفوره** وتوفره في الآجل ، مصداقاً لحكم الله في قوله تعالى ﴿ **وإن كان ذو عسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرةٍ** ﴾ البقرة / ٢٨٠ وهو ما يعرف في اقتصاديات عالم اليوم بنظام جدولة الديون المستحقة .

ولكن يا تُرى .. ألم يسع الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الإمام العربي الهاشمي الكريم أن يعفو عن ديون مصقلة المالية ويسقطها عنه ، أو على الأقل يتغاضى عنه قليلاً ويستعمل معه السياسة فيعطيه الأمان لحين انتهائه من مشاكله السياسية مع خصمه معاوية بن أبي سفيان ، حتى لا يفكر مصقلة بالهروب للآخر فيضعف موقف الإمام سياسياً بهروب أحد أمرائه ؟؟ أجل .. قد يفعله واحد منا هذه الأيام ، ولكن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حاشاه أن يفعلها ، مهما ترتب على موقفه المبدئي من مشكلات سياسية وإدارية ، ذلك .. لأن مصقلة مدين بماله للأمة ولبيت مال دولة المسلمين ، وليس مديناً للإمام شخصياً حتى يعفو عنه .

فللمال العام حرمة شرعية ، والدفاع عنه من أوجب واجبات الأمة فضلاً عن الحاكم ، أجل ... حالة الإعسار قد تعفيه عن السداد الفوري ، ولكنها لا تسقطه عن ذمته الشخصية ، لذا ... فكان الأجدر لمصقلة أن يتصالح مع إمام الأمة في تسديد

ما بذمته طبقاً لقاعدة الميسور ، وحين ذاك لن يكون الامام له خصيماً بل مساعداً ومعيناً .

مسئوليتنا في دنيانا الحلوة الخضراء

((الحمد لله غير مقنوط من رحمته ، ولا مخلوٍ من نعمته ، ولا مأيوسٍ من مغفرته ، ولا مستنكَفٍ عن عبادته ، الذي لا تبرح منه رحمةٌ ، ولا تُفقدُ له نعمةٌ ، والدنيا دارٌ مُنيَ لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء ، وهي حلوة خضراء ، وقد عَجِلَت للطالب ، والتبست بقلب الناظر ، فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف ، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ))

دنيانا هذه جميلة حلوة وخضراء ، ولكن هذا ليس كل شيء ، فتقع على عواتقنا في دنيانا هذه مسئوليات كبيرة جداً ، وأهمها كما يشير إلى ذلك الامام علي عليه السلام أن نرتحل عنها بأحسن وأفضل الزاد لآخرتنا ، نودعها ونحن أمناء صالحون مصلون عاملون وعالمون طيبون وأوفياء وبالتالي أتقياء أنقياء وغير متلوثين بالسيئات ، فالالتزام بعموم الأخلاق الحسنة والتمسك بضوابط الإيمان والعمل الصالح لا يخسرنا شيئاً في دار الدنيا ، ولا يقلبها قبيحة ومُرَّة وجدباء ، بل تبقى الدنيا

للمؤمنين جميلة حلوة وخضراء يتمتعون فيها بالحلال ، ولكن المشكلة تكمن ببعض أبنائها الذين يريدون التمتع بحلاوتها وجمالها ولو بالحرام والاحتيال ، ظناً منهم بأنهم يرزقون أكثر بواسطة الطرق غير المشروعة ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾ الواقعة / ٨٢ وحتى أن الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام لم يسلم من كيد أولئك النفر أصحاب النفوس الوضيعة والذين يكسبون أرزاقهم بالحرام على أمل تعجيلها ، في حين أنهم لو طلبوها بالحلال لرزقهم الله عز وجل رزقاً مباركا ومن دون عتاب أخروي ، فقد روي أن الإمام علياً عليه السلام ذات يوم طلب من أحد الرجال إمساك بغلته أمام المسجد وربط لجامها لحين الانتهاء من صلاته في المسجد ، فلما انتهى من صلاته خرج من المسجد وبيده درهمان يريد أن يكافئ بهما الرجل ، ولكنه وجد بغلته قد ناخت وليس عليها لجامها ، وقد غاب عنها الرجل ، فدفع الإمام بالدرهمين لأحد غلمانه ليشتري بهما لجاماً لبغلته ، فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق ، وقد باعه الرجل في السوق بدرهم ، فاشتراه الغلام بدرهمين وعاد به للإمام عليه السلام ، فقال : إنَّ العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد ما قُدّر له ، ف **الحمد لله غير مقنوط** ولا ميؤوس **من رحمته** التي وسعت كل شيء **ولا مخلو** ولا ممنوع **من نعمته** ورزقه **ولا مأيوس من مغفرته ، ولا مستنكف** أو متكبر **عن عبادته** بل خاضعٌ ذليلٌ له تبارك وتعالى **الذي لا تبرح** ولا تنقطع ولا تزول **منه رحمة** عن جميع خلقه ، بل **ولا تُفقد** ولا تضيع **له نعمة** قدرها لأحد منا ، فلماذا التحايل على أموال العباد **والدنيا دارٌ مُنِيَ** وكُتبَ **لها الفناءُ** والزوال **ولأهلها** الأخيار والفجار معاً **الجلاء** والارتحال إلى دار الآخرة والبقاء الأبدي والحساب ، فعلينا أن نتمتع بدنيانا **وهي حلوة خضراء** بطرق الحلال ، وهي كثيرة جدا وتسع الجميع ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة** ﴾ الأعراف/٣٢ ولا يجوز لنا أن نطلب الطيبات الدنيوية بالغش والاحتيال ، والسبب أن دنيانا هذه **وقد عجلت** بالزوال **للطالب** لها بالحرام ، إذ هي قد تعجلت بالزوال عنا وقد لا يسعفنا الوقت لتدارك أخطائنا والاستغفار عنها ، ليس هذا

فحسب ، بل **والتبست** بلباس الخديعة **بقلب الناظر** إليها بمنظار الحرام والاجرام ، فينشغل الشاغل بها بالملذات ، وتأسر حلاوتها الخضراء قلوب الناظرين إليها ، وتفوت عليهم حلاوة المناجاة ولذة الاستغفار .

ولكن ما هو الحل الأسلم لنا في دنيانا والأفضل لآخرتنا أيضاً ؟؟ إنه يكمن في الاذعان لنصيحة الإمام أمير المؤمنين حيث قال ناصحاً وواعظاً لنا **فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم** وما تحضرونه لأنفسكم **من الزاد** لتعمروا به آخرتكم ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ البقرة/ ١٩٧ ، ولنا هنا وقفة مع الإمام علي ، فهو عليه السلام لم ينصحنا حين الارتحال عن دار الدنيا أن نتزود لآخرتنا بأكثر الزاد مددا وأوفره عددا ، بل أكد عليه السلام أن يكون زادنا لآخرتنا بأحسنه نوعية وأفضله كيفية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف في الأرض : لننظر كيف تعملون** ﴾ يونس / ١٤ فقد يندفع المؤمنون سراعاً لتأسيس العديد من المشاريع الخيرية على حساب الجودة والنوعية ، وهذا شيء جيد في حدّ ذاته ويشكرون عليه ، ولكن قد يؤسس النفر القليل منهم مشروعاً ناهضا ومركزاً من حيث الكيفية والنوعية ، يفوق جميع المشاريع نجاحاً وتأثيراً ونصراً للدين ، ويبدو أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من رواد هذه المدرسة ، ويؤكد ذلك ما في النص السابق من الدعوة إلى أن تكون إنجازاتنا بأحسن الكيفية شكلاً ومضموناً في قوله **فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد** وإذا علمنا بأن خير الزاد .. التقوى ، أدركنا بأن التقوى حالة تسبغ عليها شرائط خاصة من حيث النوعية حتى يَتقبلُها منا الباري عز وجل ﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق : إذ قربا قرباناً ، فتُقبِل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلنك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ المائدة / ٢٧ وكيف لا يؤكد أمير المؤمنين على نوعية العمل وجودته وهو الذي تتلمذ في حجر خير البرية وأفضل الأنبياء وأشرف البشر سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو القائل (ص) : إنّ الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون .

وحتى لا تشغلنا الدنيا عن تحديد مسئوليتنا الرسالية فيها ، قسم أمير المؤمنين

عليه السلام خطابه للمجتمع إلى شريحتين أساسيتين ، فبالنسبة لشريحة الفقراء : **ولا تسألوا فيها فوق** الحاجات الضرورية واقبلوا **الكفاف** اليسير والحياة البسيطة ، حتى لا تشغلكم أهواء قلوبكم عن مسئولياتكم الكبيرة ، وفلسفة أهمية قبولنا حدّ الكفاف نجدها في دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : " اللهم ارزق محمداً وآل محمدٍ ومن أحبَّ محمداً وآل محمدٍ العفاف والكفاف ، وارزق من أبغض محمداً وآل محمدٍ المال والولد ، ثم قال (ص) : إن ما قلَّ وكفى خيرٌ مما أكثر وألهى ، اللهم ارزق محمداً وآل محمدٍ الكفاف .

وأما بالنسبة لشريحة الأغنياء : **ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ** الذي تبلغون فيها قضاء حوائجكم اليومية المعقولة من المأكل والملبس وما شابه ذلك ، فإن لم ترتضوا ذلك وتقتنعوا به ، فإنكم لن تبلغوا غاية المتاع الدنيوي ونهاياته ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولاً** ﴾الاسراء / ٣٧

والقناعة مطلوبة بالنسبة للفقراء والأغنياء معاً ، فالقناعة كنز لا يفنى ، إذ بالقناعة يحقق الفقراء والأغنياء إنجازات عظيمة وخلاقة ، ذلك .. لأنه وبغير القناعة لن يحصل الإنسان على فرص وأوقات فراغ تمكنه من التفرغ لمسئولية إنقاذ الأمة ، فإن جبرئيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمفاتيح خزائن الدنيا ، فقال (ص) : لا حاجة لي فيها ، بل جوعتان وشبعة .

دعاء السفر وفلسفته

((اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الأهلِ ، ولا يجمعهما غيرك ، لأن المُستَخلَف لا يكون مستصحَباً ، والمُستصحَبُ لا يكونُ مستخلفاً)) .

كل شيء في الحياة له ثقافته وفلسفته في الاسلام ، ومن هنا تكمن عظمة الإسلام كنظام حياتي قبل أن يكون منجاةً للآخرة ، وكون أن ديننا الإسلامي له نظريته الخاصة في السفر وله منهجه الاجتماعي والاقتصادي والروحي في رحلة السفر ويتدخل حتى في اختيار نوعية الرفقة وما ينبغي حمله مع المسافر ، كل هذا يدلنا على أن الإسلام نظام حياتي متكامل الجوانب ، وإلا فما معنى أن يكون للسفر نظامه الخاص في الإسلام وفلسفته الشاملة منذ بدء التحضير للسفر ومروراً بملازماته في الطريق حتى الوصول للمقصد وانتهاءً بالرجوع للوطن ومن ثم إلى البيت والعيال ، ألا يدل ذلك كله وبكل وضوح على أنّ إسلامنا العظيم هذا لم يترك

شاردة ولا واردة إلا كان له فيها نظريته وفلسفته الخاصة به ، من هنا لم يكن ديننا الإسلامي ديناً كهنوتياً بل نظاماً حياتياً متكاملاً للإنسان فضلاً عن كونه منجاةً لآخرتنا أيضاً .

وسنعرج على أمثلة بسيطة وسريعة عن بعض أدبيات الاسلام في شأن السفر حتى يتسنى لنا العروج نحو محور موضوعنا في شرح نص نهج البلاغة المخصوص بدعاء السفر وفلسفته ، وإليك بعض الأحاديث المأثورة :

افتتح سفرك بالصدقة .

سافروا تصحوا وتغنموا .

الرفيق ثم الطريق .

إذا كان ثلاثة نفر في سفر ، فليؤمهم أقرؤهم وإن كان أصغرهم سناً ، فإذا أمَّهم فهو أميرهم .

المروَّة في السفر كثرة الزاد وطيبه وبذله لمن كان معك ، وكتمانك على القوم سرَّهم بعد مفارقتك إياهم ، وكثرة المزاح في غير ما يسخط الله

لا يخرج في سفرٍ يُخاف فيه على دينه وصلاته .

ذُكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ فقيل له خير ، قالوا : يارسول الله (ص) خرج معنا حاجاً فإذا نزلنا لم يزل يهلل الله حتى نرتحل ، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى ننزل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فمن كان يكفيه علف دابته ؟ ويصنع طعامه ؟ قالوا : كلّنا ، قال (ص) : كلّكم خير منه .

خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم وأصحابه في سفرٍ ، وأمر أصحابه بذبح شاة ، فقال رجل من القوم : عليَّ ذبحها ، وقال الآخر : عليَّ سلخها ، وقال آخر : عليَّ طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وعليَّ أن ألقط الحطب !! فقالوا : يا رسول الله (ص) لا تتعبنَّ بآبائنا وأمهاتنا أنت ، فنحن نكفيك ، قال (ص) : عرفت أنكم تكفوني، ولكن الله عز وجل يكره من عبده إذا كان مع أصحابه أن ينفرد من بينهم ، فقام (ص) يلقط الحطب لهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا قضى أحدكم سفره فليسرع الإياب إلى أهله .

وهذه شذرات بسيطة وسريعة لثقافة الإسلام في السفر وتعليماته ، فمن البداهة بمكان أن تكون للإسلام توصية بشأن الدعاء المخصوص عند السفر **اللهمّ إني أعوذ بك من وعثاء** وعراقيل **السفر** ومشقته ، وأعوذ بك يا رب من حزن **وكآبة المنقلب** عند الرجوع للوطن **وسوء المنظر في الأهل والمال والولد** اللذين تركتهما في صونك وعنايتك ، ولأني تركت كل ما أملك من مال وأهل وأحباب وعشيرة في سفري هذا تحت كفالتك ورحمتك ولطف عنايتك ، فبالنسبة لسفري أنت الآن كل وجودي **اللهمّ أنت الصاحب** والرفيق الحقيقي لي في سفري **وأنت الخليفة في الأهل** على أهلي وأبنائي ومالي وكل ما تركته وراء ظهري في وطني ، ولأن الإنسان مهما أوتي من قوى خارقة لا يستطيع أن يكون هو الصاحب المرافق لي في السفر وفي الوقت ذاته يكون أيضاً هو الخليفة والراعي والمحامي لأهلي وعيالي ومالي في الوطن أيضاً ، فهو إما في السفر وإما في الحضر **ولا يجمعهما** في الحفظ والصون معاً **غيرك** يا إلهي وسيدي ومولاي ، فأنت يالله بالنسبة لي كمسافر خير صاحب ورفيق ، وفي الوقت ذاته بالنسبة لأهلي وعيالي ومالي ووطني خير حافظ وخير كفيل ، ذلك .. **لأن المستخلف** الذي تركته في الوطن **لا يكون مستصحباً** ومرافقاً لي في السفر أيضاً ، كما أن **والمستصحب** معي في طريق سفري من الأصدقاء لا يستطيع **و لا يكون مستخلفاً** وراعياً ومحافظاً لأهلي وعيالي ومالي في الوطن ، فالوحيد الذي يمكن له أن يكون في وقت واحد رفيقاً لي في السفر وحافظاً لأهلي في الحضر أيضاً هو الله تبارك وتعالى جلَّ اسمه .

وفي الختام لا بأس أن نذكر بعضاً من ثقافة الإسلام في السفر وفلسفته من خلال الإطلالة على وصية سيدنا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه قبيل سفره ، إذ قال له : يابنيَّ .. سافر بسيفك وخُفّك وعمامتك وخبائك وسقائك وإبرتك وخيوطك ومخرزك ، وتزوَّد معك الأدوية تنتفع بها أنت ومن معك ، وكن لأصحابك موافقاً إلا في معصية الله ، وإذا سافرت مع قومٍ فاكثر استشارتهم في أمرك وأمرهم ، واكثر

التبسُّم في وجوههم ، وكن كريماً على زادك بينهم ، وإذا دعوك فأجبهم ، وإذا إستعانوك فأعنهم ، واغلبهم بثلاث : طول الصمت ، وكثرة الصلاة ، وسخاء النفس بما معك من دابة أو مال أو زاد ، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم ، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك ، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم ، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم ، وإذا تصدقوا وأعطوا قرضاً فاعط معهم ، واسمع ممن هو أكبر منك سناً ، وإذا نزلت فصلِّ ركعتين قبل أن تجلس ، وإذا ارتحلت فصلِّ ركعتين ، ثمَّ ودِّع الأرض التي حللت بها ، وسلِّم عليها وعلى أهلها ، فإن لكل بقعة أهلاً من الملائكة .

احذروا الافتتان بالشعارات البراقة

((إنما بدءُ وقوع الفتن أهواءٌ تُتَّبَع ، وأحكام تُبتَدع ، يُخَالفُ فيها كتابُ الله ، ويتولى عليها رجالٌ رجالاً ، على غير دين الله ، فلو أن الباطلَ خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ، ولو أن الحق خَلَصَ من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسُنُ المعاندين ، ولكن يُؤخَذُ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضِغثٌ فَيُمزَجَان ، فهنالك يستولي الشيطانُ على أوليائه ، وينجو : الذين سبقت لهم من الله الحسنى)) .

هنالك ثلاثة أشياء مرتبطة بعضها ببعض في موضوع واحد ، وهي : الفتنة ، بداية تكوينها ، ونتائجها الحتمية ، فالفتنة موضوعها وقوع الاضطراب ، ونتيجتها الحتمية القتل أو الدمار أو الإنحراف والخراب ، بينما يركز مولانا الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته هذه أسباب تكوين الفتنة وبداية وقوعها ، وهذا موضوع حيوي جدير بالبحث والمتابعة ، ذلك .. لأنه وبسهولة يمكن التعرف على أية ظاهرة اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية وحتى الدينية بعد

وقوعها كونها ظاهرة متفجرة ومضطربة وشائكة ولكننا لانستطيع أن نحدد موقفنا الثابت تجاهها ، لأننا وبدون معرفة دوافعها لا نعلم كونها ظاهرة إيجابية أو أنها فتنة عمياء حتى نتحاشى السقوط فيها ، وحتى يتمّ لنا كشف الموضوع وبسهولة كان لا بد لنا أن نتثبت بدايات وقوعها وأسبابها الأولية **إنما بدءُ وقوع الفتن** والاضطرابات والخلافات خصوصاً السياسية منها والدينية والاجتماعية عاملان أساسيان ، فالعامل الأول : **أهواءٌ تُتَبَع** وهذه الأهواء عبارة عن مصالح فردية ، فهي مصالح خاصة ومكاسب ذاتية يسعى لتحقيقها صاحبها فيورط الآخرين بمشاريع أغلبها ذات طابع سياسي أو ديني أو اجتماعي ، تبدو في ظاهرها عندهم مشاريع مبدئية وقيمية هادفة ، ولكنها في الحقيقة ما هي إلا مشاريع ضيقة ذات طموح شخصي غلفت بطابع مبدئي ، وفرضت على واقع الساحة الاجتماعية العامة بأساليب جماهيرية مختلفة ، ليس هذا فحسب .. وحتى تلتبس هذه الأهواء الخاصة على الناس ، ويصفق لها الجماهير ظناً منهم أنها قضايا اجتماعية أو سياسية أو دينية عامة و ساخنة فيتحمس لها أفراد المجتمع ، كان لا بد من عامل آخر فعال ، يمكن من خلاله إغواء الناس واعتبارها قضايا قيَمِيَة هادفة وأحكام شرعية ثابتة ، فكان العامل الثاني هو : **وأحكامٌ تُبتَدَع** وفتاوى تُختلق ثم تُزجّ بالمواضيع المتفجرة حتى يتبعها الناس بشكل أعمى ، فتصبح وكأنها قضايا الساعة المصيرية ، والحال أنها ماهي إلا أهواءٌ شخصية غُلّفت بأحكام تبدو في ظاهرها شرعية أو قانونية أو عقلية ، فهذه في نظر الإمام علي عليه السلام أهم عاملين أساسيين لبدء وقوع الفتن عادةً ، فلو استطعنا في خضمّ الاضطرابات والصراعات أن نكتشف خيوط الحدث منذ بداية تكوينه واشتعاله ، لاستطعنا وبكل سهولة أن ندرك بأن الحدث هذا ما هو إلا فتنة عمياء من خلال معرفتنا لخيوط الحدث منذ بدايته وأنه ما هو إلا أهواء مصلحية ضيقة وأحكام لا شرعية ولا عقلية ، ولكنها غلفت على الناس وانطوت عليهم باعتبارها قضايا عامة ومواقف مبدئية وأنه على القوى الدينية والسياسية أن تخوض غمار المعارك هذه بكل اقتدار ، وبكل ما أوتيت من أسلحة فكرية وقانونية وإعلامية .

والحقيقة أننا نشاهد هذه الأيام ونعايش ظواهر اجتماعية ودينية وسياسية كثيرة

في مجتمعاتنا وبشكل شبه يومي ، وتخوض غمارها بعض التيارات الفكرية أو الدينية يتمُّ فيها مخالفة أبسط القواعد الفكرية والثقافية ويتمُّ أيضاً تعطيل بعض الثوابت الدينية وتجاوز بعضها الآخر تحت حجج واهية كالمصلحة وهيبة النظام وفوز الحزب وضرورات الولاية الشرعية وتثبيت الأحكام السلطانية والمحافظة على النظام العام والتوازن السياسي وطاعة القيادة بدون نقاش والانصياع للتكليف الشرعي وما شابه من هذه المبررات التي هي في حقيقتها الواقعية **يُخَالَفُ فيها** وبشكل واضح **كتابُ الله** في مبادئه العظيمة وبصائره الصادقة وأحكامه النافذة ، ذلك .. لأن هذه المبررات وإن بدت في بعضها قانونية وشرعية إلا أنها يجب أن تتعطل ولا يُعمل بها إذا كنا نشعر بالوجل تجاه مواضيعها أو نشمُّ رائحة الفتنة من أحداثها أو ندرك بأنها مصالح فردية ضيقة مغلقة على أصحابها خصوصاً إذا كانت تخالف وبوضوح المبادئ الحضارية لكتاب الله المجيد من الشورى والحرية والمساواة والتعددية وحقوق الإنسان والعدالة وما شابه ذلك .

ومواضيع الساحة السياسية والاجتماعية والدينية والتي تنفذ وتتم بهذه الصورة السيئة في واقعها والقبيحة في حقيقتها والحسنة من جانب آخر في ظاهرها والشرعية في مبرراتها الشكلية والقانونية في أشكالها الصورية ، كل هذا يحدث ويخطط له على حساب علاقات الناس ومصالح بعضها ببعض وعلى حساب المصلحة العامة والوحدة الوطنية والاجتماعية والدينية للناس ، ليس من أجل سواد عيونهم أو من أجل المبادئ والمواقف بل من أجل التسلط على رقاب الناس والتحكم فيهم ومن أجل البقاء على سدَّة القيادة وديمومتها على القاعدة ، وحتى يكون هناك تابع ويكون متبوع **ويتولى عليها رجالٌ** من محتكري القيادات **رجالاً** من الأفراد و الجماهير العامة والبسيطة ، مع العلم بأن هذا النوع من التولية على رقاب الناس والولاية على شئونهم هي في الحقيقة **على غير دين الله** الذي أمرنا به وبشكل واضح في ضرورة العمل بالشورى وتحقيق الديمقراطية وتثبيت حقوق الناس بالحريات العامة وحرية المعارضة والسماح للرأي الآخر وماشابه **فلو أن الباطل** من هذا النوع الذي ذكرناه والمغلف بغلاف الدين والقانون والعرف والمصلحة وما شابه ذلك قد **خَلَصَ** وتطهر وتبعَّد ونظف من طريق **ومن مزاج الحق** ولم

يختلط به ولم يغلف به ، كانت النتيجة أنه **لم يَخف على المرتادين** والباحثين عن الحقيقة من عامة الناس لم يخف عليهم بحثهم عن الحق لأنه والحال هذه سيكون طريق الحق واضح المعالم بعدما تخلص من شوائب الباطل ومبرراته الخادعة والتي يخشى على الناس أن تنطلي عليهم فيقعوا فريسة تلك الأباطيل والأراجيف ، كما أنه لو أُسقطت أقنعة المزيفين **ولو أن الحق خَلَصَ من لبس الباطل** وأراجيف المبطلين **لانقطعت عنه** وعن دعايات الباطل وحكايات المبطلين في الفتنة **ألسُن المعاندين** للحق والمخالفين لبصائر كتاب الله ومبادئه الواضحة **ولكن** المشكلة العويصة تكمن في أن ديدن رعاة الفتنة ودعاتها المرجفين أنهم لا يستطيعون تنفيذ مشاريعهم الشخصية وأهدافهم الحقيرة إلا من خلال مزج باطلهم بشيء من شعارات الحق ، كما أنهم لا يستطيعون طبخ مؤامراتهم المشبوهة إلا في مطبخ الدين والدستور والقانون ، حتى يعتقد الناس بها بأنها قضايا شرعية وواجبات أخلاقية ومواقف وطنية ف **يُؤخَذُ من هذا** شعار الدين والحقيقة شيءٌ **ضغثٌ** قليلٌ **ومن** شعار الوطنية والقانون ومصالح البلاد والعباد **ضِغثٌ** جزء آخرٌ **فيُمزَجَانِ** ويُحبَكانِ بشكل جيد في شعارات رنانة وعاطفية ، ومع الأسف الشديد وبهذا السيناريو الدقيق **فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه** من الجماهير المغرر بها ويستعين بهم على تحقيق مآرب الكبار وأهدافهم المصلحية الضيقة ، ولكن الشيطان في الفتنة هذه لا يستطيع أن يغرر بمن يكتشف حبائل الفتن وشرارتها الأولية الذين تبصروا بنهج الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في بداية خطبته هذه لما لوح وصرح بأن بدايات كل فتنة ضالة عبارة عن أهواء تتبع أصحابها وأحكام مغلفة يبتدعها أربابها **وينجو** بهذه البصيرة **الذين سبقت لهم من الله الحسنى** في عاقبة الأمور ، والعاقبة للمتقين .

وربما يعتقد البعض منا بأن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته هذه إنما يقوم بعملية التنظير الثقافي أو السياسي البحت في عالم الأفكار فقط ، والحقيقة أنه عليه السلام إنما ينقل إلينا معاناته الواقعية وتجاربه المريرة حاكياً عن مواقف أصحابه المتردية الذين خدعتهم شعارات رفع المصاحف على أسنة الرماح وانطلت عليهم الحيل الشرعية عندما رضخوا للشعارات الدينية

وطالبوا بالتحكيم وأضاعوا فرصة الانتصار ولم يستوعبوا أنه عليه السلام هو القرآن الناطق ، بمواقفه وأقواله الواضحة ، وأن المرفوع على أسنة الرماح ما هو إلا خديعة سياسية بشعارات دينية براقة ، والشعارات هذه ما هي إلا صورة ظاهرية للقرآن الصامت .

الجهاد حياة القاهرين

((أما بعد .. فإنَّ القومَ قد بدؤكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغي ، واستقبلوكم بالعدوان ، وقد استطعموكم القتالِ ، حيث منعوكم الماء ، فأقرّوا على مذلّةٍ وتأخير محلّةٍ ، أو رووا السيوف من الدماءِ ترْووا من الماء ، فالموت في حياتكم مقهورين ، والحياة في موتكم قاهرين))

الظلم .. والبغي .. والعدوان .. ثالوث غير مقدّس ، يستخدمه اليوم كأدوات حرب سيئة كثيرٌ من الطغاة والجبابرة والمعتدين ، ولعلَّ من أبرز من يستخدم هذا الثالوث المرعب في عصرنا الحاضر هم اليهود الصهاينة المحتلون للمسجد الأقصى أولى قبلة المسلمين ، وثاني الحرمين الشريفين ، وفي الوقت الذي جاء القرآن الكريم يصف تضاريس منطقة الحرم المكي الشريف بقوله تعالى في سورة ابراهيم : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم** ﴾ جاءت سورة الإسراء تصف مسجدنا الأقصى السليب بالبركة في مطلعها : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله** ﴾ فبركته

بالذات جعلت كلَّ ما حوله مباركاً بالخيرات أيضاً من جميع الجهات ، فالأقصى وما حولها مباركة في خصوبة أرضها ، وطيب نبتها وأشجارها ، واستواء مناخها ، وخيرات بحرها ، علاوة على أنها مباركة بمسجدها وبمدفن أنبياء الله فيها وذكرياتهم الشريفة فيها وامتداد بركتها حتى أرض سيناء وما تحمل من ذكريات وقصص تاريخية لعديد من أنبياءنا هي غاية في الموعظة والعبرة للبشرية جمعاء ، لذا .. فليس من العبث أن يختار صهاينة اليهود فلسطين وطناً مستباحاً لهم بمنطق الظلم والبغي والعدوان كما أسلفنا ، وبالرغم من أن خطبة مولانا الإمام علي عليه السلام جاءت بمناسبة حدوث عدوان ظالم وباغي عليه وعلى أصحابه عندما منعهم الخصم حقهم الطبيعي في الاستفادة من شرب ماء النهر الجاري في بعض حروبه أيام خلافته الراشدة ، إلا أنه عليه السلام قد أسس بخطبته هذه عنواناً ومنهجاً للحياة الكريمة والشريفة في ظلَّ الظلم والعدوان والبغي ، ذلك الثالوث غير المقدَّس الذي ينتهجه اليوم اليهود الصهاينة ضد العرب والمسلمين أصحاب الأرض الحقيقيين **أما بعدُ .. فإنَّ القوم** كاليهود الصهاينة اليوم **قد بدؤوكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغي ، واستقبلوكم بالعدوان** فيا أيها العرب والمسلمون .. فما معنى أن يبتدأكم اليهود منذ بداية تعاملهم معكم بالظلم ؟ وما معنى أن يستفتحوا في علاقاتهم معكم بالبغي ؟ وما معنى أنهم أقبلوا على أرضكم بالجور والعدوان ؟ ألا يدل هذا كلَّه على أنهم لا يرتضون الحوار معكم ؟؟ ألا يدلَّ ذلك أنهم لا يريدون التعايش السلمي معكم ؟؟ ألا يدلَّ أن لا عهود ولا وفاء لهم في قاموس سياستهم معكم ؟؟ وألا يدل بعد ذلك كله أنهم لا يريدون غير منطق الحرب بدلاً ؟!! فيا أيها العرب والمسلمون .. إلام السكوت عنهم **وقد استطعموكم** وأذاقوكم مقدمات **القتال** واستدرجوكم إليه طمعاً بأرضكم وثرواتكم ، بعدما طفح ظلمهم .. وشاع بغيهم .. وكثرعدوانهم .. ألا يدلگ ذلك كلكه أنهم قد رغبوا في قتالكم **حيث منعوكم الماء** ومنعوكم الصلاة في المسجد الأقصى ومنعوكم الدخول بحريتكم في عاصمتكم القدس ، فيا أيها العرب والمسلمون .. أنتم بالخيار .. واختاروا بإرادتكم أحد الطريقين **فأقرّوكم** بواقع الاحتلال **على مذلة وتأخير مَحَلّةٍ** وتأخير محلَّتكم ورتبتكم من الشرف والسمو عن مستوى

سائر الأمم الأخرى ، وتراجعكم عن سباق التقدم عليهم ، فإما تختارون طريق الهزيمة و الاستسلام **أو رووا السيوف** ورصاصاتكم **من الدماء** بإعلانكم الجهاد المقدَّس، وبذلك ترجعوا مسجدنا الأقصى السليب و **ترووا من الماء** الذي يعينكم بسببه أن تكونوا أحياء وأصحَّاء ، وتحصلون على كامل حقوقكم في الوطن، وقد قال الشاعر :

ومن فاته نيل العلا بعلومه

وأقلامه فليبلغها بحسامه

فموت الفتى في العزّ مثلُ حياته

وعيشتُه في الذلّ مثل حمامه

فيا أيها العرب والمسلمون .. بغير التضحية والقتال والجهاد **فالموت في حياتكم** الذليلة والاستسلامية هذه على أرضكم مهما عشتم وعمَّرتم بها ستموتون **مقهورين** ومنهزمين وخاضعين، بينما الشرف كل الشرف في جهادكم وتضحيتكم واستشهادكم و بذلك ستهبون لكم ولأجيالكم القادمة الحياة السعيدة والعيش الكريم ، وذلك بسبب أنكم اخترتم أن تكون طريقتكم **في موتكم** أن لا تموتوا إلا وأنتم **قاهرين** عدوكم ومنتصرين عليهم ومجاهدين لهم بكل ما أوتيتم من قوة تمتلكونها ﴿ **ولا تقولوا لمن يُقتَلُ في سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون** ﴾ . البقرة/١٥٤

نحن .. وحقيقة الدنيا

((الا وإنَّ الدنيا قد تصرَّمت ، وآذنت بوداع ، وتنكَّر معروفها ، وأدبرت حذّاء ، فهي تَحفزُ بالفناء سكّانها ، وتحدو بالموت جيرانها ، وقد أَمَرَّ منها ما كان حلواً ، وكَدِرَ منها ما كان صفواً ، فلم يبق منها إلاّ سَمَلَةٌ كسَمَلَةِ الإداوَةِ ، أو جُرعةٌ كجُرعةِ المقلةِ ، لو تمززها الصديانُ لم يَنقعْ ، فازمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار ، المقدور على أهلها الزوال ، ولا يغلبنكم فيها الأملُ ، ولا يطولن عليكم الأمدُ ، فوالله .. لو حننتم حنين الوُلهِ العجالِ ، ودعوتم بهديلِ الحمامِ ، وجأرتم جؤارَ متبتلي الرهبان ، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد ، إلتماسِ القربة إليه ، في ارتفاع درجة عندهُ ، أو غُفران سيئة أَحصتها كُتُبُهُ ، وحفظها رُسُلُهُ ، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه ، وأخاف عليكم من عقابه ، وتالله .. لو انماثت قُلُوبُكُم إنمياثاً ، وسالت عيونُكم من رغبةٍ إليه أو رهبة منهُ دَماً ، ثمَّ عُمِّرتُم في الدنيا ، ما الدنيا باقيةٌ ، ما جَزَت أعمالُكُم ، ولو لم تُبقُوا شيئاً من جُهدكم أنعُمَهُ

عليكم العظام ، وهُداهُ إياكم للإيمان)) .

تتحبسُ أنفاسُنا في الصدور عندما نطّلع على كلام للإمام أمير المتكلمين علي بن أبي طالب عليه السلام في موضوع ذمّ الدنيا وكشف أسرارها ، ذلك .. لأننا بحاجة حقيقية وماسكة للموعظة الروحية التي ليس فيها مكان للمجاملات ولا كلام فيها من نوع معسول تطرب لها النفوس !! إنها حقائق ثابتة وسنن حقيقية يسديها لنا من جاءته الدنيا وهي تتحبب إليه صاغرةً ، والذي قد أجابها بأنه قد طلقها ثلاثاً !!

والدنيا لها وجهها الحسن في عيون الناظرين إليها ، ولكن الإمام علي في خطبته هذه ينقل إلينا وجهها الآخر وصورتها الأخرى ، علنا نتعظ من تصوير الإمام لها بالصورة التي نعتبر منها ، والإمام عليه السلام بخطبته هذه لا يرينا الدنيا بمنظار الفلسفة المتكاملة التي يراها ، ولكنه عليه السلام ينقل إلينا جانبها السلبي للموعظة ، ثم سرعان ما ينقلنا لصورة أخرى فيها تنبيه لعظيم ثواب الله وعقابه من خلال ما نصنعه في دنيانا ، وبعدها يختم خطبته هذه للتدليل على عظيم نعم الله تعالى التي أودعها الله عز وجل في أنفسنا ودنيانا التي قابلناها بقليل من الشكر والعمل المتواضع .

وحتى نستوعب الخطبة هذه بشكل جيد ، ونعتبر منها أحسن اعتبار ونتعظ بها بما يفيدنا لأنفسنا ودنيانا وآخرتنا ، علينا أن نقوم بعملية محاكاة الخطبة بأنفسنا ، وكأنها تعبر عن أقوالنا وخواطرنا ، فنضع الدنيا نصب أعيننا ونقوم بمحاسبة أنفسنا ومحاكمتها تجاه ما مضى من أعمارنا وما بقي منها **ألا** .. يا أيها المنشغل بدنياه قف قليلاً .. وفكر .. ثم فكر .. ماذا عملت بما انقضى من عمرك الذي لن يعود إليك **وإن** ما مضت عنك من سنين **الدنيا قد تصرمت** وذهبت بلا عودة **وآذنت** وأعطت الأذن بالعلم بأن مابقي لك فيها من سنين ستذهب بوداع هي الأخرى ، فلماذا الإصرار على التمسك بها و هي قد تجاهلتك وتجاوزتك **وتنكر معروفها** فهي تعرفك الآن وتتعامل معك كل يوم على حده بغض النظر لماضيك ، فقد كنت فيها قديما طفلاً ثم صبياً وشباباً ، وهذا لا يعنيها اليوم شيئاً ، لأنه في عداد الماضي ، وها أنت تكبر الآن والدنيا تكبر معك وتتعامل معك كما أنت الآن كبير

في العمر ، فهي لا ترحمك ولا تعيد لك ماضيك الذي تتنكر الدنيا له **وأدبرت** عن ماضيك مسرعةً **حذاء** ، **فهي تحفزُ** وتدفع حاضرك ومستقبلك وتجرهما **بالفناء** جميع أهلها ومن عليها من **سكانها** ليس هذا فحسب .. بل **وتحدو** وتعصف **بالموت جيرانها** من الناس الذين سيكونون جيرانها في قبورهم تحت تراب هذه الدنيا **وقد أمَرَ** وانقلب مراً وعلقماً **ما كان حلواً** منها بسبب زوالها أو خرابها ، كما أنه **وكدَّر** وأصبح متعباً وصعباً **منها ما كان صَفواً** وسهلاً وميسراً، ولأنه قد تبدلت بعض حالاتها إلى حالة من المرارة والكدر فبالنسبة للأيام القادمة **فلم يبقَ منها إلا سَمَلَةٌ** بواقي الماء في الإناء **كَسَمَلَةِ الإداوةِ** كبواقي ماء إناء الغسل والتطهير بعد استعماله ، ولم يبق من عمرنا في مستقبل الدنيا إلا سحابة كسحابة الصيف **أو جُرعةٌ** واحدة نشربها **كجُرعةِ المَقلةِ** التي فيها قليل من الماء بحيث **لو تمززها** ويَمُصها **الصديَانُ** والعطشان ، لم يرتو لأنه **لم ينقَع** ولم يرو عطشه ، والنتيجة أنه علينا الاستعداد للرحيل **فأزمعوا عباد الله الرحيلَ عن هذه الدار المقدور** والمكتوب **على أهلها الزوال** عنها سريعاً ، وبشرط أن لا تأخذنا الأمنيات بعيداً **ولا يغلبنكم فيها الأملُ ، ولا يطولن عليكم الأمدُ** وبغير ذلك .. **فوالله .. لو حننتُم حنين الوُلهِ** الذي فقد عقله وتوازنه **العِجَالِ** الناقة التي فقدت أولادها وهي تبحث عنهم بلا إدراك أو توازن ، ولو حلقتم في السماء وناديتم **ودعوتم بهديلِ الحمام** وصوتها الشجي على فقد الدنيا كما تدعو الحمام بهديلها وصوتها الشجي أولادها المفقودين ، وحتى لو ثُرتم **وجأرتم** وصحتم كما يصيح **جُؤار مُتَبَتلِي الرُهبان** والدراويش المتصوفة **وخرجتم إلى الله من الأولاد والأموال إلتماس القُربة إليه** إلى الله عزوجل في التقرب و **في ارتفاعِ درجةٍ عنده ، أو غُفران سيئةٍ أحصتها كُتُبُهُ ، وحفظتها رُسُلُهُ** وملائكته الموكلين كتابة ذنوبنا وآثامنا ، فكل هذا الحنين .. والوله .. والدعاء .. والمناجاة .. وترك الأموال والأولاد قربة لله عزوجل **لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه** ولكان قليلاً فيما أحذر **وأخاف عليكم من عقابه** وقد لا تستوعبون ذلك ولكن **واللهِ .. لو انماثت** وذابت

قلوبكم انمياثاً ، وسالت عيونكم من رغبةٍ إليه أو رهبة منه .. دماً ، ثم عُمرتم في الدنيا ما الدنيا باقية إلى ما شاء الله ، فكل هذا الذوبان لقلوبكم وإراقة دماء عيونكم في الله عزوجل لما وصلت ولما ساوت و **ما جزَت أعمالكم** هذه كلها عنكم ، **ولو لم تُبقُوا شيئاً من جُهدكم** إلا وصرفتموه في البكاء .. والحنين .. والدعاء .. والمناجاة .. والاستغفار .. لله عزوجل ، كل ذلك الجهد الجهيد لا تساوي عند الله عزوجل مقدار شكر نعمة واحدة من **أنعمه عليكم** بنعمه **العظام** والكبار التي من بها الله عليكم **و** خصوصاً نعمة ما **هداه إياكم للإيمان** ونعمة الإسلام والتوحيد .

القرار الأخير

((فتداكوا عليَّ تداك الإبل الهيم يوم وِرِدِها ، قد أرسلها راعيها ، وخُلعت مَثَانيها ، حتى ظننتُ أنهم قاتلي !! أو بعضهم قاتل بعض لدي !! وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره ، حتى منعني النوم ، فما وَجَدتُنِي يَسَعَنَي إلا قتالُهُم ، أو الجحود بما جاء به محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانت معالجةُ القتال أهونَ عليَّ من معالجة العقاب ، وموتاتُ الدنيا أهونَ علي من موتات الآخرة ، أما قولُكم : أكل ذلك كراهيةِ الموتِ !؟ فوالله .. ما أبالي .. أدخلتُ إلى الموت ، أو خرج الموتُ إلي ...... فوالله .. ما دفعتُ الحربَ يوماً إلا وأنا أطمعُ أن تلحقَ بي طائفةٌ ، فتهتدي بي ، وتعشوَ إلى ضوئي ، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوءُ بآثامها)) .

السلم .. هو قرار الإسلام الأول والأساسي والمبدئي ، وفي أوضاع الاضطرابات الداخلية كالمظاهرات والاحتجاجات والإعتصامات فاللاعنف هو خيار الإسلام أيضاً في التعامل معها ، وأما التمرد المسلح فيجب في مواجهته الابتداء بفتح باب الحوار

مع المسلحين ، فإن توصلوا مع الحكومة الإسلامية إلى نتائج مرضية للطرفين ، كان لزاماً على الدولة الإسلامية تنفيذ مطالبهم المشروعة والوفاء بعهودهم وتأمين جانبهم في مقابل تنازلهم عن الأسلحة ومصادرتها﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ الحجرات / ٩ , فإن أبت رمي السلاح وأصرت على ركوب الحرب واستعمال منطق القوة ، فيلزم على الحاكم الإسلامي تأخير قرار الحرب كلما أمكنه إلى ذلك سبيلا ، فلعل يهدأ الانفعال المتشنج قليلاً وتهدأ الأعصاب شيئاً قليلاً ويتم الاستفادة من الوقت عسى أن يهدي الله بعض من أجبرتهم الظروف على حمل السلاح من جيش الخصم للإستسلام الشخصي والاعتذار لحكومة دولة الإسلام أو على الأقل الانسحاب عن ساحة المعركة والهروب أو الانزواء والاختباء في مكان آمن ، فإذا نفذت جميع خيارات السلم للدولة الإسلامية جاء القرار الأخير بالحرب بشرط أن يكون القتال محدوداً ومشروطاً فيه النية على هدايتهم لجادة الصواب ، وليس للتشفي والانتقام منهم والتخلص منهم حتى الرمق الأخير ﴿ **فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت ، فأصلحوا بينهما وأقسطوا** ﴾ لحجرات / ٩ وإن لم تهتدي بالحرب المحدودة وتفيء وتتراجع عن القتال ، بل أصرت عليه وكابرت ، فهنا فقط يجوز أن يقرر أمير المسلمين الحرب لإبادتهم واستئصالهم ، بشرط أن لا يبتدأ جيش المسلمين بالقتال حتى يبتدأهم العدو أولاً فيكون المسلمون حينئذٍ قد قرروا وجوب القتال من باب وجوب الدفاع عن النفس في قرارهم الأخير بالحرب ، وهذه الثقافة الحربية في الإسلام أراد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن يعلمها أصحابه ويوطنها في نفوسهم ، ولكن بعضهم لم يستوعب هذا النوع من ثقافة الإسلام الحربية وأراد الاستعجال في قتال القوم ، فيصف الإمام علي عليه السلام غوغائية بعض أصحابه واندفاع البعض الآخر منهم بالقتال بدون ثقافة **فتداكوا** وتدافعوا **علي تدافع الإبل الهيم** شديدة العطش كاندفاعها **يوم وردِها** وورودها لمحلك الماء ، والإبلُ في حال أنها **قد أرسلها** وتركها **راعيها** حيث شاءت نحو الماء ، فكان تسابقها الشديد نحو الماء وركضها إليه بحيث أنها قد تعثرت بحبالها وعُقُلها من بعد خلعها إياه بقوة الإندفاع **قد خُلعت** وتمزَّقت **مثانيها** وحبالها

التي تربط به عادةً ، وهذا تشبيه منه عليه السلام لبعض أصحابه المريدين للقتال والمسرعين إليه بلا تعقكل ، إلى درجة أن الإمام علي عليه السلام اعتقد أنه إنما يندفع أصحابه إليه بهذه الطريقة و السرعة لقتله !! **حتى ظننت أنهم قاتلي !! أو .. بعضهم قاتل بعض** !!.

وحاشا للإمام وهو في منصب الخليفة الشرعي للمسلمين والولي المحافظ على حرمة سفك دماء المسلمين وهدر أموالهم وهتك أعراضهم أن يستعجل القرار في القتال الذي تحلُّ به الدماء وتضيع به حرمة الأموال وتستباح به الكرامات ، أن يستعجل اتخاذ قرار الحرب مندفعاً إليه من خلال ضغوط بعض المشجعين ، فقرار الحرب هذا قرارٌ في غاية الخطورة والمسئولية ، كيف لا .. وقرار الحرب هذا يشمل المسلمين من المعتدين والمعتدى عليهم ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ الحجرات / ٩ ولحرمة دماء المسلمين كان الإمام علي عليه السلام يتريث كثيراً في اتخاذ القرار الأخير **وقد قلبتُ هذا الأمر بطنه وظهره ، حتى منعني النوم ، فما وجدتُني يسعني إلا قتالهم** بعد طول التفكير بشأن إصرارهم على القتال **أو الجحود بما جاء به محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم** بوجوب الأمر في قتال المعتدين الذي شرعه الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز ﴿ **فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ الحجرات / ٩ ، ولأن الأمر الشرعي ثابتٌ عليهم بالقتال بسبب إصرارهم وعنادهم عليه **فكانت معالجةُ القتال** وهو قراري الأخير بعد ما استنفذت جميع وسائل الصلح والسلم **أهون علي من معالجة العقاب** الذي يستحقه الحاكم المخالف لكتاب الله عزوجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم **وموتاتُ الدنيا** وأنا على كتاب الله وسنة نبيه ، خيرٌ لي و **أهون علي من موتاتِ الآخرة** وأنا على خلاف الكتاب والسنة ، لا قدر الله .

وقد يعتب عليه بعض أصحابه ممن يظنون أنه عليه السلام إنما يؤخكر قرار الحرب خشية الموت **أما قولكم : أكل ذلك كراهية الموت ؟ فوالله .. ما أبالي .. أدخلت إلى** صفوف العدو متقاتلاً طلب **الموت** لأعدائي ، فهذه كرامة **أو خرج** الأعداء نحوي طالبين **الموت إليّ** فهذه الشهادة وما أشوقني إليها ،

لكن تأخيري هذا عن قرار القتال وتريثي فيه **فوالله** بسبب أنني ما أجلتُ القتال وأخرتُ و **ما دفعتُ الحرب يوماً** واحداً إضافياً **إلا وأنا أطمعُ أن تلحق بي طائفة** من جند أعدائي تائبة نادمة **فتهتدي بي ، وتعشو** وتهتدي بإرادتها الحرة **إلى ضوئي ، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها** فتدخل نار جهنم بسببي **وإن كانت** تلك الطائفة المهتدية إلي والمستسلمة ستحاسب في الآخرة على عصيانها وتتحمل سيئاتها **وتبوء بآثامها** عندما كانت في الأمس القريب ملتحقة بجيش الأعداء ، وذلك لأن وجودها سابقاً في صفوف الأعداء أكيد قد شجع الآخرين على قتالي ومخالفتي ، أو على أقل تقدير قد كثر صفوف الأعداء ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره** ﴾ الزلزلة/٨ .

إنَّ الله مع الصادقين

((ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقتلُ آباءَنا وأبناءَنا وإخواننا وأعمامنا ، ما يزيد ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، ومُضياً على اللقَمِ ، وصبراً على مضض الألم ، وجِداً في جِهادِ العدو ، ولقد كان الرجلُ منا والآخرُ من عدونا يتصاولان تصاولِ الفحلين ، يتخالسانِ أنفسُهما أيهما يَسقي صاحبه كأس المنون ، فمرةً لنا من عدونا ، ومرةً لعدونا منا ، فلما رأى الله صدقنا ، أنزل بعدونا الكَبتَ ، وأنزل علينا النصرَ ، حتى استقرَ الإسلامُ مُلقياً جِرانَهُ ، ومتبوئاً أوطانهُ ، ولَعَمري.. لو كنا نأتي ما أتيتم ، ما قام للدين عمودٌ ، ولا اخضر للإيمان عودٌ ، وَأيمُ اللهِ .. لَتَحتَلِبُنها دَمَاً ، وَلَتُتبِعُنها نَدَماً)) .

الصدق باب إيماني كبير ، واللسان الصادق بالقول والحديث إحدى أخلاقيات وأبجديات صدق الإيمان عند الأفراد ، فالإيمان الصادق عنوان عام ، وصدق اللسان أحد فصوله ، فالمؤمن الصادق هو المخلص والمجاهد والأمين والمنفق والعابد .. الخ ،

إضافة لذلك فهو أيضاً غير الكاذب بالقول ، من هنا .. فإن قريش وصفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصادق الأمين بمعناه الكبير وليس المقصود منه أنه (ص) قد اشتهر بصدق الحديث فقط ، فقد كان يبيع ويشتري ويسافر ويصاحب الآخرين ويؤمن بالله ولا يعترف بالجبت والطاغوت والأصنام ولا يغش ولا يظلم ولا يرابي .. الخ كل ذلك كانت سجاياه (ص) في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام ، وكان صدق الحديث عنده (ص) إحدى فضائله وأخلاقياته أيضاً صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، والدليل القاطع على أن الصدق صفة إيمانية أعم وأشمل من صفة الصدق بالقول ما جاء في كتاب الله العزيز في سورة الحجرات ﴿**إنما المؤمنون الذين : آمنوا بالله ، ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون**﴾ 15

من هذا المطلق .. أراد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته هذه أن يزرع صدق الإيمان وينميه في نفوس أصحابه حتى يثبتوا في القتال ويوطنوا أنفسهم على الاستشهاد في سبيل الله مخلصين له الدين ، لأنه إكسير الانتصار وعلته المحدثة والمبقية ، وأراد إفهامهم بأن صدق الإيمان هذا إنما يتجلى مصداقه في الواقع الخارجي ويثبت عند المرور بأحلك الظروف على النفس و أصعب الامتحانات على الذات **ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله** في الدفاع الصادق عن الدين لم يكن عندنا مانع أن **نقتل آباءَنا وأبناءَنا وإخواننا وأعمامنا** الذين يريدون مع أعداء الدين أن يمحوا بسيوفهم الإسلام عن الوجود ، وإن كان هذا الموقف لنا في غاية الصعوبة على طبيعة النفس البشرية ، ولكننا نعلم بأن الله عزوجل أراد أن يختبر فينا صدق الإيمان به والإخلاص له تبارك وتعالى ، ولأنني وصحابة رسول الله الأخيار والمخلصين صادقون في أنفسنا مع الله عزوجل ، فكنا كلما نثبت في هذا الامتحان العسير وننجح فيه **ما يزيدُنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، ومضياً** على طريق الدين وجادته وعلى **اللَقَمِ** ، **وصبراً على مضض الألم** الذي يعتصر عواطفنا وقلوبنا بسبب الثبات على قتال بعض أرحامنا المنضمين في جيش أعداء الدين ، وكان ذلك الثبات على صدق الإيمان في الجهاد ما يزيدنا إلا عزماً **وجداً في جهاد العدو** إلى درجة يا

أصحابي **ولقد كان الرجلُ منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان أنفسهما ، أيهما يسقي صاحبه كأس المنون ، فمرةً لنا من عدونا ، ومرةً لعدونا منا** والإمام علي عليه السلام عندما كان يقص الخبر لأصحابه لا يهدف إطلاقاً من الخطبة هذه أن يشجع أصحابه على قتل آبائهم وإخوانهم وأرحامهم كما كان يفعل ذلك سابقاً ، وقطعاً لا يريد إفهامهم ذلك أو تحريضهم عليه ، فهذا ليس هو الهدف من خطبته هذه ، وإنما أسرد القصة هذه كونها خير شاهد على صدق النية في نصرة الدين الإسلامي زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ أن زمانه سابقاً يختلف وزمن أصحابه اليوم ، والظرف الشرعي لأصحابه يختلف عن الظرف الشرعي لزمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الكرام ، أما الاختلاف في الزمانين فواضحٌ ، فزمن الرسول (ص) كان زمن التأسيس للدين الإسلامي ، بينما زمن خلافة الإمام علي عليه السلام كان زمن التقويم والإصلاح للتمرد السياسي المسلح ضد الحكم الشرعي ، أما اختلاف الظروف الدينية والشرعية بين الزمانين فواضحٌ أيضاً هو الآخر ، فالقتال والحرب في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ضد الكفار والمشركين والملحدين ، بينما حرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ظروف خلافته الراشدة إنما كانت ضد بعض المسلمين المتمردين سياسياً وعسكرياً بالرغم من كونهم موحدين ومصلين وصائمين وعابدين لله ، فقتال الإمام علي كان حرباً داخلية في المنظور السياسي الحديث بينما كانت حروب رسول الله (ص) جميعاً خارجية أي ضد الذين كانوا خارج دائرة الإسلام ، من هنا .. فلا يمكن لنا الحكم بوجوب قتل بعض الأهل من أرحامنا اليوم بحجة كفر بعضهم أو ارتدادهم مثلاً في هذا العصر من خلال الاستدلال بخطبة الإمام علي عليه السلام !! ذلك .. لأن ظرف التأسيس التاريخي يختلف عن ظرف التقويم ويختلف أيضاً عن ظرف الإصلاح ويختلف هو الآخر عن ظرفنا الإسلامي والسياسي الراهن الذي تقوم حضارته على الشورى والديمقراطية والتعددية والتسامح الديني واللاعنف والحرية ودعوات حقوق الإنسان !! فمن الجهل بمكان أن نستخدم آلية واحدة وثابتة للدفاع عن الدين في طول الأزمان وعرضه بغض النظر عن ديناميكية الإسلام

وحيويته !! والدليل القاطع على أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لم يهدف من خطبته هذه أن يدفع أصحابه باتجاه قتل آبائهم وأبنائهم وأرحامهم ، وإنما موضوع خطبته والهدف منها ما هو إلا التأكيد على أهمية صدق الإيمان وتعزيزه في النفوس كمعادلة حتمية إلهية للانتصار والفوز على الأعداء ، فالدليل هذا ثابت ومعزز من خلال النظر في بقية عبارات خطبته الشريفة ، حيث أردف عليه السلام قائلاً **فلما رأى الله صدقنا** الإيماني وإخلاصنا **أنزل بعدونا الكبت** والهزيمة الساحقة ، ليس هذا فحسب ، بل **وأنزل علينا النصر** المؤزر والحتمي لما رآه الله عزوجل من صدق الإيمان والتوحيد فينا ﴿ **ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ، وأهلكنا المسرفين** ﴾ الأنبياء/٩ .

ولأن المواقف الصادقة استمرت في حياة المؤمنين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد استمر وبسبب صدقهم هذا نزول النصر عليهم في جميع المواقع **حتى استقر الإسلام مُلقياً جِرَانَهُ** واطمئنانه وأمنه في الأرضين **ومتبوئاً أوطانَهُ** بالأمن والإيمان والحضارة **ولَعَمرِي .. لو كنا نأتي ما أتيتم** يا أصحابي اليوم من التردد والتواكل والتمصلح **ما قام للدين عمود ، ولا اخضر للإيمان عود** ولأنكم اليوم بالنسبة لي لستم كمثلي وكمثل خيرة الصحابة بالأمس بالنسبة لرسول الله من الإخلاص وصدق الإيمان ، فاستبشروا بالخذلان والهزيمة ، فأقسم **وأيم اللهِ .. لَتَحتَلِبُنَهَا** نتائج عدم صدقكم مع الله نتاجاً عكسياً فتشربوا بدل الحليب الصافي **دماً** ملوثاً وفاسداً ، ليس هذا فحسب بل **وَلَتُتبِعنُهَا** أعمالكم وحياتكم المستقبلية ستتبعونها **نَدَماً** وستجرونها حسرةً أبديةً ، كل ذلك بسبب خواء الإيمان الصادق في نفوسكم ، هذا أنتم وشأنكم ، ولكن .. ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً ، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب ، إن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ الأحزاب / ٢٣ - ٢٤ .

التولي .. والتبري

((أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل : رحب البلعوم ، مندحق البطن ، يأكل ما يجد ، ويطلب ما لا يجد ، فاقتلوه ، ولن تقتلوه !!

إلا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني ، فأما السب فسبوني ، فإنه لي زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تتبرءوا مني فإني ولدت على الفطرة ، وسبقت إلى الإيمان والهجرة)).

صراع الحق والباطل مستمر في كل زمان ومكان ، وعلى رأس كل جبهة منهما رمز يمثل الفريق الذي يقوده ، ولأن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) خليفة المسلمين وهو أمير المؤمنين كان الخوارج والمبطلون وأمثالهم يمثلون الفريق الآخر من الصراع المسلح والمتمرد عسكرياً على نظام الخلافة الإسلامية الراشدة ، لذا كان من الطبيعي والأمر الحتمي في فقه الدولة الإسلامية الحكم بوجوب هدر دماء المعتدين إذا فشلت معهم كل أشكال الحوار والنصيحة والصلح والاحتواء السلمي . ولما كان من البداهة أن يصدر حكم الإعدام ضد قائد عساكر المتمردين بالسلاح والإفتاء بهدر دمه ، وهو ما أمر به أمير المؤمنين كونه الخليفة الشرعي والرسمي والقانوني

لدولة المسلمين ، نجد أنه عوضاً من أن يتوجه المسلمون كافة إلى تنفيذ الحكم الجزائي ضد أمير الجماعات المتمردة راح بعض أصحاب الإمام علي (عليه السلام) وشتات من المسلمين بالانقلاب على مواقفهم الشرعية وإلى سب خليفتهم الشرعي والبراءة منه تحت ضغط عوامل الترغيب والترهيب ، وخصوصاً الترهيب الذي كان يجبر البعض تحت تهديد السيف على أن يتخذ مواقف عدائية حقيقية أو حتى شكلية ضد الإمام علي (عليه السلام) وحسب ظرف الترهيب ودرجة قوته وضراوته .

لهذا السبب أراد الإمام علي (عليه السلام) أن يُبَيّن في خطبته هذه الأحكام الشرعية التفصيلية المترتبة على المواقف العدائية الحقيقية والشكلية ضد خليفتهم الشرعي وما يجوز منها وما لا يجوز مع النظر لأحكام الضرورة التي تفرضها عوامل الترهيب ، كل هذه المواقف العدائية ونقيضها الولائية ، القلبية الباطنية منها والظاهرية ، والمتأرجحة الاتجاهات ما بين أمير المؤمنين وبين نقيضه تدخل في ضمن التكاليف الشرعية الحساسة التي لابد للمسلمين أن يكونوا واعين لها لأن لها مدخلية كبيرة في حقيقة إيمانهم ، ذلك أن جميع هذه المواقف بمختلف تبريراتها وحقائقها واتجاهاتها التي لا يطلع على خفاياها الواقعية وأسرارها لأنها خفية بين العبد وربّه كلها تدخل تحت عنوان كبير وخطير هو .. التولي لأولياء الله .. والتبري من أعداء الله ، والذي بهما يُفرق بين المؤمن الحقيقي والمنافق المزيف .

وموضوع التولي والتبري هذا يُعَد من أبرز المواضيع الإلهية التي فرضها الله تبارك وتعالى وأوضحها في كتابه العزيز ، ودارت عليه أحداث تاريخية كبيرة ، ويكفينا دليلاً على أهمية هذا الموضوع وحيويته في الفكر الإسلامي ما أفرد له الله عز وجل من كاملة بهذا الموضوع في كتابه العزيز تحت اسم .. سورة التوبة ، السورة الوحيدة التي ليس فيها البسملة الرحمانية الرحيمية ، لأن هذه السورة الشريفة جاءت من مطلعها مشددة على البراءة من أعداء الله وأعداء رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم).. ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .... وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر : إنّ الله بريءٌ من المشركين ورسوله** ﴾ ، والآيات القرآنية الداعية للتبري من أعداء الله كثيرة جداً ، أما بشأن

ضرورة التولي لله ولرسوله ولأوليائه فهي أيضاً كثيرة وعديدة ، ولعل من أبرزها قوله تعالى :﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾.

ولأن مواقف التولي والتبري تنطوي على أحكام شرعية تفصيلية هي في غاية الأهمية ، قام الإمام علي (عليه السلام) بشرح تلك المواقف المختلفة وتوضيحها في خطبته هذه ، حتى يتبصَّر المسلمون بها خصوصاً في عهد الأزمات والفتن والاضطرابات التي طالما تتداخل بها المواقف العدائية والولائية بعضها ببعض وتتشابك فيها الاتجاهات الحقيقية والاتجاهات المعاكسة ، فاندرجت تلك المواقف على الصور والأشكال المختلفة التالية :

١- الولاء الحقيقي للإمام والظاهري معاً .

٢- العداء الحقيقي للإمام والظاهري معاً .

٣- الولاء الحقيقي للإمام والعداء ظاهري .

٤- العداء الحقيقي للإمام والولاء ظاهري .

٥- البراءة الحقيقية من عدوّ الإمام والظاهرية .

٦- الموالاة الحقيقية لعدو الإمام والظاهرية .

٧- البراءة الحقيقية من عدوّ الإمام والموالاة الظاهرية له .

٨- الموالاة الحقيقية لعدو الإمام والبراءة الظاهرية له .

وهذه الأقسام الثمانية المتأرجحة في الموالاة والبراءة بين الإمام علي عليه السلام وبين أعدائه قد فصلها الإمام وأوضحها في خطبته حيث قال **أما أنه سيظهر عليكم بعدي** من الأعداء رجل **رحب البلعوم** عريض وواسع ، على شكل كبير **مندحق البطن** إلى درجة أنه **يأكل ما يجد ، ويطلب ما لا يجد ، فاقتلوه** لأن ذلك مصداقٌ لكم بالبراءة الحقيقية منه والظاهرية ، ولأن الكثيرين منكم ستختلف مواقفه بالبراءة أو الموالاة الحقيقية منها والظاهرية وحسب أحكام

الضرورة ، لذلك **ولن تقتلوه** إما رغباً في دنياه أو رهباً من سيفه .

ألا وإنه سيأمركم بسبي وبالبراءة مني ، وأما السب فسبوني بألسنتكم في موقفكم الظاهر فقط **فإنه زكاة لي** وطهارة ونماء ورفعة لي ، ليس في الآخرة فقط بل وفي الدنيا أيضاً ، وأما سبكم لي على ظاهر ألسنتكم نتيجة عوامل الترهيب والإرهاب فلكم الرخصة في ذلك **ولكم نجاة** من شر الطغاة ، وقد رخصه الله عز وجل لغيركم من المؤمنين في حالة الضرورة القصوى ، كما فعل ذلك الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه ، إذ أنه لما نطق لسانه بالكفر وتعظيم آلهة الجاهلية مجبوراً تحت وطأة التعذيب النفسي والبدني الشديدين فكان ذلك نجاة له من إرهاب طغاة الجاهلية ، وهذه التقية والنجاة وسعت له على أثر ذلك تكملة مشوار التضحية والجهاد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بكل ثبات واقتدار ، في الوقت الذي كان قلبه مطمئناً بالإيمان وراسخاً بعقيدة التوحيد ، فرخص له الله ذلك وبرأه من الشرك برغم التفوه بالكفر في حالة الضرورة القصوى ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ النحل/آية ١٠٦ .

ولكن الأمر المنهي عنه في شريعتنا الغراء هو البراءة والتخلي عن الله أو عن رسوله وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) أو عن صحابته المخلصين وعن سائر المؤمنين المتقين ، فهو يعد من كبائر الذنوب التي لا تغتفر إلا بالتوبة وتجديد الولاء ، مهما كانت مبررات الضرورة وأحكامها ، فإن قاعدة : الضرورات تبيح المحظورات ، تتوقف هنا ولا يمكن العمل بها ، ذلك أن الرخصة الشرعية تنعدم في هذا الموضوع بالذات . فالولاية لله ولرسوله ولأولي الأمر من ضرورات الدينِ التي لا رخصة للمكلف في التنصل منها إطلاق **وأما البراءة ، فلا تتبرءوا مني** لقوله تعالى في سورة النحل /آية ١٠٦ : ﴿ **ولكن من شرح بالكفر صدراً ، فعليهم غضبٌ من الله ، ولهم عذابٌ عظيم** ﴾ فالبراءة من الشيء تعني : ترك الشيء والكفر به وعدم الاعتقاد به ، لا يُقال بأن البراءة اللسانية لا تجوز شرعاً ، ويجوز السبّ باللسان فقط رخصة عند الضرورة القصوى ، وقوفاً على ظاهر النصّ بجواز السب باللسان دون البراءه به ، والجواب : أن البراءة باللسان تجوز عند الضرورة كما يجوز

السب أيضاً فكلاهما نفس الشيء ، ويؤديان لنفس النتيجة ، لأن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يقصد في هذه الفقرة من الخطبة بالتبري.. التبري الظاهري باللسان ، إذ أن ذلك قد حدث واقعاً بالسبّ والشتم الذي قد أجاز لهم ذلك ، وإلا فإنه من القبيح لغة ومعناً أن يجيز الإمام علي (عليه السلام) سبّه على ظاهر اللسان ولا يجيز البراءة الظاهرية منه باللسان أيضاً !! وهو عليه السلام أمير المتكلمين وسيد البلغاء وإمام الفصحاء على العرب قاطبة !! ثم كيف يمكن التصور الذهني بتناقض قول الإمام (عليه السلام) بجواز السب باللسان وعدم جواز البراءة باللسان أيضاً ؟! في الحال الذي ليس فيه تناقض أصلاً !!

إذ البراءة اللسانية مندكة بشكل طبيعي وبديهي بمن يسبه باللسان ويشتمه ، مما يوحي لخصم الإمام علي (عليه السلام) أن في سبّ أصحابه له عليه السلام ما هو إلا البراءة منه أيضاً في ظاهره ، وإلا .. فعدو الإمام لم يكن ليعطي النجاة لمن سبّ الإمام علي (عليه السلام) وشتمه باللسان وهو يعلم قطعاً بأن الشتيمة منه ما هي إلا لقلقة لسان وأنّ قلبه مطمئن بالولاء الخالص له !! فأعداء الإمام تاريخياً ليسوا على هذا القدر من السذاجة والغباء !! حتى يعفوا عن أصحاب الإمام (عليه السلام) ويطلقوا سراحهم بمجرد اللقلقة بالشتيمة من دون التظاهر بالبراءة منه عليه السلام !! وما كان إطلاق سراح الصحابي عمار بن ياسر رضي الله عنه ليحصل ، والعفو عن تعذيبه ليتوقف إلا حين ظَنَت قريش أنه قد أعلن براءته القلبية بالفعل عن دين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وبعدما رأوا من لسانه المدح لآلهتهم !! .

فالتظاهر بالبراءة جائز شرعاً عند الضرورة القصوى كما ذكرنا ، لأنه تحصيل حاصل لظهور السب والشتم الظاهري على اللسان ، وإن الإمام علي (عليه السلام) عندما قال : فأما البراءة .. فلا تتبرءوا مني ! فإنه يقصد البراءة الواقعية والكراهة الحقيقية والعداوة القلبية ، وهذا هو المحرم شرعاً والذي ليس فيه رخصة ولا يقبل له عذر . وما أجمل وأوضح ما جاء في كتاب الله العزيز ، في مطلع سورة الممتحنة ، حيث تَضَمكَنَت في آياتها فصل الخطاب في موضوعي التولي.. والتبري : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ،**

وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي ، وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم ، فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا بُرآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

وإذا كانت أحكام الرخصة وضروراتها الشرعية تسري على جميع فروع العبادات مما تجعلها تتغير وتتبدل أو تتكيف مع ظروف أصحابها إلا أن الرخصة هذه تتوقف نهائياً عند موضوعي التولّي .. والتبريّ ، إذ أنهما عزيمة ولا رخصة شرعية فيهما ، فصلاة المسافر يُرَخص فيها القصر والجمع ، وهي تسقط نهائياً عن عاتق المرأة الحائض والنفساء ، ويُرخّص للمسافر والمريض والحائض والنفساء ترك صوم شهر رمضان إلى أجل آخر ، ويرخص للمعسر دفع ديونه حتى يوسر ، ويسقط وجوب الحج على غير المستطيعين له ، ويسقط الخمس والزكاة على فاقدي شروطه ، ويسقط الجهاد عن النساء والأطفال والضعفاء من الرجال ، كما يرخص للحاج ذبح هديه بمِنى عند فقده أو فقره وتبديل التكليف الشرعي بالصيام ، فكل هذه العبادات وغيرها تتوقف أو تتبدل أحكامها رخصة ورحمة للعباد ، إلا حكم وجوب التولي لأولياء الله ، ووجوب التبرؤ من أعداء الله ، ذلك .. لأن التولي لأولياء الله يعني التولي لله ، كما أن التبري من أعداء الله يعني التبرّي من الكفر والشيطان كما في قوله تعالى : ﴿ **إنما** – وهي أداة حصر – **وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين : يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ فلا يمكن بحال من الأحوال جمع التولي لله والبراءة من أوليائه في نفس الوقت ، فعن الإمام علي (عليه السلام) قال : ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه ، يحب بهذا قوماً وبالآخر عدوهم .

فمعادلة التولي والتبري طردية ولا يمكن لها أن تكون عكسية ، فقد قال رسول

الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : " طاعة عليّ ذل ، ومعصيته كفر بالله ، قيل : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، كيف تكون طاعة عليّ ذلاً ومعصيته كفراً بالله ؟!!؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : إن عليّاً يحملكم على الحق ، فإنْ أطعتموه ذللتم - أي لله وأطعتموه بخضوعكم للحق - وإنْ عصيتموه ، كفرتم بالله " . أي بحكم الله وجوب الولاية لأولياء الله والعكس صحيح كذلك ، فمن يتولَّ كافراً لكفره فقد كفر كذلك . فعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال : من أحبَّ كافراً ، فهو كافر .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإنّ أحكام الرخصة والمسامحة إنما تسري على فروع العبادات المختلفة ، وتتوقف بل تسقط عند موضوعي التولي والتبري وتكون عليه لازمة الوجوب لوجود النص الشرعي على ذلك ، فعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه قال : إنّ الله افترض على أمَّة محمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) خمس فرائض : الصلاة والزكاة والصيام والحج وولايتنا ، فرخَّص لهم في أشياء من الفرائض الأربعة ، ولم يرخِّص لأحدٍ من المسلمين في ترك ولايتنا ، والله .. ما فيها رخصة .

والولاية هنا تعني : الولاية للرسول وأهل بيته (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولعل من أبرز مصاديق هذه الولاية وصورها المختلفة ما في قوله تعالى : ﴿ **قل** : - أي يا محمد لقومك - **لا أسألكم عليه أجراً ، إلا المودة في القربى** ﴾ الشورى/آية ٢٣ ، والقربى هم آل بيت الرسول الكرام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً ، لأنهم قرابته ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ الأحزاب / آية ٣٣ .

إن الحب .. والمعرفة .. والاقتداء .. والمودة .. والدفاع .. والغيرة .. والحمية .. والعشق لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وطاعتهم كلها تُعدُّ من أبرز مصاديق الولاء لأهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) ، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : معرفة آل محمد أمان من العذاب .

إن الولاء والمحبة للرسول وأهل بيته هي من الأحكام الأساسية الثابته في الدين

والعقيدة التي يجب أن تسود قلوب جميع المسلمين وتستقر بها ، إجلالاً وإكباراً وتعظيماً ومحبة لنبينا المختار سيد البشر وصفوة الخلق وخير الأنبياء وحبيب الله ، فالولاء والمحبة لآل الرسول كرامة للرسول ما هو إلا تعبير أخلاقي وإيماني منا بالولاء الصادق لله ومحبته جلّ شأنه ، وهذا النوع من الولاء لآل البيت لا يمكن أن يسقط عن كاهل المؤمنين ولا يمكن أن يرخّص لهم بالسقوط في أي حال من الأحوال ، فإن حكم الولاء هذا لازم على جميع المؤمنين ولا يمكن التنازل عنه بأي حال من الأحوال ، لأنه تنازل عن حكم الثوابت الإيمانية ، بالرغم من أنه يمكن أن تسقط بعض الأحكام الشرعية الأخرى أو تتأجل بحسب الضرورات التي تبيح بعض المحظورات ، ولكن الولاية لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .. ليس فيها رخصة ، لأنها هي بحدّ ذاتها من ضروريات الدين فكيف تسقط ؟؟!. فعن أبي حمزة الثمالي أنه سمع من الإمام محمد الباقر (عليه السلام) أنه قال : بني الإسلام على خمس : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم شهر رمضان ، والولاية لنا أهل البيت ، فجعل في أربعٍ رخصة ، ولم يجعل في الولاية رخصة .. فمن لم يكن عنده مال لم يكن عليه زكاة ، ومن كان مريضاً صلّى قاعداً ، وأفطر شهر رمضان ، والولاية ... صحيحاً كان أو مريضاً ، أو ذو مال ، أو لا مال له ، فهي لازمة .

وهناك قصص وحكايات تاريخية كثيرة تحكي عن بطولات عظيمة وتضحيات كبيرة لشخصيات ولائية وقفت وقفة مصيرية على درب الولاية كحكم إلزامي في أعناقهم ، ولم يتنازلوا قيد أنملة عنها ، لأنها لا تشتمل أحكامها على الرخصة والاستعفاء ، فهذا أبو يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت الدورقي الأهوازي العالم الفقيه والأديب اللغوي في عصره ، كان المتوكل العباسي قد ألزمه تأديب ولديه وتربيتهما ، فقال له المتوكل ذات يوم : أيهما أحب إليك يا بن السكيت ، ابناي هذان.. المعتز والمؤيد من أبنائي أو الحسن والحسين (عليهما السلام) ، فقال ابن السكيت : والله إن قنبراً خادم علي بن أبي طالب (عليه السلام) خير منك ومن ابنيك ، ثم أطرى المديح والثناء على الحسنين (عليهما السلام) ولم يذكر ولديه بخير ، فأمر المتوكل العباسي حرسه من الأتراك بقتله والتمثيل به ، فَسَلُّوا لسانه ، وداسوا بطنه ،

فحُمِل إلى داره مقتولاً رحمه الله .

ودعا أمير المؤمنين (عليه السلام) ميثماً ذات يوم وقال له : كيف أنت يا ميثم إذا دعاك دَعِيّ بني أمية .. عبيد الله بن زياد إلى البراءة مني ، فقال ميثم : يا أمير المؤمنين ، أنا والله لا أبرؤ منك ، فقال عليه السلام : إذاً .. والله يقتلك ، ويصلبك. فقال ميثم : أصبر ، فذاك في الله قليل ، فقال له الإمام علي (عليه السلام) : يا ميثم ، إذاً تكون معي في درجتي .

وروي عن مولانا أمير المؤمنين وولي أمر المسلمين عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه : " إذا عُرِضتُّم على البراءة منا ، فمدّوا الأعناق " والبراءه المقصود منها هاهنا هي البراءة في الجانب العملي من السلوك وليس في اللسان كمثل المشاركة مع الأعداء في محاربة الامام والخروج عليه ورمي السهم على معسكر الامام والتضييق على أصحابة وأتباعه وما شابه من أوجه المواجهة الضدية العملية .. لذا .. فقد روي أصحاب السِيَر والتواريخ بأن الكثير من أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ضحُّوا بأنفسهم وأموالهم غير متنازلين عن ولاية أمير المؤمنين ، كالأصحاب .. رشيد الهجري ، وكميل بن زياد النخعي ، وقنبر ، وآخرين ممن قتلوا وصلبوا وقطعت أيديهم وأرجلهم وألسنتهم .

إننا من هذا المنطلق نستوعب قول الإمام علي (عليه السلام) خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمة : وأما البراءة فلا تتبرءوا مني ، لأنه عليه السلام ابن عمه وزوج ابنته الزهراء ووالد أحفاده الحسن والحسين وزينب (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) والخليفة عليهم . وإن وجوب الولاية والمحبة له ليس لهذا الموضوع فحسب بل ولقوله أيضاً : **فإني وُلِدتُ على الفطرة** فكنت أول مولود من العرب وآخرهم الذي شرفني الله بولادتي في الكعبة المشرفة وكرم الله وجهي عن السجود لصنم في الجاهلية **وسبقتُ** الصحابة **إلى الإيمان** بالله ونبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا صبي ، وقد روى ابن فضيل عن ابن جوين العرني، أنه قال : سمعت علياً (عليه السلام) يقول : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمسُ سنين . وسبقتُكم يا أصحابي إلى التوحيد **والهجرة**

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة أَمَرَ الله مالكاً أن يُسَعِّر النيران السبع ، وأمر رضوان أن يُزَخْرِف الجِنان الثمانية ، ويقول : يا ميكائل مُدَّ الصراط على متن جهنم ، ويقول : يا جبرئيل انصب الميزان تحت العرش ، ونادِ : يا محمد ، قَرِّب أمتك للحساب ، ويأمر الله تعالى أن يعقد على الصراط سبع قناطر طول كل قنطرة سبعة عشر ألف فرسخ ، وعلى كل قنطرة سبعون ألف ملك قيام فيسألون هذه الأمة نسائهم ورجالهم على القنطرة الأولى عن ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) وحب آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فمن أتى به جاز القنطرة الأولى كالبرق الخاطف ، ومن لم يحب أهل بيت نبيه سقط على أم رأسه في قعر جهنم ولو كان له من أعمال البر عمل سبعين صِدّيقاً .

وعلى القنطرة الثانية يسألون عن الصلاة ، وعلى الثالثة عن الزكاة ، وعلى القنطرة الرابعة عن الصيام ، وعلى الخامسة عن الحج ، وعلى السادسة عن العدل ، فمن أتى بشيء من ذلك جاز كالبرق الخاطف ، ومن لم يأت عُذُبَ ، وذلك قوله : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون** ﴾ يعني معاشر الملائكة ، وقفوهم - يعني العباد -على القنطرة الأولى ليُسْألوا عن ولاية الإمام علي وحب أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) .

التراشق بدعوات التكفير

((أصابَكُمْ حاصِبٌ ، ولا بقي منكم آبِرٌ ، أبعد إيماني باللّه ، وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، أشهدُ على نفسي بالكفر ؟!! لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين !! فأُوبُوا شَرَّ مآب ، وارجعوا على أثر الأعقاب ، أما أنكم ستلقون بعدي ذُلّاً شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ، وأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظالمون فيكم سُنَّةً)) .

ديار المسلمين كلها تعتبر ديار كفر وارتداد ، وجميع المسلمين في النار ، وكلٌّ من في أرض المسلمين محكوم بالكفر والزندقة ، إلا من أظهر إيمانه لنا ولجماعتنا ، ولا يجوز للمؤمنين منا ومن جماعتنا أن يجيبوا داعيا من المسلمين للصلاة في مساجدهم ، ولا يجوز الإئتمام بأئمة المسلمين ، ولا أن نأكل من ذبائحهم ، ولا أن يتزوجوا منَّا أو نتزوج منهم ، ولا يرثون منَّا ، والمسلمون اليوم مثل كفَّار العرب في الجاهلية وعبدة الأوثان ، ولا يجوز أن نقبل منهم إلا الإسلام الذي نعتقده أو أن نحكم عليهم بالسيف !!

دعوات تكفير عامة المسلمين هذه ليست لأدعياء الجماعات الإسلامية المختلفة هذا اليوم والتي تتقطر من بنادقهم وخناجرهم دماء المسلمين البريئة من الشيوخ والنساء والأطفال الذين يذبحون اليوم كما تُذبحُ الشياة في وضح النهار باسم الإسلام والدين والعقيدة !! والتي تسود أخبارهم شبه اليومية صحافتنا وأجهزة الإعلام العالمي المختلفة .

فإن هذه الفتاوى التكفيرية الصفراء والمريضة ضِدَّ عامة المسلمين قد نقلها لنا العلامة المتبحر الشيخ ابن أبي الحديد المعتزلي رحمه الله في شرحه لنهج البلاغة لظاهرة التراشق بدعوات التكفير ضد عامة المسلمين لأكثر من ألف عام مضت من تاريخنا ، والتي نقلها لنا عن لسان أحد أبرز خوارج هذه الأمة قديماً وهو نافع بن الأزرق لعنه الله ، والذي بسبب فتاواه التكفيرية هذه قد استبيحت دماء وأعراض عامة المسلمين ، وتسببت في انشغالهم بحروب ومعارك داخلية وعداوات جاهلية راح ضحيتنا ألوف من أبرياء المسلمين ، وهدرت أموالهم ، واستبيحت كراماتهم .

ليس هذا فحسب .. فقد أفتى لعصاباته من ذوي الإرهاب الديني المتأسلم ، بجواز استحلال الغدر بأمانات المسلمين ونكث عهودهم لأنهم محكومين بالكفر والارتداد عن الدين ، فالحرب معهم خدعه ، لذا يجوز خداعهم والغدر بأماناتهم !! وكان يتبجح باستدلالته الفقهية المركبة تركيباً خاطئاً بجواز قتل أطفال المسلمين للحكم بكفر آبائهم ، واستناداً للآية القرآنية الشريفة التي جاءت على لسان نبينا نوح عليه السلام في قوله تعالى ﴿ **ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إنْ تذرهم يُضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً** ﴾ نوح / ٢٦ -٢٧ .

وهذا شبيب ابن يزيد الشيباني الخارجي لعنه الله يخطب في جماعته يحثهم على جهاد المسلمين !! وقتلهم !! وسلب أموالهم !! واستباحة أعراضهم !! وينقل إلينا ابن أبي الحديد في كتابه إحدى خطب الشيباني الجهادية !! والحماسية !! يستحثهم قتال عامة المسلمين !! بخطب ومواعظ دينية ، وشعارات إسلامية براقة !! فبعد سبه الخليفة عثمان ولعنه الإمام علي والبراءة منهما !! يصيح بفيالقه القتالية وعصاباته الإرهابية المسلحة بقوله : تيسَّروا يا إخواني للخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين ، الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، ولا

تجزعوا من القتل في الله ، فإنَّ القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم ، مفرق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم ، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ، وأن اشتد لذلك جزعكم ، ألا فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم ، تدخلوا الجنَّة !!

وكلنا نهتف ونقول مع الإمام علي عليه السلام ضدّ أولئك النفر الذين في إرهابهم بالفكر الديني المنحرف إنما يقتلون الدين باسم المتدينين ويشوهون صورة الإسلام باسم المسلمين تحت دعاوى التكفير وإلغاء الطرف الآخر بالقوة ، والذين يستخدمون العنف والإرهاب باسم الدين ، وديننا الإسلامي منهم براء إلى يوم القيامة ، نقول لكل هؤلاء ونردد كما قال الإمام علي في بداية خطبته لهم **أصابكم** إن شاء الله **حاصب** الرياح الشديدة الرملية المليئة بالحصى كالإعصار يعصركم إنشاء الله تعالى ويبيدكم ، يأخذ أعماركم هذا الإعصار الشديد يفنيكم بحيث **ولا بقي منكم آبرٌ** ولا أثر ، بحيث تتبخر أفكاركم السوداء في الهواء ، كما تتفتت أجسادكم في ريح الإعصار الشديد ، فياعجباً .. من أفكاركم العمياء هذه وفتاواكم السوداء **أبعد إيماني بالله ، وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله** تريدون أن **أشهد عليّ نفسي بالكفر** ؟!!! حتى تبررون لأنفسكم شرعية قتلي !! **لقد ضللتُ إذاً ، وما أنا من المهتدين** إذا أنا أيدتُ فتاواكم الضالة شرعية الحكم بكفري ، وأعطيتكم المبرر الزائف لقتلي **فأُبوا** وارجعوا **شر مآب** وسوء المصير في الدنيا قبل الآخرة **وارجعوا على أثر** خلفية دعواتكم تكفير المسلمين **الأعقاب** والأجواء الجاهلية القديمة ، الذين كان منطقهم عدم الحوار ، والسرعة في الحكم بإلغاء الرأي الآخر ، وأحذركم أنتم أيها الخوارج في عصري ، كما أحذر من يأتي بعدكم مستقبلاً في العصور المقبلة من بعض دعاة التكفير وأحزابهم الإرهابية الذين يقتلون ويفجرون ويذبحون الناس باسم الدين **أما أنكم** أيها التكفيريون **ستلقون بعدي ذُلاً شاملاً** لأحزابكم الفاشلة ومناهجكم المرعبة وعقولكم المتحجرة ، في عصر التسامح والحوار والديمقراطية والنهضة العلمية ، ليس هذا فحسب .. بل ستلقون على أثر أعمال العنف الدموية مؤسسات قضائية دستورية تلاحقكم **وسيفاً** قانونياً **قاطعاً** في المحاكمات ضدّ حججكم الواهية في المحاكم الحديثة تعاقبكم .

ولأنكم إرهابيون .. ولا تؤمنون بالحوار .. وتستخدمون الدين ذريعة لتكفير المجتمع ، فتعزلون عن الاختلاط بالمجتمع الكبير المتسامح ، فستلقون على أثر ذلك من كافة المؤسسات الشعبية والدستورية مقاطعة عامة **وأَثَرَةً** واستبعاد جماعاتكم غير القابلة للإنصهار في المجتمع الحديث والمتحضر ، هذا بالنسبة لموقفنا القانوني تجاهكم في ظل نظام دولة الشورى والديمقراطية ، ولكننا غير مسئولين عما سيحدث لكم ولأحزابكم في ظل أنظمة الحكم الديكتاتوري ، فإننا نخشى وبفعل مواقفكم الإرهابية أن تجرون مجتمعكم لحمامات دماء **يتخذها** الحكام الديكتاتوريون و**الظالمون فيكم** قتلاً وسجناً وتعذيباً وملاحقةً غير قانونية ، يتخذونها ذلك فيكم **سُنةً** وعادةً لا تتغير وذريعة ضدكم لا تتبدل ، حتى لو تغيرتم فعلاً ، وأردتم الاندماج مع مؤسسات المجتمع الحديث ، فتاريخكم الأسود والدموي القديم يتخذه الحكام الظالمون حجة عليكم ومبرراً ضدكم مهما تبتم واستغفرتم .

الدنيا عند ذوي العقول

((ألا وإنّ الدنيا دارٌ : لا يُسلَمُ منها إلا فيها ، ولا يُنجَى بشيء كان لها ، ابتُلِيَ الناسُ بها فتنةً ، فما أخذوه منها لها : أُخرجوا منه ، وحُوسِبُوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها : قدِموا عليه ، وأقاموا فيه .

وإنها عند ذوي العقول : كفيء الظِّلّ ، بَينَا تراهُ : سابغاً حتى قَلَصَ ، وزائداً حتى نَقَصَ)) .

قناعات الناس تختلف بعضهم عن البعض الآخر ، فالناس يشكلون قناعاتهم عن الأشياء والحقائق بطريقين : بالتشريع السماوي ، فيبحثون عن النص من الكتاب أو السنة حتى يقتنعوا ويعتقدوا ، ومنهم من يريد أن يشكل قناعاته الذاتية وتصوراته للأشياء من خلال العقل وأحكامه ، ولأن النصوص التشريعية ثابتة ومتداولة بين يدي الناس من خلال الكتاب والسنة الشريفة ، أراد الإمام علي عليه السلام أن يخاطب ذوي العقول بالمنطق المعقول عن حقيقة الأشياء في الدنيا ومدى علاقتها بالآخرة .

فبالنسبة للعقلاء .. فإنَّهم يدركون جيداً بأن الدنيا ليس آخر المطاف ، وأن لا بد للناس أن يلاقوا جزاء أعمالهم في عالم فسيح خالد يسمى بعالم الآخرة التي فيها مقر الإنسان الأبدي ، فإن فعل خيراً في الدنيا سلم في الآخرة من العذاب وأمن العتاب ، وإن هو فعل فيها شراً فمصيره العقاب ، هذا هو حكم العقل والمنطق بشكل مبدئي ، فإذا سألنا العقلاء : من الذي يستطيع أن يسلم في الآخرة من العذاب ؟؟ ويفوز بالثواب ؟ فإن قلنا : إنهم الأموات ، قال العقلاء : بأن الفرصة لهم قد انتهت ، وهم الآن في قبورهم رهن أعمالهم الماضية ، فالماضي في حكم العدم ، وإن قلنا : إنهم الأجيال القادمة التي سوف تولد وتخرج من الأرحام ، قال العقلاء : الحكم بالغيب بيد الله وحده ، ولا علم قطعي لنا بأن الدنيا هذه ستنتظر مواليد جدد ، ففي أي وقت يشاء الله أن يقول للحياة : توقفي ، وللدنيا : إنتهي .

فإذا كان نجاة الإنسان في آخرته ليس بيد الأموات ، لأنه لن يعود لهم الامتحان ثانيةً ، وليس بيد من لم يولد ، لأنه في حكم العدم كذلك كالأموات ، فينحصر نجاة الإنسان في حياة الإنسان وليس من خلال حياة الآخرين من الأموات أو ممن في الأرحام لأنهم عند العقلاء في حكم العدم والفناء ، فلا منجاة من دار الدنيا وفتنها وامتحاناتها إلا بالأحياء الفعليين منهم فيها **ألا وإن الدنيا دارٌ : لا يُسلمُ منها ، إلا من فيها** الآن من الأحياء بأعمالهم طبعاً ، وهذا طبيعة حكم العقل ، والعقل بطبيعة حاله يحكم بأن ما كان من اختصاصات الدنيا فهي لها ولا تنتقل ملكيتها لغيرها بحكم تملك بعضنا لها واستفادتنا الوقتية منها ، فجميع أنواع الملكية في الدنيا تحت يد البشر ما هي إلا ملكية إعتبارية ومتزلزلة ، ومردها للدنيا فتصير وتنتقل لغيرنا من البشر أيضاً ، فالأرض التي نزرعها وما انطوت عليها من خيرات ، والبحار التي نغوص فيها وما تخبئه من ثروات ، والسماء التي نحلق فيها وما تحمله من بركات ، مهما استملكناها فإنها ستنتقل رغماً عنا لغيرنا ، ولن نأخذ منها شيئاً معنا لآخرتنا كي تنجينا وتنفعنا هناك **ولا يُنجى بشيء كان لها** مما **ابتليَ الناس بها فتنةً** والتي من أبرزها فتنة المال والبنين وما ينطوي فيها على الملذات والاستمتاعات ﴿ **وأعلموا : أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ الأنفال/٢٨ لأنه ليس المال المكتنز لا يفيد صاحبه فحسب بل حتى أولاد الإنسان لن يفيدوه عند

الحساب ، فكل من أخذ شيئاً مادياً من الدنيا وجمعه لملذاته واستمتاعاته مهما كانت حلالاً فإنه قطعاً وبحكم العقل سيخرج منها تاركاً عنها لغيره من البشر **فما أخذوه منها** من الدنيا **لها** ولأجل الالتذاذ بها لدنياهم **أُخرجوا منه** عن ملكيتهم قهراً بالموت ، وفي الآخرة سُئلوا **وحُوسبوا عليه** كل هذا يحكم العقل بأننا تاركوه في الدنيا لغيرنا ، أما ما أخذناه من الدنيا لآخرتنا من خير أو شر نجده أمامنا **وما أخذوه منها** من الدنيا **لغيرها، قدموا عليه** فوجدوه أمامهم **وأقاموا فيه** بالجنة أو في النار **وإنها** الدنيا هذه **عند ذوي العقول** والألباب والفكر وما تحمل من خيرات مادية ما هي إلا **كفيء** وخيال أو انعكاس **الظل** لأصحابها ، سرعان ما تتعكس نفس ظلالها لغيرنا من الأحياء الذين يأتون بعدنا **بينا** بينما وفي الحال الذي **تَرَاهُ** أي ظلال نعيم الدنيا **سابغاً** وممدوداً خيراته علينا ونحن صغار **حتى قلص** وزال بسرعة البرق ، لزوال أعمارنا ، بينما ونحن في مرحلة الكهولة نرى نعيمها الذي جمعناه وكنزناه تحت أيدينا كثيراً **وزائداً** عما تبقى لنا من حياة **حتى نَقَصَ** فجأة وزال عنا بموتنا ، أو ليس الحق مع ذوي العقول الذين يرون نعيم الدنيا سريعة الزوال ؟!! فهيا مع العقلاء نسرع خطانا للعمل الصالح ، ونتسابق معهم في فعل الخيرات ﴿ **ولكن ليبلوكم فيما أتاكم : فاستبقوا الخيرات** ﴾ المائدة / ٤٨ .

لكي لا تكون أعمارنا علينا حجة

((فاتقوا الله .. عباد الله .. وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزولُ عنكم ، وترحلوا فقد جُدَّ بكم ، واستعدوا للموت ، فقد أظلكم ، وكونوا قوماً : صِيحَ بهم فانتبهوا ، وعَلِموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ، ولم يتركُكُم سُدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموتُ أن يَنْزِل به، وإن غايةً تَنْقُصُها اللحظَةُ ، وتَهْدِمُها الساعةُ ، لجديرةٌ بِقِصَرِ المُدة ، وإن غائباً يَحْدوهُ الجديدان : الليلُ والنهارُ لَحَرِي بسُرعةِ الأَوبةِ ، وإن قادماً يقدمُ بالفوزِ أو الشقوةِ لمُسْتَحَقٌ لأفضْلِ العُدةَ ، فتزَودوا من الدنيا ، في الدنيا ، ما تحرزون به أنفسكم غداً . فاتقى عبدُ ربه ، نَصَحَ نفسَه ، قدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادعٌ له ، والشيطان موكلٌ به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه ليسوفها ، حتى تهجم منيته عليه ، أغفل ما يكون عنها ، فيا لها حسرةً .. على كل ذي غفلةٍ ، أن

يكون عُمُرُهُ عليه حجةً ، وأن تؤديه أيامُهُ إلى الشقوة ، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطره نعمةٌ ، ولا تقصر به عن طاعة ربه غايةٌ ، ولا تحل به بعد الموت ندامةٌ ولا كآبةٌ)).

لماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى ؟ وما هو الهدف من ذلك ؟ وهل خلقنا الله عز وجل وتركنا بدون مسئولية ؟ وإلى أين سينتهي بنا المطاف ؟ وأخيراً .. هل يمكن اللعب في الحياة والعبث بها كيف نشاء ؟ وهل فعلاً هناك ناس يعبثون في الحياة بلا مسئولية ؟ وهل نحن منهم ؟

أجل .. مع الغفلة يمكن أن نكون من العابثين في الحياة ، ولكن مع التقوى لا يمكن أن نكون من الذين يغفلون ويعبثون في الحياة ، إذ أن التقوى تعني .. البصيرة .. الهداية .. والعلم ، لذا .. أراد الإمام علي عليه السلام أن يرفع عن أعيننا غشاوة الغفلة بسلاح التقوى **فاتقوا الله .. عباد الله** .. لأن التقوى تعني جلاء الغشاوة ورفع الضلالة ووضوح الهدف ، ومن ثمَّ يسهل على المتقين معرفة مسئوليتهم في الحياة **وبادروا آجالكم** واسبقوا ساعة موتكم مبادرين **بأعمالكم** الهادفة ، وتاركين اللعب واللهو بأوقاتكم الثمينة .

وحتى لا تفنى أعمارنا بلا استثمار ، علينا أن نفكر كيف نبني دار القرار من خلال دار الزوال ، فإنه علينا أن نشتري الآخرة بما نملك اليوم من فرص ذهبية **وابتاعوا** واشتروا **ما يبقى لكم** في آخرتكم الباقية **بما يزول عنكم** في داركم الفانية ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ التوبة / ١١١ ومن أراد أن يشتري الآخرة عليه أن يستعد لبيع ما غلا ثمنه عند نفسه وهو الوقت والزمن وصرفه في أعمال هادفة لتعينه على الاستعداد للرحيل ، وعليه أن يسرع الخطى لذلك **وترحلوا فقد جُدّ بكم** وأسرع الوقت بالزوال ، فعمرنا قصير جداً ، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك وأفناك **واستعدوا للموت** منتصرين بأعمالكم **فقد أظلكم** الموت في أية لحظة ونزل بكم من حيث لا تشعرون ، والعابثون في الحياة بقدر ما يعبثون فإنهم يهدرون أوقاتهم بلا استثمار ، وبعد عبثيتهم وضياع أوقاتهم باللعب واللهو تضيع منهم أوقات أخرى بالنوم ، لكن

المتقين منتبهون وسرعان ما يستيقضون من غفلتهم بمجرد التذكير **وكونوا قوماً صيح بهم** عن نوم الغفلة **فانتبهوا** وأفاقوا عن غفلتهم ﴿ **إن الذين اتقوا : إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا ، فإذا هم مبصرون** ﴾ الأعراف/٢٠١ ولما يتبصر المتقون بمسئولياتهم فإنهم يدركون بأن دنياهم هذه ماهي إلا قنطرة يمرون بها سريعاً بحثاً عن الخلود الأخروي **وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار** باقية أبدية **فاستبدلوا** دنياهم لحساب آخرتهم.

إن الله عز وجل خلق لنا الحياة بكل ثرواتها وكائناتها من حيوان وجماد وخلق لنا الليل والنهار والشمس والقمر وجعلنا نمشي على الأرض ، وأعطانا العقل والفؤاد والسمع والبصر وأودع في أنفسنا طاقات هائلة وقدرات خلاقة ، كل ذلك .. ليس بلا هدف **فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً** بلا غاية ولا مسئولية **ولم يترككم سدى** هكذا مهملين وبلا تكليف كالبهائم ، قال تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ المؤمنون / ١١٥ - ١١٦ .

ثم يتحدث الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن : الساعة.. اللحظة .. المدة .. الليل .. النهار .. السرعة .. وعن التقدم ، وكأنه عليه السلام يتحدث عن الرأسمال الحقيقي للإنسان. وبالفعل .. فمعركة الإنسان القاسية تكمن في تطاحن الزمن مع عمر الإنسان زيادةً ونقصاناً ، وبالرغم من أن المعركة هذه توصف بالشراسة بين نقيضين ، بين من يريد التحطيم والفناء ، وهي عجلة الدنيا ، وبين من يريد الصمود والبقاء من جهة أخرى في معركة إثبات الوجود بين قوى الفناء من جهة وبين الساعين لمزيد من البقاء من جهة أخرى . فقوى الفناء متعددة الأسلحة ، وهي عبارة عن عما ذكرناه في البداية : الساعة .. اللحظة .. المدة .. السرعة .. التقدم .. الليل .. والنهار .. ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون** ﴾ سورة يس/ آية ٤٠ .

هذا من جهة .. ومن جهة أخرى فإن الإنسان الساعي بطبعه للتسلح بالمزيد من عوامل البقاء أمام أسلحة الدنيا الفتاكة بعمر الإنسان ، والصمود بوجه الزمن المتسارع نحو الفناء ، يحاول الإنسان في ظل هذه المعركة أن يتسلح بعوامل الديمومة

، فماذا يعمل ؟ إنه يحسن تغذية الطفل حتى ينمو قوياً متعافياً مقاوماً لعوامل الاضطراب الغذائي ونقص الفيتامينات الضرورية التي تقف مانعاً أمام تطور الحركة الطبيعية لنمو جسم الأطفال بشكل سليم ومتعافى ، ثم يتسلح بالعلم الذي يفتش عن جميع عوامل الخراب والفناء في حياة الإنسان ، فيقاومها ويتحصن ضدها ، كما يقوم الإنسان بتطوير العلوم الطبية لكي يتحصن أمام أسباب وعوامل المرض فيهاجمها في مكانها ، وسرعان ما ينْقَضُّ على الأمراض فيحاصرها قبل انتشارها ، ثم بعد ذلك يوفر للكبار أسباب الحياة الآمنة ضد الأخطار المحتملة ، حتى يعيشوا بسلام .

كما يقوم الإنسان باختصار مسافات السفر التي كانت قديماً تأكل من عمره سنين طوال ، فيعمد إلى تطوير وسائل النقل السريعة من الطائرات والقطارات والسيارات والسفن ، كما يسعى الإنسان لمزيد من التطور باتجاه تقريب المسافات البعيدة بين الأفراد لاختصار الوقت والجهد وذلك بتطوير وتوسعة شبكة الاتصالات العالمية الحديثة مثل الهاتف المحمول والفاكس والتلكس والبريد الإلكتروني ، وأصبح إنسان اليوم منعكف على تطوير تبادل المعلومات عبر وسائل الإذاعة والتلفاز والشبكات الإلكترونية والأقمار الصناعية ، كل ذلك من أجل التسابق مع الزمن في معركة الحياة بما يصبُّ في مصلحة الأفراد .

ولكن الدنيا تقف أمامنا بالمرصاد ، فكثير من عوامل الفناء صنعناها ضدنا بأيدينا حديثاً ولم تكن من ذي قبل . فنحن كلما حاولنا تطوير أسلحتنا العلمية في معركتنا ضد عوامل الفناء الدنيوية ، نجد أن الدنيا تخطف حياتنا كل يوم فجأة من حيث يتم تطويرها بأيدينا . فأسلحة الفناء الدنيوية أصبحت اليوم متعددة وأكثر شراسة ضد أنفسنا عن أي يوم مضى في تاريخنا البشري .

وإن كثير من أسباب الموت اليوم إنما هو من نتاج صناعة الإنسان المتحضر ، فوسائل النقل الحديثة تلك التي طورناها لخدمتنا نجد أنه لا يمر يوماً واحداً إلا ونسمع فيه عن أخبار حوادث السير الفظيعة في الطرقات البرية وحوادث السفن البحرية والمركبات والطائرات الجوية التي تخطف حياتنا فجأة ولا ترحم طفلاً ولا شيخاً .

وتطوير التكنولوجيا العلمية في مجال الكهرباء مثلاً نجد أن الكثير من الأفراد ، وبعضهم على مستوى أسر بكاملها ، تذهب ضحية الصعق الكهربائي القاتل أو الحريق المنزلي الفجائي الذي يشتعل بسبب تماس كهربائي ، وكذلك فإن التطور التكنولوجي في الاتصالات يتزامن مع تطور الجريمة المنظمة من خلال التأثر بمشاهدة أفلام العنف ، وتبادل المعلومات بين شبكات عصابات الجرائم الحديثة عبر تطور الاتصال الهاتفي واللاسلكي .

أما تطور الاتصال البصري عبر شاشات الكمبيوتر والفضائيات الخارجية والأقمار الاصطناعية فهي تؤثر في إشاعة أجواء الفساد والرذيلة لمن يسيء استغلالها بما يطور فظاعة الجرائم الاجتماعية التي ترتكب في حق البشرية ، كما أن الأقمار الصناعية ساهمت أيضاً في تطور وسائل التجسس على الدول والأفراد تمهيداً للسيطرة أو القضاء عليها عند اللزوم.

وإننا كلما طورنا علومنا الطبية لمقاومة الأمراض المختلفة فاجأتنا أمراض جديدة أكثر فتكاً وتهديداً لحياة الإنسان ، كما أضحت مراكزنا الصحية عاجزة عن علاج ظاهرة تفشي المخدرات وسمومها التي تحصد كل يوم شباب في عمر الورد وتزفهم إلى قبورهم .

أما تطور العلم في مجال الدفاع عن النفس ففي مقابله يتطور العلم ذاته في مجال الهجوم على الشعوب بشكل عام ، الأمر الذي جعل أسلحة الدمار الشامل المتطورة والتي هي من صناعة الموت لدينا تعد من أخطر ما يواجه حياة البشرية جمعاء .. صناع هذه الأسلحة والمحاربين منهم والأبرياء على حد سواء . فحين كان السيف لا يواجهه إلا حامل السيف .. واحد بواحد ، فلا يُقتل في غالب الأحيان إلا واحد منهما . فمهما حاولنا استباق عوامل الزمن لصالحنا كانت عوامل الفناء أكثر تطوراً وتحديثاً في اتجاه الموت والعدم **وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به** مهما طورنا أسلحة البقاء وقاومنا عوامل الفناء ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾ النساء / آية ٧٨.

إن صراعنا الحقيقي ليس مع الدنيا .. لأنها تمثل وجودنا وقد خلقها لسعادتنا

وقنطرة لآخرتنا ، وصراعنا مع الزمن فيها إنما هو بما تتضمن هذه الدنيا من عبارات الساعة .. واللحظة .. والمدة .. وتكور الليل والنهار والتي هي حصيلة عمر الإنسان ووجوده **وإن** أعمارنا عبارة عن **غايةً** وحياةً قصيرةً يجب استثمارها لحظة بلحظة .. والتي هي مهددة بالفناء في أية لحظة حيث **تنقصها** وتقضي عليها **اللحظة** العابرة من حساب حياتنا ، فالحياة ما هي إلا لحظات لا تمر لحظة إلا على حساب ما بقي لنا من لحظات **وتهدمها الساعة** المتسارعة ، هذه الحياة التي تنتقص منها أجمل اللحظات بسرعة هائلة ، وتخطاها أثمن الساعات والأوقات .

حقيقةً إن هذه الحياة قصيرة جداً **لجديرة بقِصَرِ المدة** وعلينا استثمارها **وإنّ** مستقبلنا القادم **غائباً** مهما يطويه و **يحدوه** ويتخطاه العاملان **الجديدان** والسريعان بشكل تلقائي وهما عاملا **الليل والنهار** اللذان لا يعترفان بصغير ولا كبير فوجود هذين العاملين **لَحَرِي** جدير بالإنسان أن يعرف بأن حياته ستجري **بسرعة الأوبة** حيث يرجع النهار بعد الليل كما يرجع الليل بعد النهار ، وهما يأكلان من حياة الإنسان **وإن قادماً** من أي واحد منا نحو الموت إنما **يقدم بالفوز أو الشقوة** بالجنة أو بالنار ، هذا الموت القادم لكل أحد لجديرٌ و **لمستحق** أن نستعد عند استقباله **لأفضل العدة** واحسن الزاد **فتزودوا** واستعدوا للموت **من الدنيا** ، **في** ظل وإمكانيات حياتنا **الدنيا** المتاحة بين أيدينا قبل فواتها عنا ، وعليكمٍ أن تتزودوا منها بأحسن طريقة وبـ**ما تحرزون** وتحصنون **به أنفسكم غداً** من العتاب والعقاب ، فإن أفضل ما نستطيع فيه أن نستبق به عوامل الفناء الدنيوية هو من خلال المزيد من تثبيت قيمة التقوى في حياتنا ومعاملاتنا اليومية وتأصيلها في نفوسنا ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ البقرة / آية ١٩٧ .

إن الله وهب لنا الحياة ، وجعلنا نعيش أعمارنا ، وأخفى علينا آجالنا ، إذاً ... فنحن مخلوقون وميتون فيما بعد ، وهذا يعني أننا أحياء بين العدمين ، بين أننا لم نكن موجودين فكنا ، وبين أننا لا نخلد في الحياة فمتنا وانعدمنا عن الوجود ، ولكن المشكلة تكمن فيما بين العدمين ، فإننا فيما بينهما أحياء ، وهذه ليست هي المشكلة ، ولكن الأمر الخطير في هذا يكمن في أننا نجهل جهلاً تاماً عن مقدار ما

نقضيه في هذه الحياة من أعمارنا ، فكل شيء حولنا معلوم بينما تبقى آجالنا بحكم المجهول . ولأن جهلنا هذا مرتبط بأغلى ما نملكه وهو أعمارنا ووجودنا ، فكان حرياً بنا أن نستعد بالإيمان والعمل الصالح ليوم الرحيل قبل أن يباغتنا الموت فجأة ، والذي يأتي عادة من غير ميعاد ، فلابد من الاستعداد الجيد من الآن لساعة الرحيل . كما يجب التهيؤ لها حتى لا تكون أعمارنا علينا حجة يوم القيامة ولكن السؤال العريض هنا هو : كيف نستعد حتى لا تكون أعمارنا علينا حجة !!!.

هذا السؤال يجيب عليه مولانا أمير المتقين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) **فاتقى عبد ربه** طوال عمره ، وبالتقوى يكون في حصن حصين آمن حتى تأتيه ساعته المحتومة فلا يفاجأ بها ، لأن غير المتقين هم الذين يخافون أن يختطفهم الموت بغتةً ، ذلك.. أنهم لا زاد لديهم للمعاد . ولكن ما هو الطريق السليم لديمومة التقوى والزاد في طول أعمارنا ؟!؟ الجواب هو :

أولاً : **نَصَحَ نَفْسَهُ** وحاسبها باستمرار ، ولأن الإنسان على نفسه بصيرة ، فهو أولى بمعاذيره ، والتي عادةً ما يكتشف أن أكثر معاذيره وتبريراته زائفة من خلال محاسبة نفسه حيث يكون عقله وإيمانه وتقواه هم الناصحون لقلبه ونفسه وهواه .
ثانياً : **قدم توبته** بلا تأخير قبل حلول أجله ، فإن التوبة لا تفيد بعد يوم الندامة ، وإنما سميت القيامة بيوم الحسرة لأن الإنسان يتمنى أن يرجع ويعود إلى الحياة الدنيا فيعمل صالحاً ويستغفر ربه استعداداً ليوم منيته.. ولكن هيهات ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون ، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ المؤمنون/آية ٩٩-١٠٠.

ثالثاً : **وغلب شهوته** فانتصر يوم موته ، لأن الإنسان إما غالب وإما مغلوب عليه ، فإذا اتقى الله عز وجل في كل شيء فهو الغالب ساعة موته ، ومن ركبته الشهوات والملذات طوال عمره فهو المغلوب الذي انتصر عليه الموت أخيراً .

ولهذا فإنه على الإنسان أن يبادر بالتوبة والتقوى قبل حلول منيته **فإن أجله مستور عنه ، وأمله** بتأجيل التوبة حتى يهنأ **خادعٌ له** وأعداؤه يمارسون عليه فن الخداع باستمرار ، على الإنسان أيضاً أن لا يسمح ولا يعطي الفرصة

لأعدائه ليضحكوا عليه بكثير خداعهم . فالنفس الخادعة تضله **والشيطان موكل به** في كل آن ومكان ، والشيطان الرجيم باستمرار **يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه** إدراك التوبة فيما بعد **ليسوفها ، حتى تهجم منيته عليه** فجأة ، وهو بهذه الحالة **أَغْفَلَ ما يكون عنها** بينما الشيطان أحرص ما يكون عليها عندما طلب من الله عز وجل أن يمدگ في أجله.. ﴿ **قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ ص/آية ٧٩-٨٣. والمتقون التوابون هم المخلصون.

فيا لها حسرة علينا وعلى أيامنا الضائعة و **على كل ذي غفلةٍ** ممن أضاع عمره هدراً وعبثاً في **أن يكون عمره عليه** يوم القيامة **حجةً** فإنّ الله تبارك وتعالى يحتج علينا بأنه قد أعطانا وقتاً كافياً للتوبة ، وأمدنا بأعمار طويلة لم نستثمرها بالتقوى والعمل الصالح ، وكذلك.. يا حسرة على ضياع عمر الإنسان بلا فائدة **و** الحسرة الكبرى **أن تؤديه** وتقوده وتنتهي **أيامه** التي قضاها لعباً ولهواً **إلى الشقوة** والنار يوم القيامة .

وما أعظمك يا سيدي يا أمير المؤمنين (عليه السلام) .. وأنت الموصوف بإمام المتقين فلا يستحق مثل هذا اللقب العظيم غيرك .. فإمام المتقين حين خاطبنا هنا محباً وناصحاً لنا لم ينسى عليه السلام نفسه ونصيبه هو أيضاً من النصح فيدعو **نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة** البقاء في الحياة ، ولا تسبب لنا طول أعمارنا الطغيان والشقاء في الدنيا ، ونسأله تعالى أن يجعلنا ممن لا تشغله **ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية** من غايات الدنيا الفانية وحوائجها ، ونسأله تعالى أيضاً أن يجعلنا ممن لا تنزل **ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة** آمين يا رب العالمين .

في العرفان الإلهي

((الحمد لله الذي لم يسبق له حالٌ حالاً ، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً ، كُل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكُل عزيز غيره ذليل ، وكل قوي غيره ضعيف ، وكل مالكٍ غيره مملوك ، وكل عالم غيرِه متعلم ، وكل قادرٍ غيره يقدر ويَعْجَز ، وكُل سميعٍ غيرِه يَصَم عن لطيف الأصوات ، ويُصِمه كبيرُها ويذهب عنه ما بَعُدَ منها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام ، وكُل ظاهرٍ غيره غير باطنٍ ، وكُل باطنٍ غيره غير ظاهرٍ ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطانٍ ، ولا تخوفٍ من عواقب زمانٍ ، ولا استعانة على ند مثاورٍ ، ولا شريكٍ مكابرٍ ، ولا ضد منافرٍ ، ولكن خلائقٌ مربوبون ، وعبادٌ داخرونٌ ، لم يحْلُل في الأشياء ، فيُقال : هو كائنٌ ، ولم يَنْأَ عنها فيُقال : هو منها بائنٌ ، لم يَؤْدُهُ خَلْقُ ما ابتدأ ، ولا تدبيرُ ما ذرأ ، ولا وقف به عجزٌ عما خلق ، ولا وَلَجَت عليه شُبْهةٌ فيما قضى وقدر ، بل قضاءٌ مُتْقَنٌ ، وعِلمٌ محكمٌ ، وأمرٌ مُبْرَمٌ ، المأمولُ مع النقم ، والموهوب مع النعم)).

موضوع علم الحكمة يختص بالبحث عن الله عز وجل وطريقة التدليل على وجوده ، والعرفان باب من أبواب الحكمة ، بينما على الكلام إحدى تعاريف مصطلحات علم الفلسفة ، وكل فلسفة تبعدنا عن معرفة خالقنا فهي فلسفة سفسطائية شيطانية تبعدنا عن الحقيقة وتقربنا نحو شراك الشيطان وأضاليله ، ومن تاهت به النظريات التضليلية البشرية بعيداً عن الله عز وجل حُرِمَ الحكمة ولم يتلق علومها الحقيقية، ذلك أن رأس الحكمة كما جاء في الحديث.. هو معرفة الله عز وجل ، وهو جل وعلا يقول في محكم التنزيل: ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتيَ خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ البقرة/آية ٢٦٩ .

والحكمة ضالة المؤمن ، والمؤمن إنسان متشرع وعليه أن يبحث عنها من مصادرها الشرعية والحقيقية حتى يرتوي من عذب مائها ، ولن يجدها إلا في الكتاب والسنة الشريفة اللذّين اختص بهما وأحاط بعلومهما أهل بيت النبوة (صلوات الله عليهم أجمعين) قبل أن تنتقل من بيتهم إلى سائر صحابة رسول الله المخلصين . ففي بيتهم المطهر هبط وعرج سيدنا جبرئيل (عليه السلام) مخاطباً زعيم آل البيت رسول الله وحبيبه سيدنا ومنقذنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وبين أيدي أهل بيته المطهرين دارت أحاديث السماء فتناولتها قلوبهم الصادقة قبل أن تخرج من دارهم . وإن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) قبل أن يُعْرَف بين الناس بأمير المؤمنين كان هو أمير متكلمي أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) ، وكيف لا .. وهو موضع سر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلمه ، حتى قال فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنا مدينة العلم.. وعلي بابها وقال : أَعْلَمُكُم علي وهذا ما شهد به جميع صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين .

وهاهو باب مدينة علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يفتح لنا مكنون علِمه باباً عرفانياً في معرفة الله عز وجل .. **الحمد لله الذي لم يسبق له حالٌ حالاً** .. فحال طبيعة صفات الله سبحانه واحدة ليس في إحداها تأخير أو تقديم ، لا في الزمان ولا في المكان ، عن سائر صفاته الأخرى ، فهي جميعاً موجودة في أصل وجوده عز وجل وعلا عن الموجودات ، وليس كالمخلوق الذي يَتَخَلَف بالصفات تتابعاً فصفاته تنمو طوراً بعد طور بحسب تطور القابليات عنده مع حركة

الزمن ومناسبة الظروف ، **فيكون** الله عز وجل **أولاً قبل أن يكون آخراً** كالبشر ، كلا ... فالله تبارك وتعالى هو الأول قبل كل شيء ، وفي نفس الوقت هو الآخر بعد فناء كل شيء ، وهذا لا يعني أنه حدوثاً في البداية وله غايةً في النهاية ، بل إنه هو الأول وهو الآخر من غير بداية أو نهاية ومن غير تقديم أو تأخير ..

ذلك أن البداية والنهاية مفهومان بشريان ، ومصطلحان مخلوقان في أذهاننا وعقولنا العاجزة عن إدراك كنهه تعالى . بينما ، على سبيل المثال ، سيدنا آدم (عليه السلام) كان قبل كل إنسان ولكنه ليس آخر المخلوقين ، وهذا يعني أن آدم كأول مخلوق محدود بحدود ، وكل محدود مجسم ، فهو قبل كل مخلوق آدمي ولكنه ليس آخرهم... تعالى الله عُلُواً كبيراً عن التشبيه والمحدودية .

والله عز وجل ليس كالإنسان يكون باطناً لفترة ثم بعد ذلك يصبح ظاهراً ، فالإنسان كان باطناً وخفياً ما بين الأصلاب والأرحام ، وبعد زمن معين يظهر بالولادة . ولكن الله عز وجل هو الظاهر وهو الباطن في آنٍ واحد ، فهو الظاهر في آياته والباطن في كينونته وذاته **و** لا كالبشر **يكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً** أو العكس .

هذا من حيث التقديم والتأخير في الصفات الهيئة ، وأما من حيث الذات والأصل فهو واحد لا شريك له ، وكما أنه هو مصدر القوة والكثرة إلا أنه ليس قليل في وحدانيته كما نستشعر نحن القلة عند وحدتنا **كل مسمىً بالوحدة غيره** غير الله **قليل** ومستوحش ضعيف **وكل عزيز** في الظاهر **غيره** غير الله هو في الواقع **ذليل ، وكل قوي غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكلِ عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر** على فعل شيء **ويعجز** عن أشياء كثيرة لا حصر لها ، لا الله عز وجل .. فهو القادر القاهر .. تبارك الله رب العالمين.

ثم يأتي الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يتحدث عن بعض العلوم الغامضة التي نحن بحاجة شديدة لاكتشافها علمياً والتحقق منها **وكُل سميعٍ غيره** غير الله عز وجل **يَصَم عن لطيف الأصوات** فلا يسمع

الأصوات الخافتة والضعيفة ، في الوقت الذي **ويَصُمه** ولا يسمع من الأصوات **كبيرها ، ويذهب عنه ما بَعُدَ منها** وهذا ما أثبته العِلّم الحديث ، وهذا المقطع بالذات من خطبته يُعَد من معاجز كلماته عليه السلام ، فقد أثبت العلم الحديث أن إذن الإنسان لها ترددات سمعية محددة ، فلا تلتقط أذنه الأصوات التي تنبعث في الفضاء الخارجي بأقل أو أكثر من الترددات الطبيعية لطبلة الأذن ولا تستقبلها ، بينما تستطيع بعض الحيوانات سماعها لتفاوت أجهزة الترددات ومعاييرها المختلفة والموجودة في آذانها ، كما يضيف الإمام علي (عليه السلام) معلومة إضافية وجديدة لنا ولخصوص رجال العلم الحديث ، فكل إنسان ناظر **وكل بصير غيره** غير الله عز وجل **يعمى عن خفي الألوان** كما يعمى عن صغير **ولطيف الأجسام** ، فمن الواضح علمياً أننا لا نستطيع رؤية كثير من الأشياء بأعيننا المجردة ، بل وكثير من الأشياء وخصوصاً أجزاء الذرات نعرف ونعلم بوجودها ولكننا لا نستطيع رؤيتها حتى بالمجهر الحديث ، بل وإنه مما يصيبنا بالدهشة أكثر هو.. هل فعلاً أننا لا نستطيع أيضاً أن نرى جميع الألوان ؟! وهذا ما ينبغي أن يبحث عنه اليوم رجال العلم الحديث ويكتشفوه . ثم يقول الإمام علي (عليه السلام) **وكل ظاهر** من البشر **غيره** غير الله عز وجل لا يستطيع إلا أن يكون ظاهراً **غير باطن ، وكل باطن** منهم في قبره مثلاً **غيره ، غير ظاهر** وعاجزٍ عن الظهور ، بينما لا ظاهر الله يعجزه أن يكون باطناً ، ولا باطنه سبحانه يلزمه أن لا يكون ظاهراً ، فهو الظاهر وهو الباطن من غير تغليب **لم يخلق ما خلقه** من موجودات **لتشديد** وتقوية أو حراسة **سلطان** له أو عرش ، كما أنه عز وجل لم يخلق الإمكانات والقدرات رهبة من أحد **ولا تخوفٍ من عواقب زمانٍ** كما يفعل ذلك كثير منا ، عندما يكنز بعض الناس ثرواتهم خشية تقلب الظروف وأماناً من تغير الأحوال ، ولم يخلق الله عز وجل ملائكته كحراس وأعوان **ولا استعانةٍ على ندٍ مثاورٍ** وعدوٍ مصارعٍ ومنابذ ؟؟؟؟ **ولا شريك مكابرٍ ، ولا ضدٍ منافرٍ** أو واثب ، فهو عز وجل لا ند ولا ضد ولا شريك له في ملكه وسلطانه ، وإنما خلق عز وجل هذه المخلوقات المختلفة لكي يعبدوه فيجزيهم **ولكن خلائق مربوبون** وعبيد مملوكون **وعباد داخرون** وصاغرون .

والله عـز وجل مُنَزَّهٌ عن التجسيم **لم يَحلُل** ولم يشترك **في الأشـيـاء فيقال : هو كائنٌ** في ضمن هذه الأشياء ، وهو أيضاً سبحانه **ولم ينأ** ولم يبتعد **عنها** عن الأشياء **فيقال : هو منها بائنٌ** ومنقطع ، بل وإن المنفصل هو أيضاً شيء له مادته المفصولة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

كما وإن قدرة الله عز وجل في خلق الأشياء وإعادة خلقها وتكوينها كبيرة ويسيرة وعظيمة **لم يَؤُدْهُ** ولم يعجزه **خلق ما ابتدأ** ، **ولا تدبير ما ذرأ** لا يعجزه إدارة الخلق وتدبير شئونهم ، كما **ولا وقف** ولا انتهى **به عجزٌ عما خلق** فهو تعالى قادرٌ على ديمومة فعل المعجزات ، وأيضاً**ولا وَلَجَت** ودخلت **عليه شبهة فيما قضى وقدر** ، **بل قضاءٌ متقن ، وعلمٌ محكم ، وأمرٌ مبرم** وبالرغم من أنه تعالى شديد العذاب ، إلا أننا نرجو رحمته **المأمولُ** والمرجو رحمته **مع** كونه تعالى شديد **النقم** وفي نفس الوقت فهو المهيوب **والمرهوب مع** كونه سابغ **النعم** وكونه أرحم الراحمين.

اللهم صل على محمدٍ وآله

((اللهم داحيَ المدحواتِ ، وداعمَ المسْموكات ، وجابلَ القلوبِ على فطرتها ، شقيها وسعيدها ، اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك ، الخاتمِ لما سبق ، والفاتح لما انغلق ، والمعلن الحق بالحق ، والدافع جيشات الأباطيل والدامغ صولات الأضاليل ، كما حُمل فاضطلع ، قائماً بأمرك ، مستوفزاً في مرضاتك ، غير ناكلٍ عنٍ قُدُمٍ ، ولا واهٍ في عزمٍ ، واعياً لوحيك ، حافظاً لعهدِك ، ماضياً على نفاذٍ أمرك ، حتى أورى قبس القابس ، وأضاء الطريق للخابط ، وهُديَت به القلوب بعد خَوْضات الفتن ، وأقام موضحات الأعلام ، ونيرات الأحكام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، وبَعيثُك بالحق ، ورسولك إلى الخلق ، اللهم افسح له مفسحاً في ظلك ، وأجزه مضاعفات الخير من فضلك ، اللهم أعلِ على بناء البانين بناءه ، وأكْرِم لديك مَنْزِلَتَه ، وأتْمِم له نوره ، وأجزِه من ابتعاثك له مقبول

الشهادة ، ومرْضِي المقالة ، ذا منطِقٍ عَدْلٍ ، وخطةٍ فصلٍ ، اللهم اجمع بيننا وبينه في بَرَدِ العيش ، وقرار النعمة ، ومنى الشهوات ، وأهواء اللذات ورخاء الدعة ، ومنتهى الطمأنينة ، وتُحفِ الكرامة .)).

اللهم صلّ على محمد وآل محمد ، ما هو إلا دعاء وثناء وبركات يطلبها العبد من ربه ليرسل المزيد من الرحمة والبركات والخيرات على حبيبنا المصطفى وحبيب إله العالمين سيدنا أبي القاسم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكلمة **اللهم** تعني.. يا الله ، حيث حُذِفَت من اسم الجلالة ياء النداء واستبدلت عوضاً عنها بالميم في آخرها. وهذه الصلوات والتبريكات والدعوات للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدعو بها العبد فقط وإنما يصليها عليه الله وملائكته أيضاً ، كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب/آية ٥٦ : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾.

والإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) رائد المدرسة النبوية والسلالة الهاشمية يريد أن يعلمنا فنون الصلوات على سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خصوصاً أنه عليه السلام عميد الشجرة المباركة الهاشمية التي أصلها في الأرض.. محمد ، وفرعها في السماء.. آل محمد . فآل بيت الرسول معنيون قبل غيرهم بتعليمنا فنون الصلوات على زعيم أهل البيت صاحب الشجرة المباركة وراعيها ، ولو تتبعنا مختلف أنواع الصلوات على روح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي جاءتنا على لسان أبنائه من آل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) لرأينا أنها قد أضحت مدرسة كاملة بحد ذاتها في فنون التقرب إلى الله عز وجل بالصلاة على نبيه وآله (عليهم أفضل الصلوات والتحيات). وكيف لا .. وأكثر فقهاء الأمة وعلمائها يذهبون ببطلان الصلاة الواجبة التي لا توجد فيها ذكر الصلاة على محمد وآل محمد ، فقد قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) :((من صلى ولم يصل على النبي وتركه متعمداً فلا صلاة له)) ، وعن ابن مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

((من صلى صلاة ولم يصل فيها عليَّ وعلى أهل بيتي لم يقبل منه)). وأما في

غير الصلاة المكتوبة فإنها من أفضل العبادات ومن أفضل وسائل القربى إلى الله عز وجل ، فقد قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا رسول الله.. أرأيت قول الله تعالى : إن الله وملائكته يصلون على النبي ؟. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : هذا من العلم المكنون ، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به ، إن الله عز وجل وكلَ بي ملكين ، فلا أذكر عند مسلم فيصلي عليَّ إلا قال له الملكان : غفر الله لك ، وقال الله وملائكته : آمين ، ولا أُذْكَر عند مسلم فلا يصلي عليَّ إلا قال له الملكان : لا غفر الله لك ، وقال الله وملائكته : آمين .

من هنا كانت للصلوات على محمد وآل محمد مكانة كبيرة في قلوب المسلمين على مدى التاريخ وطوله وعرضه . وقد أبدع أهل البيت (عليهم السلام) إبداعاً منقطع النظير في فنون الصلاة على جدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

كما أفرد الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في الكثير من خطبه العظيمة مقاطع كبيرة في الصلوات ، وكان من أبرزها هذه الخطبة . وقبل الخوض في شرح متونها نعرج على ما ورد إلينا من ذرية أهل البيت (عليهم السلام) من جميل كلامهم وبديع عباراتهم في الصلاة على جدهم المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) . ففي دعاء الافتتاح والذي يستحب قراءته كل ليلة من ليالي رمضان المبارك ، قد ورد فيه مقطع من أروع مقاطع الصلوات على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : اللهم صل على محمد عبد ورسولك وأمينك وصفيك وحبيبك وخيرتك من خلقك وحافظ سرك ومبلغ رسالاتك أفضل وأحسن وأجمل وأكمل وأزكى وأنمى وأطيب وأطهر وأسنى وأكثر ما صليت وباركت وترحمت وتحننت وسلمت على أحدٍ من عبادك وأنبيائك ورسلك وصفوتك وأهل الكرامة عليك من خلقك . ومن الأفضل الابتداء بالتهليل لله عز وجل والتسبيح له والثناء عليه وتمجيده قبل الشروع بالصلوات على نبيه ، وهذا من باب وجوب الثناء للآمر والشكر له على المأمور به منه **اللهم داحي** وباسط جميع **المدحوات** والأسباب المبسوطة والمفتوحة من الأرضين والبحار والسماوات ، والتي بسطها الله عز وجل لعباده ليستفيدوا منها وينتقلوا فيها ومنها في حلِهِم وترِحالهم ، فيستثمروها ويعمروها لصالحهم ، والله تبارك وتعالى لم يخلق الماء والهواء والتراب بلا قواعد علمية وعملية طبيعية تحفظها عن الانهيار

وتصونها عن التداخل ، فهو باسط السماوات والأرض والبحار **وداعم المسموكات** الثلاث .. الماء ، والهواء ، والأرض.. بقواعد كونية وقوانين علمية غاية في الدقة والمتانة، قال تعالى :﴿ **قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شركٌ في السماوات ، أم آتيناهم كتاباً فهم على بيّنتٍ منه ، بل إن يَعِدُ الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ، إن الله يُمسكُ السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحدٍ من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ فاطر/ آية ٤٠-٤١ .

اللهم ... يا واجدُ **وجابلُ** وخالقُ **القلوب ، على فطرتها** التوحيدية ، المعترفة بالعبودية لك منذ أن خلقتها وقبل أن تتلوث بالحياة فتنقسم إلى **شقيِها وسعيدها** قال تعالى :﴿ **يوم يأتِ ، لا تكلمُ نفسٌ إلا بإذنه ، فمنهم شقيٌ وسعيد ، فأما الذين شَقوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ، إلا ما شاء الله ربك ، إن ربك فعالٌ لما يريد ، وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ، إلا ما شاء الله ، عطاءً غير مجذوذ** ﴾ هود / آية ١٠٥-١٠٨ .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) : هل أُبَشِرُك ؟ قال الإمام علي (عليه السلام): بلى بأبي أنت وأمي.. فإنك لم تزل مبشراً بكل خير ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أخبرني جبرئيل آنفاً بالعجب ، فقال الإمام عليه السلام : وما الذي أخبرك يا رسول الله ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أخبرني أن الرجل من أمتي إذا صلى علي فأتبع بالصلاة على أهل بيتي فُتِحَت له أبواب السماء ، وصلت عليه الملائكة سبعين صلاة ، وأنه إن كان من المذنبين تحات عنه الذنب كما تحات الورق من الشجر ، ويقول الله تبارك وتعالى : لبيك عبدي وسَعْدَيْك يا ملائكتي ، أنتم تصلون عليه سبعين صلاة وأنا أصلي عليه سبعمائة صلاة ، فإن صلى علي ولم يتبع بالصلاة على أهل بيتي كان بينها وبين السماء سبعون حجاباً ، ويقول الله جل جلاله : لا لبيك ولا سَعْدَيْك ، يا ملائكتي لا تصعدوا دعائه إلا أن يلحق بالنبي عترته ، فلا يزال محجوباً حتى يلحق بي أهل بيتي .

اللهم اجعلنا من المصلين على محمد وآل محمد ، فبعدما انتهى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته من الثناء على الله عز وجل وتعظيمه عرج مباشرة نحو موضوع الصلاة على رسول الله والدعاء له فقال : اللهم ... **اجعل شرائف** أطهر وأزكى وجميع **صلواتك** وأعلاها وأنماها **ونوامي** وما ينمو ويعظم من **بركاتك** وخيراتك الثابتة والمنزلة **على محمد** الذي هو في الحقيقة **عبدك** ومملوكك وأنت معبوده ، فهو عبدك وابن عبدك عبد الله ، قبل أن يكون نبيك **ورسولك** إذ أنه صلوات الله عليه وآله كان عابداً لله.. وموحداً له ومؤمناً به قبل البعثة بالرسالة ، هذا النبي الكريم الذي امتاز عن سائر الأنبياء الماضين كونه **الخاتم لما سبق** من الرسالات السماوية ، وهذا الاختصاص الذي اختص به رسولنا الكريم عن سائر الأنبياء عليهم السلام راجعٌ أحد أسبابه كونه المغلق لما انفتح على الناس من أبواب الشرك والكفر **والفاتح لما** حُرمنا الباب الذي **انغلق** ما بين السماء والأرض من رسالات وملائكة منزلين ، جميع هذه الصلوات والتحيات للنبي المُصلِح **والمعلن** والمُبَلغ للناس **الحق ، بالحق** وهو القرآن الكريم ، للحق الأعلى وهو الله سبحانه وتعالى ، وهذا تنبيه لمن يفكر من المسلمين أن يبلغ كلمة الحق ويعمل الخيرات بوسائل ملتوية أو غير مشروعة ، فالهدف يجب أن يكون طاهراً وهو لا يبرر الوسيلة عند الله ، فالهدف والدرب يجب أن يكونا كلاهما للحق.. بالحق.. ومن أجل الحق فقط لا غير .

هذه الصلوات المباركة على رسولنا الذي استخدم مِعْوَلَي العلم والعمل معاً لتحطيم معسكر الشرك ، ففي الميدان العملي كان هو **والدافع** والمقاوم عملياً **جَيْشاتِ** وتحديات أهل **الأباطيل** جميعاً وسياساتهم العدائية من أهل المشركين والكفار الذين كانوا يعملون ضد رسالته وكذلك أهل النفاق الذين كانوا يعملون على تقويض دولته من الداخل ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُحْبِط جميع مؤامراتهم بالمعجزة الظاهرية تارةً ، وبتنظيم أفراده وتجميع قواه في الظروف السرية والعلانية تارة أخرى ، كما وأن العمل الميداني تمثل في تأسيس أركان الدولة الحضارية ومؤسساتها ، وبالإعداد العسكري للقوات المجاهدة بالتوافق مع البناء الحضاري والعملي والروحي للمجتمع الجديد .

أما على صعيد الميدان الفكري والنظري .. فكان صلوات الله عليه وآله يهاجم الفكر الوثني الجاهلي ويفند أضاليل الأفكار المتخلفة مستعيناً بسلاح العلم والعقل والنقل السماوي ، فهو يعتبر المُبْطِل **والدامغ صولات** وشبهات وأراجيف أهل **الأضاليل** جميعاً من أصحاب الفكر المتخلف والرجعي .

وأما من أين لنا أن نستوحي الجانب العملي والميداني من عبارة الإمام علي (عليه السلام) : الدافع جيشات الأباطيل ؟.. ومن أين لنا أن نستقي معالم التحدي على الصعيد العلمي والنظري من عبارته : الدامغ صولات الأضاليل ؟.

فإنه يمكننا أن نستوحيها وببساطة من خلال القرآن الكريم . كيف لا ، وعلي هو القرآن الناطق والحافظ له كما عبر عن نفسه ، وهو القائل فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : علي مع القرآن.. والقرآن مع علي . إذن فمن الطبيعي بمن كان بمثل منزلة الإمام علي (عليه السلام) أن تكون عباراته وصياغة جمله مستوحاة في غالبها من أدب القرآن الكريم الذي تأدب به وتربى عليه صلوات الله وسلامه عليه ، ونحن نتلمس ذلك بكل وضوح ، وإن هذا من أبرز الأدلة على صحة نسبة نهج البلاغة له أمام تشكيك المشككين والمضللين !!. فكلمة الدفع في القرآن الكريم جاء ذكرها في عشر آيات مختلفة وهي في جميعها محمولة على الجانب العملي والميداني بشكل أساسي ، مثل قوله تعالى في سورة البقرة / آية ٢٥١ : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ . وكقوله تعالى في سورة الطور/آية ٨ :﴿ **إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع** ﴾.

وأما كلمة :- الدمغ ، فهي لم تذكر إلا في آية واحدة ، بمعنى تأكيد بطلان دعاوى المضللين والمشككين وتفنيدها بالحجج والأدلة النظرية وذلك في قوله تعالى :﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون** ﴾ سورة الأنبياء / آية ١٨ .

وإذا تساءلنا : لماذا يصلي الله وملائكته وسكان سماواته وحملة عرشه وأنبياؤه وأولياؤه وعباده الصالحون وأهل طاعته ... إلخ ، على نبينا وسيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ويسلموا تسليماً ؟؟. ولماذا أمر الله عز وجل في كتابه العزيز المؤمنين بالصلاة والسلام على نبيه ولم يذكر سائر الأنبياء عليهم السلام ؟؟.

ولماذا يفرد الإمام علي (عليه السلام) خطبة كاملة في الصلاة والتحيات عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟؟. وهل لذلك كله دلالة معينة وسبب خاص ؟؟.

أجل .. أن أهم سبب رئيسي يسلط عليه الضوء مولانا أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) يكمن في :

تحمله صلوات الله وسلامه عليه وآله كامل المسئولية الرسالية والأمانة الربانية ، جامعاً لكل صفات الامتياز والتفوق التي اتصف بها كل نبي مرسل وتميز بها على حدة وبشكل مستقل !!

كما وأنه صلوات الله وسلامه عليه نجح بتنفيذ جميع الأوامر الإلهية المتعددة والتوصيات المختلفة التي أمر بها الله عز وجل أنبياءه رسله طوال فترة حياته القصيرة نسبة لحياة سائر الأنبياء ، وبكل جدارة واقتدار !!.

فلو تقصينا أوامر الله عز وجل المتعددة لمختلف الأنبياء والمذكورة في القرآن الكريم لوجدنا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد نفذها جميعاً وتميز بجدارة وكفاءة تطبيق كامل تلك الأوامر وعلى أكمل وأحسن وجه حتى قال: ما أوذي نبيٌّ مثلما أوذيت ، فأكرمه الله وجعله سيد الأولين والآخرين.

وهذا ما أراد الإمام علي (عليه السلام) توضيحه لنا ، فلو تتبعنا بقية خطبته .. فقرةً.. فقرة ، وأمعنا النظر بكل كلمة وردت فيها لوجدنا أن ذات الأوامر والتوصيات التي ألزم الله تعالى بها كل نبي والمثبتة بشكل واضح في آيات القرآن الكريم ، لوجدناها قد جمعت كلها في سلوك وحياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصفاته الكريمة.

اللهم صل على محمد وآله كما... ولنا هنا وقفة تأملية مع هذه الكلمة.. لأنها المفتاح في فهم وإدراك معاني بقية العبارات واستيعابها ، فهذه الكلمة درج العرب على استعمالها للتعليل على موضوع الحديث والتفتيش عن سببه . فكلمة كما تعني.. لأن ، أو بسبب ، أو من أجل .. وما شابه ، كقوله تعالى في سورة الأنفال/ آية ٥ : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ .فهي تفسر هنا تراجعياً على هذا النحو : أن فريقاً من المؤمنين قد كرهوا الخروج للقتال

واستثقلوه ، وذلك ... بسبب خروج النبي من بيته للجهاد وهو حق ، فكان لابد لهم من الخروج اقتداءً به ولو كانوا كارهين . وكلمة **كما** هنا جاءت لبيان العلة .

ولأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لما **حُمّلَ** أمانة الرسالة ، تلك الأمانة التي لا تستطيع الدنيا بما خلق فيها من إمكانيات أن تتحملها : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً** ﴾ سورة الأحزاب / آية ٧٢ ، عدا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المعصوم عن الجهل والخطأ ، إذ أنه **فاضطلع** بها فوراً رغبة منه ودون كراهية ، ونهض بحملها كاملة دون نقصان . فلم ينفك ما استحقه في المعلول :- الصلوات والتحيات والتسليم له ، عن العلة وهي : فورية الاضطلاع والانقياد والاستجابة عندما حُملَ مسئولية الأمانة .

وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما نهض بحمل الرسالة وأداء الأمانة اتصف بصفات ريادية جعلته قائد الأمة الإسلامية بحق ، واستحق على ضوئها تلك الصلوات والتحيات والتسليم المأمورون نحن والملائكة بإهدائها لنبي آخر الزمان ، وقد تمثلت تلك الصفات القيادية في شخصيته كما أوضحها الإمام علي (عليه السلام) في بقية خطبته بما يلي :-

أولاً: **قائماً بأمرك** .. قال تعالى : ﴿**يا أيها المدثر قم فأنذر**﴾ المدثر / آية ٢.

ثانياً: **مستوفزاً** ومسرعاً **في مرضاتك** .. قال تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾ الانشراح / آية ٧-٨ .

ثالثاً: **غير ناكلٍ** ولا متراجعٍ **عن قُدُمٍ** والتقدم نحو الأمام :

﴿ **يا أيها النبي ، جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ التوبة / ٧٣.

رابعاً: **ولا واهٍ** ولا متردد ولا متواكل **في عزم** قرر فعله :

﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ آل عمران / آية ١٥٩ .

خامساً: **واعياً لوحيك** قال تعالى :﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما**

ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحيٌ يوحى ﴾النجم / آية ٢-٤ .

سادساً: **حافظاً لعهدك** الذي قطعه على نفسه بالوفاء به وهو التبليغ كما أمره تعالى : ﴿ **يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ المائدة / آية ٦٧ .

سابعاً: **ماضياً** مُصِرا **على نفاذ أمرك** وحكمك في الأرض

﴿ **فاصدع بما تؤمر . وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين** ﴾

الحجر / الآية ٩٤ – ٩٥ .

إن مجموع هذه الصفات القيادية وغيرها جعلت رسولنا الكريم أعظم إنسان يصلي عليه الإنسان. لذا فإنه من الأهمية أن ندعو الباري عز وجل أن يعلي رسالة الرسول في الأرض وينشر اسمه ويرفع درجاته في الآخرة ومنزلته فالحبيب المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) قد استحق أن يصلي عليه الله وملائكته والمؤمنون لإخلاصه في العبودية لله وجهاده المتواصل والحق في تبليغ رسالته العالمية **حتى** كانت النتيجة أنه بجهاده وجهوده أضاء وأشعل و **أورى قبس** وشعلة **القابس** الملتمس طريق الهداية والنجاة **وأضاء الطريق** المستقيم **للخابط** المتخبط والضائع عن شريعة الله خبط عشواء ، حتى اطمأنت **وهُدِيَت به القلوب بعد خوضات الفتن ، وأقام موضحات الأعلام** وعلامات الرشاد وواضحات **ونيرات الأحكام** الشرعية والعقلية **فهو** صلوات الله عليه وآله **أمينك المأمون** على رسالتك ، وذلك لأنه جامع **وخازن** في الأرض وناشر **علمك المخزون** عندك في السماوات العُلا **وشهيدك يوم الدين** والقيامة على الذين عاندوه وجحدوه وخالفوه بغير علم ولا دليل ، لأنه هو نبيك عليهم **وبعيثك بالحق ، ورسولك إلى الخلق** أجمعين .

فتعالوا معنا أيها المؤمنون نُهدي لنبينا أفضل ما يهدي أحدٌ أحداً وهو الدعاء لرسولنا الكريم **اللهم افسح له مفسحاً في ظلِك ، وأجزه** وكافئه **مضاعفات الخير من فضلك** ليس هذا فحسب ، بل وفي مثل هذا اليوم السعيد ندعوك ونحن نؤَمن على دعاء الإمام علي (عليه السلام) له.. يا رب **اللهم**

أعْلِ على بناء البانين بناءه ، وأكْرِم لديك منزلته ، وأتْمِم له نوره ، وأجزه من ابتعاثك له جزاءاً وافراً وعطاءاً كريماً بحيث يكون عنك يا رب **مقبول الشهادة** بالشفاعة لكل فردٍ فرد من أمته **ومَرْضِي** عندك يا إلهي بجميع **المقالة** التي يقولها لصالح المسلمين ، حيث إنك تعلم يا إلهي بأن جميع كلامه صلوات الله عليه وآله **ذا منطق عدلٍ ، وخطةٍ** ومنهجٍ **فصل** يفصل به المؤمنين المستحقين جنتك يوم القيامة عن الكافرين المستحقين لعذابك ، ونسألك اللهم أن تحشرنا مع نبيك وحبيبك ورسولك الشفيع ، لأن في حشرنا معه نطمئن بالفوز في رضوانك وحصول نعمائك **اللهم اجمع بيننا وبينه في بَرَدِ العيش ، وقرار النعمة ، ومنى الشهوات ، وأهواء اللذات ، ورخاء الدعة ومنتهى الطمأنينة ، وتحف الكرامة** اللهم آمين يا رب العلمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهـــــرس

يهدى ثواب هذا الكتاب لروح المرحومين

أكــــبـــــر غــــــريـب

رقـيــــه أكــبـــر غـــريـب

فــاطمـــه أكـبـــر غــريـب

ناديه عبد اللّه أكبر غريب

مـــيـــرزا علي مــحـــمـــد

مـحــمــد علي مــحــمـــد

شــهـريـان علي مــحــمـــد

غلوم أحــمــد مــحــمــد

خـليل علي مــــخـــتـــار

زينـب علي عـــبـــد الرضـــا

اللهم آغفر لهم و أرحمهم برحمتك الواسعة و أسكنهم فسيح جنتك ، و احشرهم مع نبيك محمد و آل محمد صلواتك عليهم أجمعين ، والفاتحة عليهم مع الصلوات على محمد و على آل محمد .

منهاج الحداثة لنهج البلاغة

الشيخ / عبدالعزيز عبدالله الحبيب

الجزء الأول